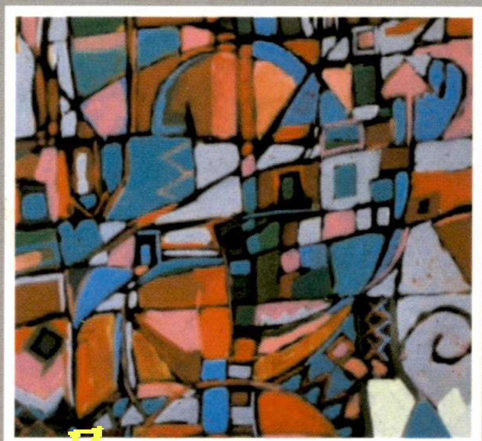
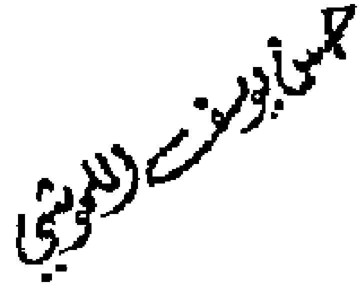
المولد

رواية



أمين مختار مازن

مجلس الثقافة العام



المولـــد

المولد

رواية

أمين مازن

الناشر
مجلس الثقافة العام

اسم الكتاب	المولد
اسم المؤلف	أمين مازن
سنة النشر	2006م
رقم الإيداع	5325 / 2006 م
الترقيم الدولي	ISBN - 9959 - 38 - 137 - 4

تصميم الغلاف	علي العباني
لوحة الغلاف	محمود الحاسي (تفصيل)
التنفيذ الفني	عاطف الأطرش - نجلاء المنقوش

إصدارات

مجلس الثقافة العام

المقر الرئيس - مجمع المؤتمرات - سرت

هاتف 002185468622 - بريد مصور 002185473161

فرع طرابلس - عمارة الواحات - شارع عمر المختار

هاتف 00218214449894 - بريد مصور 00218213335388

ص ب 2764 طرابلس

فرع بنغازي - الفويهات الغربية - الطريق الدائري الثاني

هاتف 00218612241577 - 00218612241578

بريد مصور 00218612241576 - ص ب 9351 بنغازي

بريد إلكتروني - LCC2_2005@yahoo.ca

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

تنفيذ الطباعة

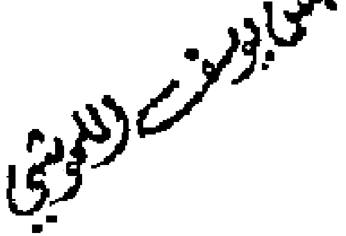
القاهرة ت 0020123140315

الإهـــداء

إلـــى كـــل

مـــن لـــم يخـــف امتعاضـــه

مـــن أداء واجـــبٍ ثقـــيل



ما أن ينفرط من فصل الربيع شهره الأول، ويطل الربع الثاني من السنة - وهو شهر يعتريه في الغالب شئ من الارتفاع الظاهر في درجة الحرارة - حتى يكون شبح الكساد وخمول الحركة، وندرة القادمين والذاهبين، أهم ملامح الواقع المنتظر للموجودين داخل ذلك المبنى الفريد في بنائه وطلائه وطول واجهته أيضاً .. المبنى الذي ظل لسنين طويلة محتفظاً بالتسمية التي أطلقت عليه عند تأسيسه من قبل سلطات الاستعمار الإيطالي، بما في ذلك دار العرض التي كانت تعرف باسم (سينما كاتانيا).

لقد ظل ذلك المبنى مهجور أو غير مستغل سنين طويلة حتى لقد بادر شباب الفرقة القومية عند تأسيس هذه الفرقة عقب الحرب بالانطلاق من ذلك المكان أثناء خوضهم لتجربتهم الرائدة في مجال التمثيل بعد أن توقف المبنى عن أداء مهمته التي أنشئ من أجلها في سنوات الاحتلال ومجيء الإدارة البريطانية التي لم تر ضرورة للإبقاء على الكثير من الأنشطة وفى مقدمة هذه الأنشطة معرض طرابلس أو الفييرا كما كان يعرف بالإيطالية، وكذلك فعل الحكم الوطني الذي لم يجعل من أولوياته تحريك مثل هذا المرفق، ربما لأن بعض أجزائه بقيت في حوزة الإنجليز، وربما لسبب آخر تعذر علينا اكتشاف أسراره البعيدة، ونحن نخوض تجاربنا المبكرة باتجاه الوعي

داخل المدينة الجميلة.

كان ذلك المبنى الكبير بمقاييس زمنه يمثل الفاصل القاطع بين شارع عمر المختار والمنطقة الواقعة في الاتجاه الغربي منه، حيث استحدث قطار النمو العمراني تسميات جديدة وأن يكن المصطلح الثابت لم يتخل عن التسمية الشعبية المعروفة بباب قرقارش، حتى بعد تشييد أكبر دار للعرض سميت بالتحرير وكذلك الميدان الجديد، بل وبعد تغيير نشاط الدار من الأساس. ذلك أن الذين ارتبطوا بالمدينة الخالدة، وأحداثها التاريخية وشخصياتها الحاضرة في ذلك التاريخ الحافل بالرجال والمواقف. يصرون على التمسك بالأسماء القديمة، وفى مقدمة هذه الأسماء قرقارش. بل إن بعضهم لا يخفى امتعاضه من تغيير التسمية، والأمر لا يتصل بكلمة الحرية طبعاً، أو التحسس منها، فالموقف الشعبي من هذه المسألة واضح التحديد، ولكنه الاعتزاز بتراث المدينة وآثارها وشخصياتها. فهي بهذا المعنى تحمل معنى الوطن في شموله، الهوية بأتم معانيها، أسوة بالتقليد الذي يقف عليه المرء كلما يمم وجهه في مشرق الوطن العربي ومغربه، ولا مناص من أن يكون موجوداً وموضع اهتمام ومعايشة، أثناء عملية الرصد حيث تكون الوجهة غرباً يقف المرء على مظاهر الاحتفاء وكبير الاعتزاز بحضارة قرطاج وشخصية حنا بعل وحضارة الحفصيين ودور القيروان والزيتونة إلى جانب الأمير عبد القادر وعبد الحميد باديس وجامعة القرويين وقبل ذلك أبطال مثل بوغرتا وغيره أولئك الذين سبقوا الوجود العربي والعقيدة الإسلامية تاركين أثراً

على الأرض ووجوداً في التاريخ، وقليلاً من ذلك في الوجدان.

لم يرتكب الذين سادوا بعدهم في الأرض خطيئة النكران ولم تستهوهم التجارة أو يسوسون الناس ويقيمون الحدود . فكان ذلك التواصل الجميل والترابط الخلاق في تلك المناطق كافة.

أما إذا كانت الوجهة شرقاً فإن الحديث عن رمسيس وخوفو وكليوباترة وبابل وآشور وحمورابي وسبأ والفينيق، بما يؤكد حضورهم ويعمق مكانهم في الوجدان، على نحو يفوق في أحيان كثيرة كل أبطال العرب وعظماء الإسلام، ممن ينحدرون من تلك الربوع، هو حضور تجسده التماثيل المنتشرة أينما حل الإنسان ومد بصره، كما تعمل على ترسيخه والتمكين له مناهج الدراسة منذ النشأة الأولى وحتى مدارج الجامعة وأطروحات التخصص العالى والدقيق (الماجستير والدكتوراه).

هذه النظرة الواعية للماضى التي عمقتها الألحان الموسيقية والقصائد الشعرية واللوحات كان لها أكبر الأثر في بعث الشخصية الوطنية وتنوير الجماهير وتهيئتها لأداء دورها الحضاري وكذلك تقوية اللحمة بين الماضي والحاضر المزدهر، فلم تترك للفراغ الوجداني أي فرصة، فصار المثال دائماً يرتفع من داخل الوطن، كياناً وحدوداً ورموزاً، في الوقت الذي يلاحظ فيه هنا دائماً المزيد من الاستبعاد القاتل لجميع الأسماء، حتى ولو كان الاسم بحجم قراقوش الذي أرهب فلول الطامعين وخاض المعارك وترك في التاريخ أكبر الآثار

وظلت الذاكرة الشعبية تخلد اسمه وتتحدى كل محاولات التغييب وآثاره المدمرة الذي أشاع في حياتنا التطلع تجاه النموذج الخارجي تحت مبررات لم نسأم اختلاقها ولم نخجل كذلك من ضعفها !

مع فصل الربيع، وفي شهره الثاني تحديداً، حيث منتصف الفصل يطل شبح الفراغ الموحش والسكون المقلق على ذلك العدد المحدود من الموظفين، وهم الذين لا يشغلون من المبنى الكبير سوى ذلك القاطع المحدود من أرض المعرض. معرض طرابلس الدولي، وقد ترسخ اسمه وتكونت شخصيته، وأسهمت دوراته المتتالية في إيجاد حياة غير عادية، عبر حركة دورية تتجاوز كل القدرات، قوامها الدورة الدولية التي أصبحت تتسع المرة تلو المرة. سواء بفضل جهود العاملين في الإدارة، وحسن إمكانياتهم في الاتصال أو بتأثير السوق الليبي الذي أخذ يمتاز بقوته الشرائية غير العادية. أو، وذلك هو المهم، بحكم الإنفاق الحكومي الضخم الناتج عن خطة التنمية الطموحة التي أفلح العاملون في الحقل الاقتصادي، في إقناع السلطة بها والتغلب على قرار الإيقاف الذي طالها في البداية من حقبة السبعينات. فإذا بها تستأنف ويكبر حجمها وتتضاعف أرقامها وتفتح الأبواب فسيحة أمام منفذيها وتمكنهم من الاستعانة بالشركات الأجنبية، سيما عقب الارتفاع الظاهر في أسعار النفط مع الإقبال عليه من قبل الدول الصناعية، الأمر الذي أفضى إلى تطور الميزانية بشقيها الإداري والتنموي، وانتعاش القطاعين الخاص والعام، وحدوث شراهة استهلاكية أوجدت ما شكل قوة شرائية

هائلة وسوقاً تنافس فيها أكثر من طرف وأكثر من صالة عرض وأكثر من وكيل يجيد لعبة الترويج.

إن المعادلة ، في هذا الصدد، بسيطة، إذ كلما ارتفع الدخل العام، وازدادت الثروات الطبيعية المستغلة، ازدادت مظاهر الصرف وتعددت أسبابه ووجدت مبرراته، وتنافس المستفيدون منه والدعوة إلى المضي في سبيله والعاملون على تدفق مردوده. والأمر لابد أن يطال جميع القطاعات ولا معدي من أن تدعمه كل القوى المتنفذة، ولا سيما تلك التي تحل من البلاد الصديقة والشقيقة. الجميع يريد الإنفاق وينصح بضرورة الاستعجال تحت مبرر التعويض عن سنوات الغبن وأيام الفاقة، ولأن الثقة مطلقة والنوايا حسنة، فلا داعي بحسب هذا المنطق للحد من الصرف أو الحذر من سوء التنفيذ. حتى لقد أصبح البلد ، وفى فترة وجيزة ، متنفساً لمشرق الوطن العربي ، وربما مغربه أيضاً ، إلى جانب الشركات الأجنبية بالطبع لقد كانت الدورة المعرضية هذه متميزة إلى حد كبير. وقد تجسد هذا التميز في ارتفاع عدد الدول المشتركة في المعرض ، إذ قفز الرقم إلى الأربعين بالنسبة للدول التي ارتفعت راياتها على صاريات السور الكبير، تقدمت جميعها بواسطة البعثات الدبلوماسية مبدية أفضل الشروط وأسخى العروض.

أما الشركات الأجنبية والجماعات الاقتصادية، فقد بلغت نصف هذا العدد، وهى شركات تفوق في إمكانياتها وحجم إنفاقها الكثير من الدول المعروفة، وهى في الغالب تحرص على أن تغشى

الأسواق والمعارض الدولية شبه موحدة وفى شئ من التنسيق المرتب والتخطيط الدقيق، الذي يسهل على كل مراقب أن يقف على مظاهره ويلمس آثاره، وإن ذلك ليبدو جليًّا في الشروح المسهبة لمواصفات الإنتاج ومكونات السلع بحيث تكون فوارق الأسعار مبررة لدى الكل، وفى منجاة من طائلة الطعن الذي شاع كثيراً في هذه العوالم المزدحمة بالمنافسة ومحاولات الترويج.

تأكد أن الأمين العام لاتحاد لمعارض الدولية (السيد بلانشو) سيقدم تقريراً إيجابياً عن هذه الدورة التي أوشكت على الانتهاء ولم يعد لها من ذيول باقية يمكن أن تكدر صفوها، فقد خلصت منذ أسابيع في أجواء احتفالية مرضية. هذا التقرير له أهميته وتأثيره في الدفع بالمعرض وتطوره من حيث اضطراد التقدم في عدد الدول المشاركة وزيادة حجم مساحات العرض وأنواع السلع، وأخيراً بالنسبة لأنشطة البلاد المختلفة. الأمر الذي يعتبر استثناء بالنسبة لدولة هبت عليها رياح التغيير فيما يخص نظام الحكم وتوجهاته. فالقاعدة المعروفة في مثل هذه الظروف ، ومن خلال تجارب الدول الشقيقة ، أن شيئاً من التحفظ لابد أن يحصل، وقليلاً من العزلة لابد أن تظهر. ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للواقع ، فقد تضاعف الإقبال حجماً وكيفاً، وغدا واضحاً أن الدورات القادمة ستكون أكثر نجاحاً. فما أمكن تحقيقه لابد أن يجلب انتباه الآخرين ويضمن حضورهم الواسع، بل ويفترض سعيهم الدائم.

ولا عجب، فالمصالح الكبيرة حين تتحقق شروطها وأسباب

تحقيقها فإن ما يطرأ من تغيير على أنظمة الحكم يبدو لأصحاب المصالح ليس من الأمور المهمة، وربما إذن بتحقيق هذه المصالح على نحو أقرب وأيسر، وكلما كان العنفوان أقوى كانت القرارات أجرأ.

بيد أن الحركة داخل المكان، تتجاوز الآن ما سبقها، فهي التي تسبق قفل الأماكن الخاصة بالعرض، ولا مناص لجميع العارضين، أفراداً كانوا أو جماعات، دولاً أو مؤسسات، من أن يقوموا بسحب كل ما تبقى لهم من سلع لم يتيسر تصريفها، وكذلك تسليم المفاتيح بعد تسديد المستحقات المالية أن وجدت، إذ إن شروط الاشتراك المسلمة لهم رسمياً والمودعة لدى الجهات الرسمية تنص على اتباع مثل هذه الإجراءات، وتفرض التقيد بها وعدم الإخلال بأي منها، وإلا فإن مصير كل ما يتبقى بعد مضى الأجل هو الحجز، ومن ثم البيع، دون أي حق للطرف الآخر، فلا شئ غامض في هذا السبيل وكل الشروط قد سلمت سلفاً.

إن مثل هذا الوضع يقتضي مضاعفة الجهد من الإداريين بالذات ويضع على عواتقهم أكبر قدر من واجبات العمل كيما تصفى جميع الالتزامات في الآجال المحددة لها، فقد تركزت المسؤولية، واستعادت الإدارة ما فقدت من صلاحيات في وقت سابق، حينما كانت هذه الصلاحيات موضع تنازع ومثار تسلط، من بعض الذين افلحوا في انتزاع ما ليس لهم، بحكم القدرة على الاحتواء والهيمنة والحصول على أكبر قدر من الصلاحيات، ولو كان ذلك في مخالفة واضحة للأصول والضوابط، والأمر أولاً وأخيراً يعود إلى الخلط بين

الواجبات الوظيفية والعلاقات الشخصية، وليس إلى الإمكانيات الوظيفية، الأمر الذي لم يعد من المقبول المضي في سبيله، والإبقاء عليه، بعد أن أعيد النظر في وضع المعرض وزود بعناصر يفترض أن تكون قادرة وموضع ثقة.

استوجبت هذه الوضعية بذل الكثير من الجهد والمتابعة، إلا أن غياب الجهد النظري القائم على إثارة الخلاف وتصادم الأفكار وإدخال ما لا يجب إدخاله، يظل من الأمور المريحة للنفس بل والتي تهون في النهاية كل جهد بذل .

تزامن فصل الربيع هذه السنة مع أعياد المولد النبوي الشريف، إلى جانب نهاية هذه الدورة، ولم تبق الآن سوى أيام سبعة هي كل ما يمكن أن يمنح للعارضين من الوقت الإضافي ليكملوا سحب ما لديهم، مما جعلهم ينهمكون على تصفيتها بواسطة البيع الرمزي حتى لا يفاجئهم الحجز الإداري، وكذلك التخلص من إعادة شحنها إلى الخارج وتحمل نفقات أكثر ارتفاعاً، فضاعف ذلك كله من الازدحام وأدى وفقاً لذلك إلى زيادة الضغط على القسم الذي صار الآن إدارة الشئون العامة، تضم في جناحيها الشئون الإدارية والمالية. وتوشك أن تكون عصب الحياة داخل المؤسسة النامية، وساعدت مرونة الإجراءات وثقة المصلحة أو الهيئة ، كما هي التسمية الرسمية ، على تحرك قطار العمل وسرعة البت في كل المسائل المعلقة، فكل شئ يدعو إلى مضاعفة الجهد وإطلاق العنان للطاقات المعطلة كي تنتج وتمارس مسؤولياتها بعيداً عن الانغلاق الإداري والجمود المكتبي.

* فجـأة أعلـن عـن الاحـتفال بـالمولد النـبوي، بطـريقة غـير مسبوقة، وعلى نحو أشار من البداية عن ملامح مرحلة جديدة أو نقلة من النقلات غير العادية، وبات واضحاً عقب ذلك المساء الذي جرى فيه ذلك الاحتفال الذي نودي له في جميع الأوساط أن ما سيحدث يتصل بالبني مجتمعة، سياسة اقتصاد إدارة وعلى نحو حاسم وجرئ ومخالف للمألوف بالكامل.

حسب القوم بادئ ذي بدء أن الحديث عن المولد ومناسبة المولد سيكون حول الرسول ودوره في بعث الأمة العربية، وقدراته الشخصية على أداء تلك المهمة بعد سبات طويل وتخلف دام قروناً من الزمن، وسيطرة أجنبية مجاورة ظلت قبل ظهور الإسلام تكبل الأمة العربية، فمثل هذه الذكرى تقتضى إعادة قراءة التاريخ على ضوء التغيرات التي حصلت والتى توجب تبصير الأجيال الجديدة والقوى النامية. وأعترف أنني من البداية عشت لحظات من التذكر غير العادي، ومشاعر كانت إلى حين خافتة نسبياً، بفعل البعد عن مرابع الصبا البعيدة حيث يحتفل الأهل بطريقة مختلفة كل الاختلاف بالمولد النبوي ولا سيما بصدد قراءة القصة النبوية، فهناك تتم هذه التلاوة في شئ من الخشوع وبمنآى عن التنغيم الذي يخلط بين الغناء والمدح، كأنما أدرك القوم أن الوقار لا يأتي مع الأنغام أو أن الأنغام والتغني بالمحبوب التي يقوم بها بعض السالكين في الطريق الصوفي إنما هى في واقع الأمر مجرد براقع أريد بها إخفاء النزعات الغزلية التي لا صلة لها بالدين بقدر ما هى ذات ارتباط وثيق بأعماق النفس المعذبة

التي يحول دون مشاعرها الحياء فتجد في هذه المناسبة فرصتها للتعبير عن لواجعها بدعوى الهيمان بذكرى الرسول تمثلت ذلك كله وغيره أيضاً ، حين أخذ المذيع يحث الناس على التوجه إلى مكان الاحتفال حيث توجد وسائل النقل الجاهزة حتى يسهل على من يريد المشاركة الوصول، وتدفق فيض النهر الروحى على نحو لم يكن أبداً مقدراً بهذه الكيفية لولا أن الحديث الذي ألقى في الحشود الكبيرة قد أثبت أن الأمر لم يتجاوز استثمار المناسبة وحشد هذا الحضور البشرى لإثارة قضايا شديدة الالتصاق بالواقع المعاش وأن البلد في مجمله قد غدا على أعتاب مرحلة جديدة. يوشك المجتمع أن يعيشها بضراوة، وستطال ضمن ما تطال المسألة التشريعية والهيكلية الإدارية ، خاصة عندما وقع التعرض لممارسات ملموسة وإشكاليات ظاهرة صار من الضرورى أن تطرح بمثل هذا الوضوح.

ما قيل يومئذ كان ينذر بإجراءات محددة استهدفت من وصفوا بالمرضى والمعوقين والرجعيين والمندسين والحزبيين أيضاً الذين وقع توعد لهم بشكل صريح كي لا يحولوا دون تحقيق الأهداف المرجوة والبرامج المرسومة والطموحات الكبيرة التي يمكن إجمالها في العمل الثورى ودون حاجة لمراعاة أي نص من النصوص القانونية، إذ أعلن عن تعطيلها بالكامل، لكن المقلق في الأمر أن هذه الأوصاف لم تحدد لها معايير محددة يمكن بواستطتها أن يقال عن زيد إنه من الرجعيين وإن عمرواً من المعوقين، مما يعنى أن التصرف سيقوم على أساس الاجتهاد وحين يفتح باب الاجتهاد في مثل هذه الأمور فإن الطريق

سيكون معبداً للتجاوز، فقد كانت هذه الأوصاف كالمعانى التي تحدث عنها أحد النقاد ذات مرة وقال إنها موجودة في الطريق، والعبرة دائماً في القدرة على التقاطها، وبالتالى فإن الأمر لا يحتاج إلى كبير جهد، ومن يتمكن من الإفلات مرة لن يستطيع ذلك مرة أخرى.

وحدها الحزبية التي جرمها القانون وغلظ لها العقوبة، اشترط لثبوتها حمل البطاقة ورقم الخلية وقيمة الاشتراك، إلى آخر التفصيلات التي حددها القانون، إذ لابد أن يوجد أي مستمسك من مستمسكاتها حتى تشكل الدليل الملموس لأى إجراء يراد له أن يتخذ اعتماداً على فرضيتها.

لقد بدت هذه التهمة وفقاً لشروط إثباتها ليست مخيفة رغم قسوة عقوبتها ، أما ما عداها فقد كان من التعميم والإطلاقية بحيث بحيث يمكن لأى كان أن يقول بصددها ما يشاء ويتصرف كيف يشاء، فارتفع تبعاً لذلك حجم الخوف وصار من السهل أن يتعرض أي كان لأى مكروه.

إن الخلاف مع المسؤول الإداري يمكن أن يعتبر في حكم الإعاقة. وعدم الحماس لأى توجه من التوجهات قد يعتبر اندساساً أو رجعية أو مرضاً. بل إن كلمة المرض هذه تبدو أشد خطراً من أي صفة من الصفات الأخرى، ما دام الطرف الآخر هو الذي يمكن أن يحدد علاقات وجودها. والآخر في نهاية المطاف بشر يتأثر بما يسمع

وما يشعر، وفى أحيان كثيرة ما يستخرج أيضاً ، فالعبارة والحالة هذه قابلة للتأويل وسوء الاستعمال ما دامت لم تقنن وتحدد.

كانت برامج الإذاعة بشقيها المسموع والمرئى تصب في اتجاه مقاومة هذه الأخطار ، والتى اعتبرت بمثابة المصاعب أمام التجربة الجديدة وخياراتها السياسية وقراراتها الاجتماعية وكانت لهجة الخطاب الإعلامي تشير إلى أن سيل الاتهامات سيطال الجميع، ومن يستطيع الإفلات من إحداها فلا نجاة له مطلقاً من الأخرى التي تتلوها، فقد كانت من الاتساع والجاهزية حتى ليمكن تطبيقها على أي كان.

كان كل شى يؤكد أننا على موعد مع التطهير، وإن المناخ العام يقدر بقوة شديدة الرؤوس المعروفة ، مما جعل الوجوم والترقب وانتظار المجهول هو طابع الحياة العامة وشعارها السائد.

لم تكن هناك أشياء ملموسة ، ولا توجد أيضاً ممارسات عدائية معلنة. لكن المناخ الذي طبع الحياة العامة وشكل لونها وإيقاعها قد أسهم في خلق حالة خاصة. كما أن أحاسيس الناس الذين يعيشون جميعا ويتنفسون جميعا داخل ذلك المناخ قد اقتضى أن تكون سلسلة من الإجراءات غير العادية أوشكت أن تكون هى القاعدة وليس الاستثناء، حتى ان كل الأحاديث المتبادلة لم تكن تتناول سوى ما بات منتظراً.

بين المضي في تصريف شئون الواجب الوظيفي، وتسهيل

مهمة أصحاب المصالح والرد على استفسارات موظفى الإدارة إزاء ما كان يتجاوز مسؤولياتهم ويوجب حمل المسؤولية عنهم وانتظار الاستدعاء حيث الخروج من جحيم الانتظار القاتل، وشبح الخضوع لعلامات الاستفهام التي ستنتج عن أي استثناء. كانت المشاعر موزعة في ذلك الضحى الذي غابت شمسه من العين رغم أنها كانت ساطعة. . وتعليل ذلك أن الحملة قد بدأت منذ أيام خمس وقيل سبعة أو ثمانية. وقد شملت معظم الأسماء المعروفة من الموسومين بهذه السمة السياسية أو تلك.

بعض هؤلاء كان من أخلص الأصدقاء وأكثرهم التصاقاً معنا بشكل شبه يومي، حصل ما حصل بشأنهم منذ الساعات الأولى في الصباح الذي تلا مساء المولد النبوي ، مما صار يؤكد إلا مجال للإفلات ولا مهرب من اللحاق بمن سبق جرياً على القاعدة المعروفة أن المسائل تفضي إلى بعضها وأن القرين بالمقارن مقتدى كما يقول الشاعر القديم.

أبو حسام آخر الذين شملهم الإجراء. وقد كان ذلك وسط ملابسات لافتة. فقد ذهب الرجل من تلقاء نفسه إلى ذات المكان لمجرد أن علم أن هناك من جاء إلى بيته وسأل عنه، وإذ لم يكن موجوداً في البيت فقد اجتهد الرجل وأخذ معه أحد الأبناء. ربما أراد أن يتخذ منه رهينة، لولا أن المسؤول الأكبر رفض هذه الفعلة، فأعيد الابن من حيث جيء به موصياً إياه أن يبلغ أباه بضرورة الحضور لمجرد عودته إلى البيت وكذلك فعل إذ أبلغه بالنبأ لمجرد العودة من

مصراتة حيث رأى أن يتجه إليها ربما لتصفية بعض الأمور المعلقة عندما ظهر في الأفق ما ظهر.

كان الاتفاق مع الرجل قد تم قبل هذا اليوم أن يتم اللقاء بشكل يومي في مكتبة دار الكتاب العربي، المكتبة التي أسسها مصطفى في أهم شوارع المدينة عندما تحصل على المكان من الأملاك المستردة من الطليان، بفضل مساعي الخال إبراهيم الموظف النافذ في الإسكان وصاحب الأفكار التجارية الجيدة، وإن كان هناك من يؤكد أن علي الشهير بالبتشة وأبرز العاملين في إدارة التوجيه المعنوى قد نصح هو الآخر بفكرة المكتبة، لعلمه أن الفرصة مناسبة لإفادة مصطفى من برنامج الشراء الرسمى، مما جعلنا نحرص على الحضور أكثر من ذى قبل إلى ذات المكان، حيث لم يعد كما كان قبل طرد الإيطاليين مجرد بقالة صغيرة يأخذ المرء منها ما يحتاج إليه وإنما صار مكتبة لا مناص من المرور عليها كل يوم، فتلك هى العادة المتبقية لدى المهمين من الكتاب، إلا وهى ضرورة المرور اليومى على مكتبات طرابلس التي تتوسط أهم الشوارع. لم يكن مصطفى معروفاً قبل هذه الفترة القصيرة ولكنه أصبح الآن معروفاً على نحو جيد للغاية. بيد أن الاتفاق مع أبو حسام تم على اصطلاح واحد هو أن من لم يجد صاحبه، فليكن معلوماً لديه أن دور أخذه إلى حيث السابقين قد حان، وإذ لم أجد الرجل بداً أن كل شئ قد تم.

كانت اللحظات حرجة للغاية عندما وقف ذلك الشاب القصير، المتنفذ كما هو واضح وأشار على مصطفى بالإسراع في قفل

الأبـواب قـبل أن تـأتي المجموعـة وتـأخذ الكتـب ، لأن أي كـتاب سيؤخذ، فلن يرجع مرة أخرى، كما لن يعوض ولن يسلم بصدده أي مستند. كان على علم بكل ما سيتم بعد ساعات قليلة كما أشار في تلك اللحظات، فما كان من مصطفى إلا أن أشار على الجميع بضرورة الخروج ومن ثم اقترب سائلاً عن الأحوال، وعندما سئل عن الرجل أكد أنه قد وصل الآن مكانه.

أما الموقف الأكثر إحراجا فقد كان عند مقابلة الحاج فضل، بعد أن طالت الإجراءات محمد، وسارع البعض بتقديم واجب المواساة فإذا بالرجل المسن يمطر الجميع بأسئلته ، وإن يكن في إشاراته أكثر تحديداً، فقد أصر على أن يربط الأمر بالتطير من الزواج الذي تم منذ أيام، ولكن دون أن يصرح، إلا أن إيماءاته كانت واضحة للغاية، فقد استغرب أن يطال الأمر محمد دون غيره من بقية الأصدقاء، لدرجة إن لم يجد حرجاً في أن يصرخ من أعماقه عن السر الذي جعلهم يأخذونه من اليوم الأول في حين يفلت أقرب أصدقائه - مشيراً إلى شخصيا - بين أهله وذويه ويدير شئون أسرته بهذه الكيفية. كان في حالة من الانفعال الذي لا يسمح له بالاستماع لأى توضيح من التوضيحات التي حضرت تفادياً للإحراج وصعوبة اللحظة وشدة الحيرة، كان يتكلم في بساطة شديدة وتلقائية ظاهرة:

- شن خلاك تقعد ومحمد يأخذوه ؟ ما هو اللى عنده عندك. محمد ما عنداش أقرب منك ولا سر عنك، وتوه يرفعوه وانت تقعد بره، والله كبيرة هذى وما يصدقهاش حد، انتم راسين في شاشيه وجثة واحدة

وتوه يا بو صاحب يحصل هو وانت تنجا !؟

تلك هى كلمات الرجل التي أخذ يسوقها، وكانت تنزل على القلب وكأنها شواظ من نار، ولا شك أنه كان معذوراً في كل كلمة يقولها فحين تحل الرزية يتعطل التفكير، وما بالك بالرجل قد تجاوز الثمانين، فماذا عساه يمكن أن يقول أكثر من هذا الذي يقوله وأن يأخذ في ترديد آهاته ويرفع صوته دون أي تحفظ ويتحدث عمن قابل اليوم، ومن سيقابل في الغد، فليس للرجل أي قريب من عظم.

وبين انتظار ذات المصير وفقاً للمعطيات الموجودة وترجيح ذلك حرصاً على اتقاء الشبهة لكل من يفلت لسبب أو آخر ، وبين الطمع في النجاة الذي قد يفرض الحظ وربما كذلك بعض الاعتبارات التي ربما شملت بعض النظراء، كان الرد مزيجاً من القلق والحرص على تطمين الحاج.

– ممكن نلحقوه اليوم واللا غدوة يا عمى الحاج من قال معاش فيه ناس ثانية بيرفعوها في الأيام الجاية.

عندئذ بادر الأشهب، بكلمة موجزة هذا الكلام صحيح. وهو يؤدى واجب الزيارة والمواساة للحاج فضل، وكان معروفاً في ذلك الزمن أنه يعمل بأحد الأجهزة، ولكنه جاء لاعتبارات القرابة، رغم أن هذه القرابة لم تؤهله ذات يوم لمصاهرة الحاج فضل عندما قدم عليه غيره من أبناء العشيرة، لا لنقص في العقل أو الإمكانيات، وإنما لأن من نافسه في طلب الكريمة كان أكثر أصالة. فالأشهب لا يرتقي إلى

مستوى العائلات الكبيرة. هكذا قدر الحاج، لأنه لا يتوقف كثيراً أمام التعليم أو المركز بقدر ما يسره الأصل، حتى وإن كان ليس اهلاً لمثل هذا التقدير فيأتي تصرف كما فعل ذلك الذي قدره. والأشهب على كل حال على ثقة بنفسه ولهذا جاء الآن ليواسي الحاج ويعرض ما يمكن أن يقدم من الخدمات لكن الحاج لا يطلب شيئاً سوى أن يرى محمد بأم عينيه.

حياة الأشهب مركبة إلى حد كبير فلولا أنه كان من الكفاءات النادرة في الجهاز لما استطاع أن يحقق لنفسه من الاستقامة الشخصية والمقدرة الوظيفية، إلا أنه من حيث المظهر يبدو بسيطاً للغاية، حتى ان من لا يعرفه لابد أن يظلمه حين يراه إنه أمام رجل ليس له أي مركز من المراكز الوظيفية، ما بالك الأمر يتصل ببعض الأجهزة الحساسة، كان من الذين دخلوا سلك الشرطة في بداية الاحتلال البريطاني أو الإدارة المؤقتة كما يقول الأشهب ومجايلوه أولئك الذين كانوا في سن الشباب حين بادر الانجليز بتأسيس جهاز الشرطة ودعوا شيوخ القبائل وأعيان البلاد أن يوجهوا خيرة الموجودين للعمل في هذا المرفق حتى تتوفر العدالة بين الناس وحتى لا يتسلل إلى الجهاز أولئك الذين يمكن أن تغريهم السلطة ويسخروها لخدمة أغراضهم الشخصية أو أهوائهم القبلية. بل إن الانجليز لم يخفوا من البداية ولمجرد أن تحقق لهم النصر على الطليان وحلفائهم الألمان أن إدارتهم مؤقتة وأن مصير البلد لن يكون على أساس الحكم المباشر ولهذا بادروا بتكوين جهاز الأمن ضمن مواصفات خاصة

قوامها توفر المستوى التعليمي المعقول والسلوك الشخصي المستقيم، كانت هذه الدعوة شديدة الأهمية بعيدة الدلالة، إذ كلما كان جهاز الأمن متوفراً على مثل هذه المواصفات كلما كان السبيل إلى الاطمئنان أوكد واحتمال الحد من الجريمة أقرب. ويومئذ لقيت دعوة الانجليز شيئاً من الآذان المصغية عندما استجابت لها تلك الكوكبة من الشباب الجيدين ربما يكون قد تسبب فيها أيضاً أن المجال الوحيد الذي فتح فيه الانجليز العمل يومئذ هو مجال الأمن سواء على مستوى الأفراد أو على مستوى الضباط ومن هم أقل منهم درجة حيث بدأ التكوين بما سمي يومئذ بالأساس ليأتي بعد ذلك تأهيل المتفوقين بواسطة الدورات المتتالية، مما أدى إلى قيام جهاز أمني بالغ المقدرة، ضاعف من ذلك الحوافز المنظمة والامتحانات الدقيقة وفكرة الحيلولة دون الجريمة بدلاً من معاقبة مرتكبيها.

إن الأشهب واحد من العشرات الذين انخرطوا في السلك انطلاقاً من منطقة الجفرة لينزح بعد ذلك إلى أساس ترهونة ، ومن ثم إلى طرابلس، غير أنه بالرغم من عمله هذا لم يتردد في مقاومة كل ما رآه شكلاً من أشكال الظلم الذي حل بالمنطقة في الفترة الأخيرة من الخمسينيات، غير متوقف أمام صفته الأمنية أو مكترث بها، إلى جانب هذا فقد كان الرجل دائب الجهد في توفير حاجيات الناس وتصريف ما لديهم دون أي مردود شخصي. وكان في كل نشاطه مثالاً للتواضع والحرص الصادق على البقاء في منطقة الظل.

يدين الرجل بطفولة جميلة بدأت برعاية أخيه الأسطى عبد

الوهاب الذي علمه مجموعة من المهن كنقش الحرير وبعض الصناعات التقليدية، حين توقفت الدراسة النظامية في المرحلة الابتدائية ولم يتيسر الذهاب إلى طرابلس والالتحاق بالمدرسة الإسلامية العليا التي قفلت في الحرب العالمية الثانية، فيتقن القرآن الكريم على الشيخ محمد صاحب الصوت المتميز والتلاوة الهادئة، فإذا ما أفل نجم الاستعمار الايطالى كان الانخراط في قوة أمن طرابلس والاستمرار في سلكها حتى بلغ من المستوى ما بلغ.

إن الإحراج لم يكن مبعثه قلق الحاج فضل وحالة الهستيريا التي كاد يبلغها ، فعلى أهمية ذلك، فقد كان الإحساس يتضاعف أمام فجيعة صفاء وهى المرأة التي لم يمض على اقتران محمد بها سوى أسابيع معدودة، عقب علاقة تكونت عبر زمالة العمل، حين لم يكن قد جهز للمناسبة ما تحتاج إليه من اللوازم بحكم انشغاله بما يرى أنه الأهم، فإذا بها حين تم القبول تتولى بنفسها توفير الحاجات، وتحرص على الاكتفاء بما هو ضروري، مستفيدة من مبيعات الأجانب التي نشطت لكثرة المسافرين، فأظهرت بأسلوبها ذاك نوعين من القدرة غير المتوفرة في واقع المرأة الليبية حيث التسابق على الأشياء الثمينة، سواء في الأثاث أو غيره من الحاجيات، الأمر الذي لا تقره المرأة عندنا فتبدو غير قادرة على منافسة غيرها من نساء الوطن العربي التي كثيراً ما نافست المرأة الليبية ، وأظهرت عجزها مما سوغ ذلك التشريع الذي سن ذات يوم ، واعتبر الزواج بغير الليبية بمثابة الاستقالة من الوظيفة العمومية، وهو إجراء اعتبر عند البعض

مـن قبـيل الـتدخل فـي الحـرية الشخصـية، وقـال آخـرون إنـه يـروج للتوجه الإقليمي ولكنه تشريع أخذ طريقه إلى التنفيذ وأدخل أسلوب الـتعاقد المحلي كـبديل عـن إلغـاء الوظـيفة لكـل مـن تدفعـه الظـروف للاقتران بغير الليبية. كي لا تفقد المرأة حق الحمايـة ولا يحرم الرجل من لقمة العيش.

كانـت المـرأة المسكينة تعـيش أقسـى لحظـات الانـزعاج حـتى لتوشك أن تنهار والمرارة تحيط بها من كل جانب. فمن جهة هى في بدايـة حـياتها وكـبير آمالهـا. ولم يعـد أحـد يـدرك مـاذا سـيكون مصير الـزوج الأمـل، وبـالذات عـند ملاحظـة نـبرة الإعـلام. ومـن جهـة أخـرى وذلك هـو الأصـعب مـا لاحظـت مـن استشـعار الـتطير بـالنسبة للأسـرة ومـن كـلمات الحـاج بـالذات، فصـارت تـبعاً لذلـك شـديدة الحساسية مـن هـذا الـذي جـرى وقـد يعكـر صـفو العـيش، وقـد يـؤدى إلى انفصـام العقد فـي حـالة مـا إذا طالـت المدة أو قـدر لمثل هذه الوسـاوس أن تجد طـريقها إلى عقـل الـزوج. وسـاوس يعمقهـا دائمـاً الـتراث والمـوروث بـالنسبة لقطاعـات كـثيرة. ومـا مـن سـبيل للـتخلص مـنها ، وسـاوس ليسـت لـدى العـرب وحدهـم بـل إنهـا لـدى الأجانـب أكـثر شراسـة، وبالذات الإيطاليين الذين كانوا دوماً شديدي التأثر بهذا المعتقد.

إذ لم تفلـح جمـيع محـاولات الـتحديـث فـي انـتزاع هـذه الفكـرة الخـاطئة مـن نفـوس النـاس الذين آمنوا بهـا وظلوا يخشونها ويتفادون كل من ثبت عليه سوء الطالع.

ولا شك أن للواقع شروطه الصعبة وللغربة أحكامها. إذ حين حاولت الأم أن تشد من الأزر وترفع من العزيمة، اعتبر قولها هذا من قبيل التهريج، وحين تحل الكارثة فإن الناس يبحثون دائماً عن الضحية الأسهل ، وما دام الزواج هو آخر ما حدث فلا خير من أن يعزى ما حدث للعريس إلى سوء الطالع، أسر القوم بذلك أم جهروا، وما تخفيه النفوس كثيراً ما تفضح عنه العيون وما يختلج في الأفئدة قد تعبر عنه النظرات.

هى تعيش القلق ونحن نعيش الانتظار، والانتظار أحياناً أشد على النفس من نزول القضاء، وهو الآن في أقصى درجات تأثيره، إن المتوقع ليس باعثاً على المسرة، ولكنه قد يؤدى إلى اليقين في نهاية المطاف. إن ما يجرى لن يدوم طويلاً، ومن الضرورى إذا ما قدر للحظة أن تأتي فسيكون أقرب الآجال، إن الحرص على اتقاء السىء من الأمور هو الطريق الأسلم لبلوغ ما عداه. وما دام الجميع قد طالهم، فمن المهم أن تكتمل الدائرة وإن تشمل الإجراءات من يراد لها أن تشمل حتى يتحرك القطار نحو باب الخروج من الأزمة، فليس أصعب على النفس من التخلف عمن حسبت عليه أو حسب عليك، فقد قيل الكثير عن الخوالف ومن رضى أن يكون معهم والذين ضاقت عليهم الأرض بما هي عليه من الرحابة، حتى ليوشك المرء أن يظن - وبعض الظن إثم - إن الندامة قد رافقتهم طول العمر.

ساد الحياة شئ جديد، وسيطر على الجميع إحساس عام، خلاصته أن ما طال البعض لابد أن يطال البعض الآخر، ثمة من لا

يستنكف السؤال عن سر تخلف البعض، وربما تطوع متطوع فخمن أن هناك من كتب عن نفسه ذات يوم. . سي على وهو يقدم قهوة الصباح عند الجلوس إليه يكاد يقول ما سر هذا التخلف عن المجموعة التي طالها ما طال. فلا سر في البلد كلما استدعى شخص على الأصح ظهرت المعلومة ووصلت إلى اقاصى المدينة، كان طلبة الجامعة قد سمعوا عن الأسماء من اليوم الأول، ومع ذلك لم يحصل شئ حتى الآن.

غريب أمر هذا الترابط الذي يجمع بين أطراف هذه الأرض الواسعة بصدد كل كلمة من الكلمات. هذه المدينة التي شهدت منذ سنوات هجرة ريفية كبيرة، وعودة من خارج الوطن أكبر وأكبر، أدت جميعها إلى نشوء أحياء تزيد على حجم المدينة الأول أضعافاً مضاعفة.

ومع ذلك فقد ظلت السرعة في انتقال المعلومة حيث هى. إن الحركة تبدو وفى أحيان كثيرة غير عادية، لكن الناس ، حيث هم يروحون ويجيئون في الغدو والآصال. على أنهم لا يجدون غضاضة في استيقاف من يعنيهم من الناس وإمطاره بوابل من الأسئلة حول هذا الذي يجرى، وقد يبدأون بأسئلتهم عن الأحوال والأهل والأصدقاء القدامى، وسط مشاعر عارمة من الحذر والترقب، وربما في شئ من الاندهاش عندما يلتقون من يعنيهم أمره، فلدى هؤلاء يقين ثابت أن ما طال البعض لا مناص من أن يمتد إلى البعض الآخر. حتى ليشعر المرء أن بقية من حياء هى التي تجعل البعض يحجم عن أن يقول لمحدثه هل ما زلت باقياً ولم تلحق بالمجموعة ؟ لكن هذا الحياء لا

يمنعهم من الجهر بذلك في جلساتهم الخاصة وأحاديثهم التي تشكل إلى حد ما قاعدة من قواعد اللعبة.

بعض النظرات تبدو وكأنها السياط التي تجلد الجسد. الأصابع توشك أن ترتفع وتشير إلى الذات المعذبة من تلاحق الهواجس ، كل شئ يقول لماذا هذا التأخر. مؤكد أن الأجهزة ليست بعيدة الآن فكل تجمع لا يخلو من بركة، بل لعل الهمهمة والنظرة هى الآن موضع رصد. وليس من السهل أن يعتبر سي على نفسه بعيداً عن مثل هذه الممارسات ، قديماً قيل إن أول خيط أمكن بواسطته الانقضاض على أول محاولة منظمة كان من خلال الظرف الذي نسيه محمود كمال في المقهى وبادر سي على بتسليمه إلى الصادق بموجب نصيحة وجهت إليه. ومرة قال في معرض استيائه من شدة رقابة البلدية:

- المفروض يساعدونى ماني نعطى في التكميلات ؟!

وكان أن ضحك الجميع من هذه المعلومة الطريفة ، المرحلة من جهتها تفرض المتابعة وعلى اقصى الدرجات، فكلما كانت الحياة مليئة بما هو غير عادى كلما كان حجم الرصد أكبر ومسؤولية المتابعة أدق. وما دام التوتر قد ساد فلابد من رصد هذه النظرات المرتابة، هذه الأسئلة المغمرة والمعلنة في ذات الوقت. معظم المعلومات تؤكد أن كل الذين ضمهم السلك ذات يوم قد جرى استدعاؤهم مرة أخرى، وطلب إليهم مواصلة مهامهم القديمة وفق قواعد استحدثت، وكان

ذلك طبيعياً ومبرراً لكل من يتناول الأمور بواقعية، وينظر إليها بمنظار العقل، فقوام السلطة العصبية القوية، وهذه لا تتحقق إلا بوجود عدد كاف من العسس وتركهم يجوسون خلال الديار ليتسنى لأولى الأمر الوقوف على الخفايا، وإدراك ما عساه يبيت،، ومن ثم ضرب كل من يحاول التحرك من الصباح إما بمباغتته ليلاً أو عند طلوع الفجر، إنها حالات الارتياب التي تحاصر المرء في مثل هذه الظروف عبر حركة المعارف والمقربين، قبل غيرهم من الناس. حالات يولدها الوضع العام ويرسخها الاحتكاك اليومى، فتبدو بمثابة الواقع الملموس، ويغدو الإجراء المنتظر من الأمور التي لا فكاك منها ولا مجال لتأجيلها أبداً.

من حقهم أن يفعلوا هذا وأكثر. ومن حق غيرهم أن يفعل، بما في ذلك الذين كانوا يقودون سيارة " الزفافن " ذات يوم، مع أنهم جاءوا إلى مقهى الجنان وأكدوا أن ما قدموه من معلومات كان صادقاً وخالياً من أي تجنىٍّ، لكن أحداً لم يسأل عن هذه الجزئية فما فات فات، وهانحن نواجه واقعاً مشابهاً مرة أخرى.

تكررت الالتفاتة يمنة وشمالاً، ودون الجهر بأى صوت كان السؤال الذي يلح : هل هناك الآن شئ جديد ؟ هل هناك ما يمكن أن يبرر للقوم أي إجراء غير طيب. وماذا يمكن أن يضاف إلى ما علمنا منذ فترة بصدد من أطلق عليهم مجتمع الطاولات المفتوحة وما قدم بصددهم من معلومات تكررت حتى لم يعد أحد من الذين اعتادوا قراءة أمثالها يهتمون بها، فصارت بالتالى موضع سخرية وصار كل

من يسأل عنها لا يسلم من سخرية الآخرين هو الآخر لما هى عليه من الرتابة وغياب الجديد.

أخذ الدم طريقه نحو الفوران، من أسفل القدم إلى قبعة الرأس، الصداع يهد لحظات الراحة، يحصد الجسد حصداً، الحيرة هى السحابة المسيطرة، تظل المرء أينما حل. في الواقع الملموس لا وجود لشىء يبيح الإدانة، لكن ثمة إصراراً على وجود هذا الشىء. هناك تصميم قوى على تحميل البعض ما عساه يكون من نتاج الكل، فإن لم يكن الأمر كذلك فمن المؤكد أنه نتاج البعض الآخر. المهم أن ما يدور من أحداث وما يملأ الحياة من لغط وما تردده الألسن وتتناقله الأفواه حول أمور كثيرة لا صلة لها بمن نعرف من الناس ومن نلتقيهم كل يوم ونشترك معهم في أمور شتى.

لقد أثارت هذه النزعة التبريرية ما في النفس من غضب كامن، فمن يكون معرضاً لما يمكن أن يحل من مكروه، ربما الآن وربما بعد قليل، لا يجوز له بأى حال أن يتبنى مثل هذا الضرب من المعاذير، بل لابد أن يرفض كل الممارسات، ويدين كل الأطراف ، إذ لا شئ أعز من النفس. ويا روحي ما دونك روح كما هو التعبير الشائع.

يا له من منطق مخجل حين تكون الفردية هى المحصلة النهائية للأحداث. كيف يجوز للمرء ولمجرد أن يكون ثمة ما يكدر صفو عيشه أن يرفض كل شئ ويقول بإدانة كل الأطراف. ألم يسبق لغيرنا أن يواجهوا ما نواجه الآن، فكيف كان الإسهام ولماذا لم يكن

استشعار الظلم بهذه الكيفية ؟! لماذا لم تتحرك المشاعر الإنسانية وقتذاك؟ فيما تكون الآن عالية لمجرد أن صار الأمر متصلاً بالذات.

وجد أن من الضروري في ذلك الضحى أن يتوجه الآن إلى مقهى الجنان لمجرد الفراغ من تنفيذ البريد اليومي، لكن عند الحلول هناك فضل عدم الجلوس كما تجنب الحديث أيضاً مع الجميع والاكتفاء بالتحية من بعيد، فالحرص على رؤية المكان هو المسيطر الآن على النفس. لم يدرك بالضبط ما إذا كان الدافع إلى المجيء الآن يعود إلى هذه الرغبة أو للخروج من حالة الضيق الناتجة عما سرب من أخبار عن نوعية المعاملة لمن طالهم الحجز، أو أن الأمر أعمق من هذه أمور مجتمعة، فقد تعذر القطع بأى شئ في الخصوص، بل لقد أصبح مستحيلاً. كل ما في الأمر أن بحار القلق تحاصر التفكير وعيون الجميع صارت مغذية لذات الأحاسيس، وشبح الأسلاك الشائكة التي تعلو المبنى الكئيب القابع جنوب المدينة منذ الأزل تبدو وحشاً يهم بافتراسه أينما حل.

كل الأشياء أصبحت الآن محببة ومرغوبة، والخوف من الزمن لا يسمح بالظفر بها مجتمعة. هى أشياء بسيطة لكن البساطة هى التي تجعلها الآن عسيرة المنال. جميع الذين اعتادوا الجلوس في المقهى غير موجودين الآن. ومن اضطر إلى البقاء ليس لديه ما يعطى الآن.

تغير العدد الأكبر من الناس.. صار الاستغراب والوجوم وشرود الوجوه والنفوس هى الطابع الغالب على سلوك القادمين والرائحين.

نظرات الجميع زائفة. التفكير في البعيد هو ما يتبين في كل حركة.

لم يكن الصواب حليفه عند مغادرة المكتب، والمرور من هنا. فلقد تبدل الناس وتبدل المكان، وثمة من سهلت مهمته ومكنته من السفر الآن لحضور بعض الاجتماعات شبه الرسمية، فهل من الممكن حمل الأطفال في السيارة الجديدة، صحبة أمهم التي تطلعت كثيراً لذلك، هذا أيضاً غير متيسر الآن، فهم موزعون بين المدرسة والروضة، باستثناء الصغير فيصل ، ومن غير المعتاد الخروج دون اكتمال الشمل واجتماعه بالأصح. ذلك هو المعتاد وبعض المعتاد يصعب تجاوزه. ترى هل سيظل هذا الشمل ملتئماً هل سينجو من الفرقة المحتملة أم أن التشتت آت لا ريب فيه. كانت صائبة ومنطقية بحق فكرة تغيير البرنامج اليومي التي اختارها البعض وإسناد مهمة السؤال لأحد الأقارب. لكن ذلك غير متاح للجميع، وليس كل الأقارب مهيئين لمثل هذه المهمة ، ومن استمرأ مثل هذا النمط من الحياة المفتوحة يصعب عليه أن يغير سلوكه القائم على الحضور الثابت والاتصال المعلن بالجميع، وما دامت السلامة هي الهدف المنشود والغاية المرجوة، فكل تغيير من شأنه أن يثير الشبهة وربما يدفع إلى إعادة تقييم الأمور بما لا يفيد ، فالصواب إذن هو المحافظة على الإطار العام والتحرك المعتاد والبعد عن كل ما من شأنه أن يثير المزيد من علامات الاستفهام، وإذا ما عَنّ لأحد من الذين بيدهم بعض المسؤوليات أن يتخذ إجراء ما فليكن ذلك على شكل ظاهر وبمنأى عن أي ملابسات قد يدفع إليها ما يلاحظ من تحرك مصطنع، وكل ما من شأنه أن

يوفر الفرصة لمن يريد تأويل الأمور أو تحميلها ما لا تحتمل، ففي مثل هذه الظروف يوجد أحياناً من لديه شهوة الإيذاء وميل إلى المبادرة بالسوء، على نحو كثيراً ما يفوق ما عليه الوضع العام، أو التوجه العام على الأصح. إن الفرد المكلف والجماعة المكلفة تملك الكثير من حق التصرف، ولا أحد يسأل عما يفعل تجاه كل من يحجز ليوم أو شهر أو دهر كامل.

غير أن تجارب الشعوب تؤكد أن الاختفاء من الأساليب المعتادة، فلا صلة بين الاختفاء والجبن. فحين لا يكون الاختفاء عن قوة موازية أو شخصية بشرية محددة فإنه من الأمور المشروعة والمواقف الطبيعية. بل لقد كان في مواقع معروفة موضع إعجاب المتتبعين للأمور ومثار تعاطفهم ومشجعاً لهم لدفع كل ما لديهم إزاء من يخوض هذه التجربة المثيرة.

من ذا الذي لا يذكر غالب هلسا حين خاض هذه التجربة آخر الخمسينات عندما اختار حي شبرا الشهير، ليفلت من حملات حمزة البسيوني الشهيرة، ليقضي خمس سنوات كاملة دون أن يعثر له على أثر، حتى كان عفو الستينات، فيظهر غالب وكله ترفع عن مضغ أحزانه بل ليخوض المعركة من جديد. لكن الواقع هناك له شروطه المختلفة وظروفه المساعدة. وبالذات الكثافة السكانية، حيث يتكفل حي شبرا على سبيل المثال بتصفية كل من يتعين من الغرباء ما لم يكن محمياً من أعمدة ذلك الحي وغيره من الأحياء التي تشكل في زخمها وطناً كاملاً.

كم هي قاتلة ومدمرة وباعثة بكل القوة على اليأس الشديد هذه الندرة السكانية التي كانت من البداية ومنذ السنوات الأولى للوعي الطلائعي في مقدمة ما تثبط العزائم بصدد كل تفكير يقوم على مبدأ استثمار القاعدة الجماهيرية التي تستطيع بحركتها أن تزعزع الأركان فهذه الندرة السكانية وهذه المساحات الشاسعة يستحيل معها أي تحرك مدني، أما عندما تفجر النفط ووقع تسويقه ودخل مردوده الجيوب فلا شك أن الأمور قد ازدادت سوءاً إذ صفى البعض من تلقاء أنفسهم.

كم هو سيء وباعث على الحسرة هذا الخلو المخجل من أي تجربة نضالية يمكن استثمارها للإبقاء على جذوة الحماس وبقية الأمل في هذه النفوس شبه الميتة والمستعدة للقبول بكل خيار غير جيد وقول غير صادق. ترى هل يسوغ القول بأن هذا الصراع المفتعل الآن من الأمور التي تبعث على السخرية أكثر من أي شئ آخر؟ لكن الخيارات الآن ليست متاحة فالانتظار إذن هو الأصوب وهو الذي لا بديل له.

إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة هذا صحيح. ولكنها كذلك لا تمطر المواقف التي نحب، ولا تقدم التجارب الجاهزة، حتى ليمكن أخذها بيسر، فالممارسة اليومية والمحاولات الجسورة وحدها التي تضع البداية الأولى التي يمكن أن تتطور مع الزمن. وما دام السابقون لم يفعلوا شيئاً فالأولى باللاحقين الآن أن يفعلوا ذلك الشيء، فإن لم يفعلوا فلا أمل في الثبات ورباطة الجأش.

بدا هذا القول مختلفاً كل الاختلاف عن حقيقة ما يملأ النفس الآن من رغبة لا حدود لها في النجاة من المصير المنتظر لمجرد المساس بالذات. وكان ذلك معذباً إلى ما لا نهاية، فما أبعد المسافة بين الواقع والكلام. ما أكبر التناقض بين الذات الراغبة في الإفلات من أي تجربة شخصية صعبة، وذلك الكلام الذي كثيراً ما لهجت به الألسن وكتبت في أحيان كثيرة الأقلام، ولا سيما حين يكون القول شعراً جميلاً يجسد البطولة.

كاد يبصق على كل شئ يلعن البشرية منذ آدم الأول لولا أن هتف به من الأعماق هاتف:

من قال إن أعظم الناس لم تمر بهم مثل هذه التجارب وتحاصرهم مثل هذه المشاعر، من قال إنهم لم يكونوا راغبين في السلامة، أليست الرغبة في السلام جبلة في النفس البشرية منذ الأزل وإن هذه الرغبة لا تتناقض مع القدرة على مواجهة الحدث الجلل والخطب العظيم ؟

فليبق كل شئ إلى الوقت المناسب.

" والمية تكذب الغطاس "

ذلك هو المثل الذي قال به البحارون ذات يوم.

* * *

قبل أن ينقضي من النهار منتصفه ويحين موعد خروج طارق من الروضة التي الحق بها في بداية السنة، جنباً إلى جنب مع

الطفلتين هناء ورجاء حيث تم الاتفاق مع مصطفى القائم عليهما على تنسيق النقل اليومي بشكل تعاوني. وفيما كان الممر الطويل يغص بالبشر المراجعين لمصالحهم لدى مجموعة المكاتب المكلفة بهذه المهام، إذ من بين الموجودين جميعاً يمرق رجل هادىء النظرات واضح السمات شديد الإحساس بالحرج وحتى الارتباك. سنه في بداية الكهولة، قامته طويلة، بشرته قمحية يعلو فوديه شئ من الشيب وأراد أن يقدم نفسه وهويته كواحد من رجال السلك ويطلب مرافقته إلى القسم المختص، ولكن بعد المرور على البيت ومعاينة الكتب الموجودة، ناصحاً في ذات الوقت بضرورة أخذ السيارة إذا وجدت سيارة، فكان الاستيضاح منه من البداية عما إذا كان المطلوب من الدعوة البقاء هناك أو العودة، وإذا به يؤكد أن الدعوة تعني البقاء، وعندئذ جرى إبلاغ رئيس الهيئة بالأمر الجديد، فبدا أنه على علم بالأمر ، ومن ثم كان التوجه نحو الروضة أولاً ليتم حمل الأطفال الثلاثة، ولكن دون توجيه الأسئلة التي اعتادوها كل يوم عن القراء والدرجات والنظر إليهم بذلك القدر من الاهتمام ومسحهم بنظرة مرموقة بما تيسر من الابتسام المطمئن لمن في سنهم البريئة.

قبل أن يمتطي الأطفال السيارة سأل الرجل عما إذا كان الطفل هو أكبر الأولاد ، فأجيب أن ثمة فتاتين في المدرسة وأن المرافقين له من بنات الجيران ، فبدت من الرجل زفرة عميقة، وتلألأت على الوجنتين دمعتان لم تشهد العين أجمل منهما أبداً مرفقاً ذلك باعتذار غير متكلف عن الواجب الوظيفي الذي يفرض

على المرء أن يقوم بمثل هذه الإجراءات ، ويتعرض لمثل هذه المواقف المؤلمة كما عبر الرجل بكل الوضوح، فيما كانت العينان مصلوبتين حول الأرض عند الوصول إلى البيت والدخول إلى المكتبة لمعاينة الكتب الموجودة لم يكن في المكتبة ما يمكن أن يحمل، وليس هو على ما يبدو في حاجة لذلك إذ لا تعدو أن تكون مبرراً من المبررات أو المستمسك الذي يمكن الانطلاق منه، وهي على كل حال بداية المشكل من الأساس، وهي السمة والدليل لما وسم به الجيل وما لحقه من مصاعب طيلة العقود السابقة لهذا اليوم الذي سيدخل التاريخ ولكن ليس من باب المسرة.

عند فراغه من معاينة الكتب، وكانت المهمة إلى حد كبير شكلية حتى أنه لم يتوقف أمام المجلدات إذ اعتبرها قواميس ومراجع، ولم يحمل في يده سوى ثلاثة كتب ليقول بعد ذلك بكل الوضوح :

- هذه الكتب لا تعني شيئاً. يمكن حتى انخليهلك ؟

كانت اللهجة ملفتة ومشيرة إلى الأرومة التي ينحدر منها الرجل التي تعتبر الآن بعيدة من هنا قريبة من هناك، حيث مواطن الصبا ، ذلك ما أمكن التقاطه بالرغم من تداخل اللحظات وتداعى الأفكار وبروز أكثر من باعث على القلق واستشعار المرارة في الحلق.

لم تأخذ إجراءات المكتبة من الرجل كبير وقت فما كان منه إلا أن خرج مسرعاً، مبدياً استعداده للبقاء في السيارة ما طاب من الوقت أي حتى نهاية الدوام لتدبير ما قد تدعو الحاجة لتدبيره،

أو كما حدد يمكن البقاء حتى ساعتين، مكرراً اعتذاره عن أداء هذا الواجب الثقيل ، كما عبر بكل الصراحة، فينزل الحديث برداً وسلاماً ويهون كل ما في الأفق من مكروه ، لكن من ذا الذي يطيق البقاء في البيت وهو يعلم أنه مطلوب هناك ؟ من ذا الذي يستطيع البقاء إلى جانب الأطفال القصر والمرأة البسيطة وهى تواجه هذه اللحظات الصعبة ؟ من ذا الذي يستطيع الإجابة التي أخذت تتوالى من الصغيرتين وهما يشاهدان رجلاً غريباً يفحص الكتب الواحد تلو الآخر، بالرغم مما أظهره من كل أنواع الطيبة، لا سيما حين سأل عما إذا كانت هذه فقط هى الكتب أم أن هناك كتباً اخرى. فقد كان لابد من الخروج وبالذات حين بدأت الدموع تتهاطل من العيون وصار الوجه المتورد مصفراً كما لو أن أحداً قد وضع عليه عمداً مثل هذا اللون الشاحب، وما هى إلا دقائق حتى كان الخروج حتى أن الرجل نفسه قد استغرب هذه السرعة فصار يعيد عرضه الخاص بالانتظار مردفاً عرضه بالرجاء وإبداء كل الاستعداد للصبر، لكن الرغبة في التوجه كانت أقوى من كل شئ ، فقد كان الانتظار الذي دام ما يقرب من أسبوع كامل مقلقاً للغاية، معذباً للنفس والضمير، كانت الرغبة شديدة في الانطلاق من هنا بأقصى سرعة ممكنة حتى لا يبقى أحد ينتظر ولا تبقى السيارة أمام البيت ، فلمثل هذا النوع من السيارات تاريخ طويل في إثارة التوجس وتوليد القلق.

عندما صارا رفيقين داخل السيارة كانت الشوارع غير الشوارع والأرض غير الأرض والمسافة غير المسافة، هى مائات من الأمتار

المحدودة التي تفصل البيت عن شارع الزاوية ، حيث كان التجمع، ولكنها صارت بحجم المسافات البعيدة. إن الرجل في الواقع لم يكن مسرعاً في ذهابه، بل كان بطيئاً شديد الآهات، وحرقته تنبع من القلب، وقد هزته بقوة رؤية الأطفال وهم يعيشون لحظة القلق والخوف والحسرة، وقد ضاعف من ذلك على ما يبدو معرفته بمأساة الجار أيضاً ، كان كل شئ يؤكد أن الرجل ليس في عجلة من أمره، ولعله حرص على تأخير لحظة الوصول ، فهو يعرف تماماً ألا عودة إلى البيت ولا رؤية واضحة أمام هذه المهمة ولكن الرغبة في الوصول كانت جامحة حتى ليكاد المرء أن يستعجله على ذلك، فقد تأكد أن اللحاق الآن بالسابقين هو الأجدى، وأن انتهاء لحظات الانتظار أدعى إلى استشعار الراحة وإن يكن البديل هذه الأماكن وولوج عوالم من المستحيل أن تكون داخل أسوارها العالية لحظة من فرح أو طائف من سعادة لكن الانتظار دائماً أشد سوءاً ، والوصول إلى قرار محدد ولو كان بهذه الكيفية يؤدى إلى تهدئة أكثر للأعصاب المشدودة، مع أن المعلومات التي توفرت في ذات الصباح أن المجموعات قد صارت كلها في باب بن غشير، أو الكستيلو كما هى التسمية الإيطالية الشائعة. في حين كان أصحاب التجارب السابقة يؤكدون أن هذه الوضعية ستكون أكثر راحة.

عندما وطئت القدم ذلك المكان الذي يأخذ مساحة كبيرة من مساحات شارع الزاوية وتحيط به علامات المرور الممنوع من كل جانب، لوحظ أن الحيطان تحمل في أماكن كثيرة الآية القرآنية

﴿إن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ فصارت وكأنها تسمع لأول مرة. وليست جزءاً من ذلك النص المقدس الذي استظهرته الذاكرة وكبقية القوم دأبت على تلاوته سنين طويلة، فجلال المشهد الملموس أكثر وقعاً على النفس. ناهيك أن يكون الواقع بهذه الكيفية والحضور إلى المكان في مثل هذه الحالة، فإن يكون الشعار المرفوع هو ضرورة التبين حتى لا يصاب أحد بجهالة من ضياع المعلومة أو ضعفها أو عدم صحة الواقعة أو ضعف الدليل فذلك يعني إن احتمال الظلم سيكون ضئيلاً ان لم يكن منعدماً بالمرة وذلك دون شك هو غاية الاطمئنان.

لم تكن الجهة غريبة على الذاكرة، فكثيراً ما كانت الحضور المستمر، مذ سكن خليفة إحدى شقق يوسف افندي الذي عمل بالقوة سنين طويلة، وقد اتضح عند سفر خليفة في إحدى دوراته الدراسية إن المبنى قد شغل من ذات الجهاز عند إعادة تأسيسه وإسناد رئاسته إلى الحاج محمد، عندما شهد له أكثر من مسؤول سابق بالنزاهة والترفع عن التحيز والكيد للآخرين، هي صفات عرف بها الرجل عبر النشأة والأصل والمسلك.

لقد اختار طريقه هذه منذ انخراطه في قوة بوليس طرابلس عقب الحرب، وكان باعثه الأساسي الحرص على عدم ارتداء الزى الرسمى وما يشكله من مظهر لم يكن من الميالين إليه. فالسلطة وترهيب الناس لا تتمشى مع معدن الرجل، فقد تعلم من والده هذه السلوكيات، ولعل المسؤولين الإنجليز قد لاحظوا عليه ذلك. فلم يحولوا

دون رغبته في العمل ضمن الأقسام المعفية من ارتداء الزى الرسمي، وهى أقسام لم تكن في الغالب سياسية، فالشرطة التي لا يرتدى أفرادها الزى الرسمي تقوم في الغالب بأكثر من مهمة، بل لعل كلمة المباحث العامة تعنى هذا الاتساع، فالسياسة عرفت بأمن الدولة، إلا أن التسميات الآن أعيدت على هذا النحو. وقد أفلح الرجل في أداء واجبه على أحسن الوجوه في الماضي، وهو الآن يضطلع بهذه المهمة في حصانة واضحة من إيذاء الآخرين. بيد أنه لم يكن طوال رحلته الوظيفية موضع رضا من مجايليه الذين شاركوه المهمة إذ مثل لهم النقيض من حيث التواضع وسعة الاطلاع والترفع عن سفاسف الأمور. لكنه ليس الوحيد الذي اختار هذه الصفات أو اتصف بها، لكنه الوحيد الذي آثر أن يختار ذلك مع ضعف العشيرة وانعدام النصير، ولا سيما عندما تعرض للإزاحة من هذه المواقع . وكاد أن يتوارى عن الأنظار لولا وجود من انتصر له و أعاده إلى هذه العوالم مكرماً معززاً غير مكلف بما يكره ابداً.

لم تتيسر العودة إلى هذه الخلفية عند وصول الاستدعاء، ولم تفلح الذاكرة في استدعاء شخصية الحاج محمد على نحو خاص، وهو الرجل المعروف حق المعرفة في المنطقة اولاً والمدينة ثانياً، بل والذى قطع رحلة حياته زاخرة بالعمل بدأت في حقيقة الأمر من الصفر. حين لم يستطع وهو الحائز على الابتدائية الإيطالية الحصول على أي عمل كتابي فالتحق بالمدرسة كفراش وكذلك البلدية حتى إذا كانت الحرب وخروج الطليان ومجىء الانجليز كان الانضمام إلى

قوات الأمن ليقطع بعد ذلك كل هذه المسافات ويجوب كل هذه الآفاق إلى أن أسندت إليه إدارة المرفق وأعطيت له فرصة إعادة ترتيبه وتحديد أسلوب العمل فيه وفقاً لما تحقق له من حسن الاطلاع واتساع الخبرة، ولم يقل أحد في الفترة الماضية ها قد وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. حتى كانت هذه التجربة التي استطاع أن يعالج ملابساتها بكل الحكمة فكان رصيد الرجل الآن ما كاله المسؤولون السابقون من صادق الثناء على سيرة الرجل وحسن معالجته للكثير من الإشكالات على نحو ما فعل البعض أثناء جلسات محكمة الشعب ومفارقات انتخابات سنة 64.

كثيرة هي الوجوه المألوفة في الشوارع والأزقة، التي بدت ظاهرة في المبنى وممراته وثمة حضور واضح للشباب الذين يحملون في أيديهم عديد الدفاتر مما يشير إلى أنهم يتلقون شيئاً من التكوين المكتوب، وأن دروساً محددة كانت تملى عليهم في ذات المكان، والمكان في مجمله حركة لا تعرف التوقف.

لم تطل مدة البقاء كثيراً، فقد كانت المهمة لا تتجاوز تجميع المطلوبين ليجرى بعد ذلك نقلهم على هيئة مجموعات متتالية وبأعداد محددة، ربما طبقاً لترتيبات الإيواء والإعاشة ! وهكذا قدر الأمر عشية مراجعة الأحداث وبداية رحلة التأويل التي لا مهرب منها لكل من يلج تلك الأبواب التي جرت العادة أن يكون عددها سبعة متتالية.

لقد جرت ترتيبات الاستقبال هنا بشكل محايد للغاية فلا كلام نابي يتفوه به المكلف بأخذ البيانات ولا أسئلة محرجة ولا خروج عن العادى أو إلى الحد الأدنى من اللياقة وربما لتطمين البسيط، حتى أن الخطاب بالاسم المجرد لا وجود له. كان المكلف بالإجراءات أبيض اللون مشرباً بحمرة أسود الشعر نافذ النظرات يرتدى بدلة صيفية غامقة اللون رغم أن الفصل ما يزال هو فصل الربيع، أسئلته لم تتجاوز الاسم والعمل والمرتب، إلى جانب السكن هل هو مؤجر أم من الأملاك المستردة أم ملك خاص وكذلك عدد أفراد الأسرة وأقرب الأقارب الذي يمكن الرجوع إليه ورقم الهاتف إن وجد، لكن من خلال أحاديث الزملاء ان اسم القائم بهذه المهمة عبد اللّه، ويبدو من بعض أحاديثه أحياناً انه يتكلم بلهجة من لهجات المناطق الغربية.

لقد أعدوا للاستقبال حجرات كثيرة على ما يبدو. كان من بين الموجودين محمود الذي انقطع عن الكتابة منذ سنين بعيدة وصار إلى التصوف أقرب منه إلى أي شئ آخر. إلى جانب محمود ظهر شاب أسمر البشرة وجهه ليس بالغريب ولكنه ليس معروفاً، ورجل أربعيني مقطوع اليد، وحين وصل العدد إلى أربعة أشخاص تعين التوجه إلى باب بن غشير، فحملت السيارة أربعتنا بالإضافة إلى السائق الذي هو عبد الله ذاته، لأن مهمته على ما يبدو تتجاوز إجراءات الاستلام، بل تشمل التسليم إلى إدارة المكان ذاته، فقد أظهر المستلم من البداية أنه ليس على صلة بمن جاءوا بالمجموعة إذ أصر على إظهار نفسه وكذلك الجهة التي يتبعها، وكان الأمر غريباً إلى حد كبير، فكيف

يمكن التوفيق بين استدعاء تقوم به الأجهزة الأمنية، ثم تسلم الأمانات إلى جهات عسكرية يفترض أن تكون مختصة بالعسكريين دون سواهم.

* * *

أتاح البقاء مدة أسبوع عقب استدعاء الدفعة الأولى فرصة لتصفية الكثير من الأمور، فضلاً عن التفكير في أمور أكثر، من ذلك الاستعداد للبقاء الطويل فأعدت حقيبة وضعت فيها بعض الضروريات، مثل الملابس الداخلية وأمواس الحلاقة ومعجون الأسنان، وما إلى ذلك من اللوازم إلى جانب الثياب التي تساعد على الإقامة، وقد تم ذلك من خلال مراجعة أحوال الآخرين، عندما خاضوا مثل هذه التجربة وواجهتهم بعض الصعوبات حين أخذوا على عجل ولم تكن معهم أشياؤهم هذه، وتعذر إمدادهم بها من لدن الأهل حين تأجل الاتصال بعض الوقت، فكان ذلك مدعاة لضيقهم وضيق أهلهم أيضاً. ولهذا وقع الاستعداد حين تأكد اللحاق وقد وضع إلى جانب هذه الأشياء مصحف له وقعه الروحي وجرت العادة أن يكون رفيقاً في الرحلة. وبالذات هذه التي لا يعرف أحد كم ستطول، فالقرآن خير أنيس ليس فقط لجانبه الروحاني، وإنما كذلك لليقين بأن أحداً لن يعترض عليه.

لكن هذا الاستعداد لم يكن مريحاً للمبروك الذي استلمنا في تلك القيلولة، حين كان يجلس على مكتبه ويضع لوحة فيها الاسم والرتبة واللقب أيضاً فلم يجد غضاضة من توجيه سؤال قد لا يكون

مبرأ من السخرية حين قال:

بعد السؤال عن مدى العلم بالحضور، أنت مستعد باين عليك، فكان الرد بأن استدعاء الأستاذ عبدالله ويوسف يعنى أن الدور لابد أن يأتي. وكان الهدف بطبيعة الحال تذكيره بمعرفة هذين الاسمين الذين يفترض أنه أحد أقاربهما وربما يقتضي الأمر أن يضع ذلك في الحسبان، فالصلة معهما قديمة وهو أيضاً لابد أن يكون كذلك. لكنه لم يظهر تقديراً لهذه الجزئية فبادر بحجز معجون الأسنان وأدوات الحلاقة والمصحف أيضاً ، مبقياً فقط على الملابس ولكن على مضض ظاهر.

لم يكن غريباً فهو يحمل لقب العائلة، ومن المؤكد أن مصطفى هو الذي مكنه من دخول السلك وربما اختار له ذات المكان فمنزلة مصطفى كانت رفيعة وسمعته كذلك ليست سيئة. ملامح المبروك نفس ملامح الحاج مسعود الذي طالما مر بالمقهى وجلس مع المجموعة بواسطة عبدالله ومحمد ومحمود، وهم يطلقون عليه عادة لقب السمكجي لكثرة وجباته السمكية ومعرفته بجميع أنواع السمك وخصائصه، وكثيراً ما يبادر بدعوة أقاربه، أنه يختلف عنهم في اللون، وربما العرق أيضاً لكنهم لا يقتربون أبداً من هذه المسألة فقد عرف بين الناس أنه ابن عمهم جميعاً.

حتى هذه اللحظة كان فارق اللون بتقديري عائداً إلى الخؤولة فالحالة موجودة في عائلات كثيرة، من ذلك على سبيل المثال الفرق بين لون عطية ويوسف عندما عادا جميعاً عقب الحرب هذا من

نيجريا وذاك من الاسكندرية وكذلك الحال بالنسبة لمحمد عبد المطلب ومحمد الأمين، وعائلات أخرى منها شرف الدين والشكشوكي والكريكش والزقلعي في المدينة الكبيرة، لكن نزعة المبروك الانتقامية أعطت الآن مؤشراً بألا صلة بين هذا الرجل وعبدالله أو محمود وأن صمتهم المطبق إزاء هذا الاختلاف هو في حقيقة الأمر من قبيل الإخفاء الذي لا لزوم له، لقد أخذ اللقب على ما يبدو من الانتماء وليس من قبيل القرابة وليس من المستبعد أن ينكر من جهته لقبه هذا فيما إذا قدر ذات يوم إلا مصلحة له في ذلك.

ليس هذا بالأمر المهم أو المفيد أيضاً ، وهو كذلك لا يقوم على أي ناحية موضوعية، لكنها ردة الفعل التي لا فكاك منها ولا صمود أمامها في مثل هذه اللحظات الصعبة.

لقد أنهى الرجل بضربة واحدة كل المشاعر التي من شأنها أن تعصم المرء من تبنى فلسفة التفرقة والتمييز العنصري بين الناس جراء اختلاف اللون تحديداً، فأعاد إلى الذاكرة وفى شئ من الإعجاب ذلك الهجاء المقذع الذي نطق به المتنبى تجاه كافور الإخشيدي ذات يوم، وبعث كذلك حكم الأجداد التي كثيراً ما بررت التفرقة هذه، ودعت إلى ترسيخ الفرقة بين الألوان فاعتبرت اختلاف اللون دليلاً على اختلاف الطباع وشروط الآدمية، بل بدا أن الموقف الأمريكى الذي كثيراً ما أدين عبر التاريخ ربما يكون هو الأصوب، والسبب بطبيعة الحال هو المبادرة السيئة من لدن المبروك والتى ما

كان له أن يقوم بها، وأحرى به أن يتركها لوقتها على الأقل، أي حين يجد الوقت المناسب !

لم يكن ثمة ما يدعو إلى التريث وعدم التعميم أو أي من تلك المعاني الجميلة والآراء المتعلقة التي كثيراً ما تبناها المرء ودعا إليها، عند البعد عن التجربة المعاشة عن لحظة التطوع بالإساءة والمبادرة بالشر كما فعل الرجل، لنعيش الفرق بين البراني الإنسان الذي يخجل المرء بأدبه رغم عدم الكلام معه وعدم الإشارة إلى أي من أهله، وبين هذا المبروك الذي تجاهل الجميع، فأكد حالتئذ أن العلاقة متينة بين سواد الوجه وسوء القلب، فكان ذلك كافياً لإثارة كل مشاعر الحقد الذي ملأ النفس المكبلة ولم تستطع بالطبع أن تثأر اليد المغلولة.

لم تحل هذه المشاعر دون مواصلة العريف مفتاح لمهمته لمجرد أن نودى به وحدد له المكان، فباشر فتح الأبواب الواحد تلو الآخر، فأمكن إحصاء خمسة أبواب متتالية كلها كانت مقفلة ويجري فتحها ثم قفلها تباعاً حتى وصل باب القسم رقم (1) وهو الذي حدد من الإدارة ليفتح الباب المؤدى إلى ممر طويل وينتهى الأمر إلى حجرة كبيرة بها عدد من الأسرة، علمنا فيما بعد أنه يدعى بالعنبر. أما القسم فهو هذا الباب الذي يضم الممر الطويل الذي يحوى مجموعة العنابر. ولا صوت بعد ذلك سوى صرير الأقفال وخطوات الحرس المدججين بالسلاح يقطعون هذا المر جيئة وذهاباً إلى جانب المذياع ذى الصوت المرتفع والمبقى عليه مفتوحاً آناء الليل وأطراف النهار.

إن الصدفة هى التي تحسم الأمور في مثل هذه الظروف، وربما رضاء الوالدين أيضاً. والشيخ لا يدخر وسعاً في حسن الدعاء وكذلك الجدة التي لقيت ربها منذ أشهر راضية مرضية. أما زهرة التي رحلت قبل ثلاثين سنة كاملة فلم يكن لها من وصية وهى تعيش آخر أيامها سوى هذا الابن الذي صار الآن يقبع خلف هذه الأبواب الموصدة. بيد أن ما يخفف من وطأة اللحظة هو أن المجموعة قد تكونت من عناصر يعرف بعضهم بعضا، لا يهم إن كانت هذه المعرفة عن قرب أو بواسطة الاهتمامات المشتركة والنشاط الواحد. وقد اتضح أن النشاط الصحفى يجمع أربعة من الموجودين على الأقل، كانوا يجمعون بين الكتابة الأدبية والبرامج الإذاعية والعمل الصحفى بالإضافة إلى الوعظ والأحاديث الدينية بمعنى أن هذه الأمور مجتمعة تشكل شأناً من شئونهم وهماً من همومهم.

إن الوعى السياسي أيضاً لم يكن منعدماً أو ضئيلاً لدى الجميع، وربما كانت وتيرته عالية لدى البعض، فثمة هوية سياسية جرى الترويج لها بقوة والعمل على تسويقها بمثابرة، وقد لاح أن من بين الحاضرين من صدقها، هو الآخر وربما ـ دون أي تحامل ـ تبناها أيضاً.

ـ أظهروا لهم الجلادة ، إياكم والضعف.

هكذا قال سابع المجموعة وهو يدخل على المجموعة ويفرغ من تحية الجميع.

كانت وجوه الذين سبقوا إلى المكان تنظر إلى بعضها البعض نظرة

لا تخلو من الاستغراب والتساؤل، كما لو كان قائل منهم يود أن يقول:

- من ذا الذي قال لك أيها الشاب أن في الأمر ما يحتاج إلى الجلادة ، ولماذا التجلد بالأصح ؟ هل أنت على علم بشيء ما أو أنت تنتظر هذا الشيء. مع أنك لم تفاتح بعد بسبب دعوتك إلى المكان وقفل الأبواب السبعة.

كان فارق السن واضحاً للغاية، فمن الممكن أن تكون الأجيال التي ينتمي إليها قد اتخذت بعض المواقف لما يجب أن تتجلد إزاءه ، فكانت هذه الكلمة التي بادر بها قبل أن يعرفه الحاضرون، أما هو فقد كان يعرف الجميع، إذ كون فكرته من خلال حركة الحياة ولهذا لم يكن في حاجة إلى أن يقوم إليه أي من الحاضرين حين قدم نفسه لمن وجدهم أمامه، فقد سماهم جميعاً بأسمائهم، مما أكد من البداية ما يتوفر عليه من الاطلاع، فهو من الأجيال الجديدة ذات المواقف المحددة إزاء الواقع وما يجرى فيه.

لم تكن ثمة حاجة إلى التفكير في نوعية الموقف ولا مجال أيضاً يسمح بذلك، بيد أن المشاعر تحاصر النفس حتى في أضيق اللحظات، فمن يعرف الأسماء السابقة لابد أن يكون لديه الباعث المتصل بالنشاط ومن يكن همه إظهار التجلد قبل مواجهة ما يدعو لذلك لابد ان سكون لديه الشعور الكامل أو شبه الكامل إزاء ما يمكن أن يحصل عليه، وما سيحصل من الضروري أن يكون بحجم الحركة، وعلى قدر الإسهام، ذلك ما خطر بالبال والشاب يلقي بكلماته هذه

ويتحدث في بعض الهموم.

كان نحيلاً على نحو لافت، تعلو وجهه بعض القروح الظاهرة. لم تكن غريبة بطبيعة الحال، فالنشأة الدينية لها ظروفها، وللكبت الذي ينتج عنها في الغالب آثاره التي كثيراً ما تظهر على الجسد، وثمة ما يدل على الإجهاد، وربما الأرق أيضاً ، وفي مثل هذه اللحظات يكون التركيز هو السمة التي تطبع كل التصرفات.

حين بادره العريف مفتاح بالغذاء التهم ما قدم إليه بسرعة فائقة فهو لم يتناول طعام الغذاء، كما أخبر، وقد ألحق مبادرته بالأكل بكلمة لا تخلو من معنى:

ـ نريحو الغدا قبل.

ـ كان هذا القول أيضاً دليلاً على وجود بعض المعلومات لديه عن الذين سبقوا إلى المكان.

إن نحالة الجسد ذاتها تشجع على الأخذ بمثل هذا التصور إزاء هذا الإنسان، فكلما ضؤلت الأجساد وظهرت بساطة الشكل، كلما كان احتمال وجود الإسهام الأكبر أقرب إلى واقع الحال، وذلك منذ ان قال الشاعر العربي الخالد:

"ترى الرجل النحيف فتزدريه وفي أثوابه اسد هصور"

ونحن على أي حال لانملك ما نزدري به الناس، من يتحدث إلينا أو غيره فالحالة واحدة، والمكان يتسع للجميع أو يضيق بهم سيان.

فليس أمام المرء إلا أن يقبل بكل من يأتي، لكن المشاعر الخاصة تظل دائماً ملكاً لصاحبها، وهى عالمه الذي لا يستطيع أحد أن يقترب منه أو التأثير عليه، حتى وان أشاع المرء ما يخالف واقعه وتظاهر بما ليس لديه، تلك هى الحقيقة، والجميع يخرجون ويعودون عبر الخواطر البعيدة والأجساد الممدة على الأسرة والدقيقة بحجم العمر.

كانت الخطوة التي وقع التصميم عليها من البداية متمثلة في الحذر من المحاصرة الداخلية ، وذلك بالحرص على الدخول في أي احتكاك مع المتساكنين في المكان، واعتبار المحنة خير موحد، وعدم السماح لأى خلاف كان، سواء فيما يخص اليومى، أو في بقية القضايا ، ذلك يعني قبل كل شئ تفادي الاقتراب من الثوابت، وفى مقدمتها المقدسات، فحسمت الأمور بمقتضى هذه الحسابات من البداية.

وكان البعض فيما يبدو وخمن أن أداء فريضة الصلاة ليست من الأمور المتبعة، ولذلك جاءت الصدمة وخيبة الأمل حين اتضح أن الأمر ليس على هذا النحو، وأن الموقف الاشتراكي الذي يمثل الشبهة السياسية لا يعني التجرد من الناحية الدينية. وقد أدت هذه الوضعية إلى وجود مناخ إنساني غاية في الجمال والطمأنينة منذ اللحظات الأولى التي أقفلت فيها الأبواب فانصهرت المجموعة في بوتقة واحدة كل في عنبره سلك نفس المسلك دون أي تصنع أو تأثير من هذا أو ذاك، فالمحنة قادرة على توحيد الناس جميعاً، واللجوء إلى المولى من المرجعيات الأساسية في الشرق عامة والشمال الأفريقي على نحو أخص.

كـان بعـض الموجوديـن لا يدركـون شـيئاً عـن أهـم الـتجارب السياسية التـي فصلت بين الدين كعبادة والاتجاه الاشتراكي كرؤية فـي الاقتصـاد والأدب ولـيس ضـرورياً أن يكـون كـل مـن يتبـنى الفكـر الاشتراكي فـي مجـال الاقتصـاد أو الأدب متـنكراً للديـن بالكـامل، بـل لعـل بعضـهم لا يعـلم أن أكـثر التنظيمات فاعلية الـتي أفلحـت فـي الفصـل بـين العـبادات والـرأى، بـل ذهبـت إلى حد القـول بـأن الحـرص على أداء العـبادات من سنن وفرائض في مقدمة ما يعمق الإحساس بـأداء الواجـب بالنسبة لكل مناضل حقيقي، وأن كـل تفريط في هذه المسـائل يعتـبر بدايـة للـتفريط فـي بقية الالـتزامات النضـالية، بـل إن هـذا الفهـم يـرى أن الموقـف الديمقـراطي الصـحيح هـو ذلـك ينصـاع صـاحبه لموقـف الأغلبـية. ومـا دامـت الأغلبـية تعتـبر الديـن مـن الأمـور الجوهـرية فـلا مـناص مـن القـبول بذلـك حـتى إذا لم تكـن القـناعة الشخصـية تعـاني شـيئاً مـن الـنقص. لقـد قـيل الكـثير فـي هـذا الصـدد حـتى أن هـناك مـن اعـتبر الموقـف السـاخر مـن الديـن إنمـا هـو مـن قـبيل الـنزوع الفـردي نحـو التحـيز بـل هـو ضـرب مـن ضـروب الممارسـة الـبرجوازية الـتي كـثيراً مـا تـنال بممارسـاتها غـير الديمقراطـية مـن الأسـاسيات ممـا يأذن في أحيـان كثيرة بـالنيل من كـل أسـاس عقائدي وبنـاء سيـاسي موازلـه بالضـرورة مـا بـالك وحبل الإيمـان لم ينقطع أبدًا.

المهـم أن هـذا المسلك الواعـي قـد أدى إلى تعزيـز المشترك وعـدم السـماح لأى فجـوة يمكـن أن تنـتج عن اخـتلاف وجهـات النظـر فـي أي شـأن مـن الشئون.

إن التجارب التي أمكن اكتسابها من رحلة الحياة الطويلة، وقبل الحلول بذات المكان، إن في مقدمة ما ينبغي الحرص عليه والتحلي عند الاضطرار لأى رفقة أملتها العوامل الخارجية وضرورات الحياة، هو الحرص على صون المشترك الذي يجمع الناس والابتعاد بقدر الإمكان عن كل ما من شأنه إثارة الخلاف وتعميق نقاط التقاطع، وبالذات حين تكون الأمور في بداياتها الأولى ولا أحد يعرف على وجه اليقين ما إذا كانت هذه الرفقة ستطول أم أنها ستنتهي بعد أيام محدودة انسجاماً مع ظروفها المفتعلة وأسبابها غير المقنعة.

رحلة الاكتشاف تبدو شديدة الصعوبة، في مثل هذه الأوضاع، إذ يجد المرء نفسه، ودون سابق إنذار مع غرباء، يجمعهم المصير المشترك أقرب من كل قريب، وأدنى من كل حبيب، مع أن النفس بطبيعتها تحلق دوماً حيث الأجنة، إلا أن الجسد في واقعه حيث هو.

أربعة جدران شديدة الارتفاع، كوة في أعلى الحائط تعطى قسطاً محدودا من التهوية ومثله من الإضاءة. ومع ذلك فإنها تبدو من ذلك الارتفاع مسيجة بشباك حديدي، يستحيل لو قدر للأيدي أن تلامسه إيلاج عود ثقاب منه، ما بالك والأيدي لا تطاله ، ولو قدر لهذه الأجساد أن ترتقى على أكتاف بعضها البعض بما يصل إلى الثلاثة.

إن المواقف تختلف بين شخص وآخر، فثمة من يختار طريق الهذيان وثمة من تستهويه الشكوى، فيما يجنح فريق ثالث إلى الصمت، وقليل ما هم أولئك الذين يسلكون طريقاً وسطاً، ويكونون

بحق بين ذلك قواما.

لقد اتضح من اليوم الثاني أن الأكل سيكون بواقع ثلاث وجبات في اليوم الواحد، يبتدىء البرنامج بالصباح حيث المربى والشاي أو القهوة إلى جانب الخبز، يتكون الغذاء المتكون من بعض المعجنات أو الأرز إلى جانب اللحم، ليصل الأمر إلى العشاء الذي لا يختلف عن ذلك كثيراً، فبدا أن أخطر ما يهدد من يوجد في المكان هو السمنة كمحصلة طبيعية للأكل الدسم مع عدم الحركة، مما جعل التفكير في هذه الوضعية والحذر منه يستحوذ على الاهتمام. وفى هذا الإطار كان الحد من الأكل الخطوة الأولى، فتعين الحد من العجائن إلى حد كبير وتجنب الشحم، والحرص على المشى داخل الساحة المحدودة لساعات متوالية، بمعنى استثمار المكان في الرجيم المنظم، بدل الاستسلام للخمول وعدم الحركة، ومع المشى كان السفر بعيداً عن المكان، وترك العنان للخيال المجنح يذهب بالنفس إلى ما شاء الله إنها اليوغا في أتم معانيها إن صح التعبير.

* * *

فى محاولة لكسر حالة القلق والحيرة، اقترح محمود على الشيخ العكارى أن يتلو شيئاً من الآيات الكريمة، محدداً طلبه في سور السبابيح بالذات، وهى التي تستهل بـ سبح ويسبح من التغابن إلى الحديد أو العكس، وجميعها من السور المدنية، المعروفة بطول آياتها، ووضوح القضايا التي كانت مطروحة في بداية الإسلام ، ومن بينها

تداخل الحقوق بين المهاجرين الذين رافقوا الرسول الكريم في هجرته بعد أن صدقوه وناصروه وآزروه في سبيل دعوته، والانصار الذين آووه ومن جاء معه فاستحقوا من ربهم الثناء في الدنيا وحسن الجزاء في الآخرة.

إن القراءة المتتالية ودون إلحاق أي منها بالحديث عن النص تجعل المرء يستشعر أجواء المآتم، وكان ذلك بالطبع فالاً غير حسن، لكن الصبر على كل ذلك شئ ضروري في مثل هذه اللحظات، فليس هنا مجال للخيار، ثم إن إبداء الضيق من تلاوة القرآن قد تعني ضعف الجانب الديني. وذلك أمر لا فائدة من ورائه ولا لزوم للسماح بأى خاطرة حوله، فليقرأ الشيخ ما شاء له أن يقرأ، مثنى وثلاث ورباع. فالأمر لن يتجاوز حزباً أو اثنين ولن يحتمل من جانبه الجهر بتجاوز الساعة أو الساعتين أيضاً ، ونحن في النهاية أمام زمن لا حدود له، فلا شئ غير الجلوس وغير التوقع، ولم يمض من الزمن إلا القليل، وها قد جن الظلام وأشعلت الأضواء، لكن هذه الأضواء تظهر بدون مفاتيح ، وهى على هذا الأساس ستبقى طول الليل فكيف السبيل إلى النوم وقد اعتأدت الأبصار منذ الصغر أن تخلد إلى النوم حين يأتي وقته بدون إضاءة ؟

كان ذلك أول الأسئلة التي فرضت نفسها، ودون السماح للحيرة أن تسود كان القرار بالاخيار ولا شئ غير القبول بالموجود.

بيد أن النوم صعب المنال، إذا ما وطأت القدم مثل هذه

الأماكن، واستضافته داخلها وهى التي لا تدخر إلا بشيء، ولا تجود إلا بما يقهر النفس ويدمي الفؤاد، فقد فتح باب الحديد بعد صرير الأقفال التي اعتأدت صوتها الآذان أو كادت. وطلب إلى المجموعة ان تخرج كاملة، وان تصطف في صفوف الواحد تلو الآخر، وتمضى في خطوات محددة ونظرات محددة أيضاً ، لتجتاز بعد ذلك باب موصد خلفه باب آخر إلى أن يتم المثول بين يدي الموظفين الذين جاءوا على ما يبدو خصيصاً ليشكل الجميع طابورا شديد الطول قوامه المجموعات التي سارعت في أخذ البيانات اللازمة: السكن ونوعه، المرتب وقدره، الأسرة وعددها، الهاتف ورقمه، وهو إجراء لم يتخذ مع المجموعات التي جيء بها في البداية، فأريد تلافيه الآن، أما التي حضرت أخيراً فقد أخذ منها كل ما يلزم من المعلومات ، ولأن الرفاق جميعا من الذين جيء بهم أخيراً مما تبين معه للمعنيين بالأمر أن المطلوب قد أخذ، صار من الضرورى أن يعود القوم من حيث أتوا فاستحال على المجموعة أن تتعرف على بقية الموجودين جميعاً، لكن اللقاء على سرعته أتاح فرصة السلام السريع بطريقة أو أخرى ، بالرغم من أن الحرس كان ينظر للجميع نظرة المذنبين فيحول دون أي حركة ، لم يؤذن بها أو يخشى أن تفيد بغير المسموح به، لكن الملاحظ على الأغلبية هو أنها محلوقة الرؤوس، وترتدي بيجامات موحدة، وهى التي تسلم لكل من يحل بالمكان، الكل مطلوب منهم سرعة التحرك، وعدم النظر لأى جانب من الجوانب بل الاكتفاء فقط بالنظر إلى الأمام.

أحد الذين أمكن تبينهم كان في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات من النقابيين النشطين في قطاع المطابع تحديداً، ولأنه من الوجوه المألوفة تبين لأكثر من واحد، ما ظهر على مشيته عرج ظاهر لم نكن نعرفه عنه في الماضى، حضوره كان مثيراً للدهشة وربما السخرية أيضاً لو وجد الوقت الملائم للتعليق، فمنذ عقد من الزمن أو أكثر خلع الرجل كل ما يمت إلى العمل النقابي بصلة، فلقد ولج باب التجارة وامتهن التوكيلات التجارية، وذاق على ما يبدو طعمه فلم يعد يستنكف الازوار بوجهه كلما لاح عليه أحد عارفيه القدامى الذين كان يتحدث إليهم قبل هذا التغيير في حياته عن الكثير من الأمور السياسية في اندفاع غير عادى، فصار بعد النشاط التجاري يخشى من مجرد ذكر ذلك الماضي، وربما خيل إليه أن الجهات المسؤولة ما زالت ترصد ما أصابه، فأراد أن يفلت من ذلك، غير مدرك أن الواقع الاقتصادي الذي طرق الحياة وعكس تأثيره كان قد غير مسيرة معظم أبناء الجيل وبالأحرى استوعبهم، فتعطل إيقاع النشاط العام على كل الصعد، ولكن أنى له أن يدرك هذه المتغيرات حتى لا يزعم أنه الوحيد الذي تغير، وها هو الآن يجاء به ضمن الذين جيء بهم وفقاً لما كان معروفاً في ذلك الزمن، ولم يحل بينه وبين هذا المصير كل ما أظهره من أشكال التنصل حول ما ادعاه ذات يوم ثم عاد وتخلى الآن عنه، وبات يضيق ذرعاً بكل من وسموا به، كما لو كان التنصل من حقه وحده والتغير من حقه وحده وليس من حق غيره من الناس !

. هاأنت الآن وجدت ضمن من وجد لم يحمك الازورار ولا

التظاهر بعدم معرفة الناس. إنها الحكمة القديمة، التي طالما رددها بعض البسطاء من أصحاب التجارب الحياتية عندما يسوقون ما تكون لديهم من المعرفة وهم يحذرون كل من يعنيهم أمره من مغبة الشبهة السياسية :

- لما تكتبك الحكومة باللابس (قلم الرصاص) ما يقلقكش مدفع!

بمعنى أن كل من يحويه الأرشيف الرسمي لا يمكن خروجه من ذلك بسهولة، كانوا سيستشهدون بهذا القول حول الذين دخلوا السلك الوظيفي في عهود قديمة واعتقد البعض أنهم سيفقدون وظائفهم مع تغير العهود، فإذا بهم يبقون حيث هم. لأن كل من يستلم الأمر يحتاج إلى أصحاب الخبرة ولا يكتفي أبداً بمن لا خبرة لهم.

ويبدو الآن أن سجلات السابقين قد شكلت الدليل القوى لمن جاء بعدهم. ومن داخل القوائم ذات يوم بقلم الرصاص فلن يخرج منها ولو أعيد إعدادها، ولو قيل إن هناك من أحرقها ذات يوم، فلم يبدر منه ما يمكن أن يبرر وضع اسمه في هذه القوائم مرة أخرى !

كان السؤال ملحاً ويحتاج إلى البحث، ولكن، مع من، وماذا ستفيد الإفاضة في مثل هذه الأمور ؟ فمن الحكمة ألا يخوض المرء في مثل هذه الأشياء. من الحكمة عدم الاستجابة لهذا الحوار الذي يحاور النفس والقلب والوجدان. لكن اللحظة فرضت نفسها على الجميع، وما يكون لأحد أن يستبعد ما يحاصره من الأسئلة التي تخلو أحياناً من الاستنكار ، فمنطق الشاعر القديم حسب عجز بيت الشعر

(أنا الغريق فما خوفي من البلل) هو الذي يمكن أن تكون له الغلبة، مع أن الخوف أحياناً يفوق جميع المشاعر.

صار خمستنا ـ عند العودة إلى الأسرة داخل العنبر ـ يثيرون الأسئلة بصدد الأسماء المعروفة والمتوقفة. البعض استقى ذلك من خلال ما أفلح في التقاطه من الوجوه التي استعرضت في الطوابير الطويلة، والبعض كان يعود إلى معلوماته القديمة وهي التي تشمل عادة من هم على الشاكلة ومنهم كذلك على النقيض.

اثنان من سبعتنا لم يخوضا في النقاش ولم تستدرجهما إليه الحالة المهيمنة، ففضلا الصمت والاكتفاء بالملاحظة أو فضيلة الإصغاء. كلاهما معروف . . يفرن بما تمثله من حضور في المكان على حد تعبير الشاعر الشعبي عندما قال:

يفرن عروس الكاف يا

سيرك هو هاو يعجبك

كما أن الدراسة بمعهد الهندسة التطبيقية جعلت من حماد شديد القرابة، ومبادرة الغالى بالدعوة إلى إظهار التجلد في اللحظات الأولى لقدومه والحذر من الشكوى والانهيار كانت جسر تعارف مهم بيننا، زاد من ذلك الانتساب إلى عشيرة المناضل أحمد زارم وما يمثله من حضور في التاريخ ونظافة في السيرة الوطنية.

كان لعزوفهما الآن عن ذكر الأسماء وقعه الجميل، ودلالته العظيمة التي تملأ القلب فرحاً واللحظة أملاً وثقة، وإن تكن بعض

التعليقات أيضاً تصب في ذات السياق.

لم تتوقف الحياة بعد. وثمة أجيال جديدة تنمو وتقدم نموذجاً آخر في السلوك المتان، بصرف النظر عن ما هية التصور، عن الموقف إزاء ما يجرى وكل حركة في الحياة تعنى التطور، تعنى أن السلوك ليس هو العملة القارة، ليس القاعدة المسيطرة، وكلما كان هناك جديد في الحياة وتحرك بصدد الواقع، كان ذلك يعني أن التغير إلى الأفضل سيكون هو المحصلة النهائية، هو ما ستوفره الرحلة في سيرورتها.

هناك أساسيات في الحياة، حين تبدو ظاهرة في أي جماعة من الجماعات تبدو الحياة غنية بالإيجابي، باعثة كل الأمل والتطور، خروجاً من السكون على الأقل. . هذه الأساسيات يمثلها في هذه الظروف الصدق في القول ، الكف عن الحديث بما لا يرضى الآخرين. الحذر من الاستسلام للضغوط والانهيار أمام اللحظة، الترفع من نقيصة أن يتمنى المرء لو أن جميع من عرف عنهم نشاطاً ما يكونون الآن داخل السور، حين يحل ما لا يلذ للنفس كهذا الذي يجرى الآن، حين يتمنى قصيرو النظر أن يكون الجميع في ذات المكان !

* * *

ما يزال الليل أطول من النهار، فالربيع توأم الشتاء، وإن يكن هناك من يؤكد أن برد الربيع لا يتسرب إلى العظام، فهو لا يدوم مع الزمن، بيد أن العدد وتوفر الأغطية لا يترك للبرد سبيلا. وقد ضاعف من استشعار الدفء ما درج عليه العمل من المحافظة على ارتداء

الصوف الداخلي إلى منتصف الشهر الخامس من كل سنة، وهو اليوم المحدد لتغيير ملابس الشرطة. عادة وقع العمل بها منذ الحلول بالمدينة لكن النوم أمر بعيد المنال، فالانتقال أي انتقال من الأمور التي تؤثر على الإنسان. ما بالك والانتقال إلى مثل هذا المكان، وهذه الأجواء المصباح الكهربائى من جهته يضيء الغرفة قسراً، نهاراً وليلاً، يذكر الإنسان بما يقال عن حياة دجاج البيض، حيث يترك الضوء نهاراً وليلاً ولا حاجة للدجاج سوى أن يأكل ويبيض، فمن أين للنوم أن يأتي وفى أي حديث يمكن الخوض ؟

كل له طريقته في مجابهة لحظات القلق ومشاعر الحيرة والألم. البعض يسبح لك علناً، والبعض يلوذ بصمته ويكتم آهاته. وثمة من لا يجد غضاضة في الشكوى المؤثرة وربما الدموع أيضاً ، وبين سنة من نوم واطباقه للجفن ومقدرة خاصة على النوم العميق، ومن صلى سريعاً ومن أجل ذلك بعض الوقت، هزم الضوء ظلام الليل، أمكن لمن أسعده الحظ ببقاء ساعته في يده. أن يقول بأن الساعة هى الثامنة صباحاً. عندئذ بدأ صرير الأقفال يؤذن بفتح العنابر من آخر الممر على ما يبدو، لاستلام فطور الصباح، ولوحظ أنه قد أعد بسخاء ظاهر فلم يغب المربى والجبن والشاى والحليب، لكن دون أن تنسى المجموعة القائمة بهذه المهمة تنفيذ عملاً آخر، تمثل في حلق الرؤوس لكل الذين لم يحلقوا بعد، نظراً لتأخر حضورهم بعض الوقت وتعين أن يشملهم الإجراء.

عقود من الزمن انقضت بعد الإقلاع عن الحلق بهذه الكيفية ،

وقبل إن يتحول إلى نوع من التذنيب كما هو الآن. ومنذ سنين طويلة كان إطلاق العنان لهذا الشعر كى يطول هو السلوك المتبع اللهم إلا في فصل الصيف، لكن الشعر يبلغ أقصى درجات طوله في الشتاء والربيع، فهو الغطاء الطبيعى منذ حسر الرأس في بداية الشباب. كان هذا الشعر بكثافته التي ما زالت صامده وسواده الذي صار الآن مهدداً بعض الشيء في مقدمة ما أغرى بالإطالة. لم يعد هناك أي حرص على اقتناء المشط البلاستيكي الذي لا يعرف الكسر أبداً ، ولم تعد الزيوت وأنواع الكريم بالتى تغري الإنسان، فباستثناء الركون إلى الشامبو على نحو دائم لم يكن ثمة ما يضاف. ومع ذلك فإن الشعر يطول ويطول. ويحدث بين الفينة والفينة أن يصف بطريقة شبابية وربما عن للحلاق أن يفرعه يمنة ويسرة طبقاً للفرقة التي جرى بها العمل في زمن الصبا، حين كانت شوارع المدينة تذرع من الحد إلى الحد، ولم يحدث على أي حال شئ ينال من جمال الحياة قبل هذه اللحظات، حتى السمنة البسيطة لم تعكر صفو الشباب، وقد ضاعف من الإحساس بأهمية الشباب التخلص من آثار البرد القديم، بفضل العلاج الفعال الذي نجح فيه طبيب الأمراض الصدرية في السنتين الماضيتين.

كيفما كان الحال فقد كان الشعر طويلاً على شكل لافت، وقد جرى تركه عبر الفودين إلى ما تحت الشحمة الأذنية، وقد يكون هذا المظهر دون غيره الذي يتفق مع السيرة النبوية كما يروى الشيخ البرزنجي في مولده الجميل الذي طالما حرص الأهل على تلاوته والإنصات إليه كلما حان موعد المولد، ونحن الآن على كل حال ما

زلنا في شهر المولد، ولو قدر للنفس أن تتحول إلى طائر يستطيع تجاوز الأسوار العالية والأسلاك الشائكة، ويخرج من هذه الفتحات الضيقة، ليصل إلى تلك الربوع البعيدة ومشاهدة الأهل في كل المساجد والزوايا وهم ينشدون القصائد الوترية المخمسة، التي يطلقون عليها عادة اسم البغدادي، حيث يتفننون في توزيع الألحان والتنقل في العديد من المقامات والتذكير بالشارد والوارد.

لكن دون ذلك خرط القتاد ، كما يقول يوسف باستمرار والسعادة الآن بغيابه شديدة هذه المرة، وهو هناك في لندن في بعثته التي توشك الآن أن تخلص، فما أجمل أن تطول الغيبة، لكن حماد الآن يعوض فهو يحمل نفس الاسم وثمة أكثر من مشترك بين القريب والبعيد، والهدف بطبيعة الحال هو تجاوز الفراغ أو سده أو الحد من تأثيره على الأقل.

ـ ما تشوفش مكروه.

تلك هى العبارة التي نطق بها اللسان، وقذف بها القلب الذي يكاد يتميز من شدة الضيق والإحساس بالغبن، حين فرغ الرجل من مهمته المتمثلة في حلق الشعر إلى درجة الصفر كما هو المصطلح. والشعر الذي لم يحلق بهذه الكيفية منذ إطلاق العنان في مطالع الشباب حين وضعت في المعصم ساعة لم تفارق الذراع طول هذا العمر، وإذا بالمبروك يحاصرها ويعتبرها ضمن الأشياء الخطيرة. ويرسل الآن من يحلق الشعر بهذه الكيفية.

أكيد أن الرجل لا يقصد شيئاً حين أطلق كلمة (نعيماً) عقب الحلاقة، لكن الإحساس بوقع الكلمة كان مؤلماً، فما حدث لم يأت طواعية، ولكنها التعليمات والتدابير التي لابد أن تتم، لتحقق دون شك غرضاً من الأغراض وتوقع جزاء من الجزاءات.

ليس ثمة ذنب ليترك مثلما ترك لبعض الموجودين، فمنذ سنين طويلة وقع الاستغناء عن هذا المظهر، وقبل أن يمتد شئ من الشعر الأبيض إلى اللمة السوداء، وليس هناك ذقن حتى تقع المبادرة بحلقه كرهاً لما يحمله من دلالة التوجه السلفى المشمول بالرفض، لهذا كان الاكتفاء بحلق الرأس فقط ودون التوقف أمام ما رد به على كلمة (نعيماً).

وفى نظرة لا تخلو من معنى وصمت لا يخلو من تأمل لم يقل الرجل شيئاً وهو يستمع إلى كلمة " ما تشوفش مكروه " أومأ الرجل بضرورة أن يضع كل موجود شعره في الجردل المعد لهذا الغرض. غير أنه يلحق قص الشعر بكلمة واحدة.

- شعر وينبت.

لقد أكملت المهمة بسرعة وعاد كل شئ إلى ما هو عليه، أبواب خلفها أبواب، وأقفال بعدها أقفال، وعبر المدى البعيد يرتفع بين الحين والحين صرير الأقفال وخطوات الجنود ونداءاتهم التي تخترق المسافات، والصمت بعد ذلك يلف المكان، وسبعة أسرة يمتد عليها سبعة رجال، اختلفت أصولهم وتباينت أعمارهم، وحدتهم المحنة ولا

يسمع سوى الزفير والشهيق، جمعتهم الحالة وساوت بينهم لحظة قص الشعر وما يحمله من دلالة، فذهب كل إلى عالمه الخاص الذي طاف حوله كل ذهن شارد، لولا أن ارتفع صوت أحدهم بضرورة أن يروى كل من الموجودين ما لديه من ذكريات لكى تترسخ المعلومات فلا يقهر الزمن إلا الصخر والكلمة، ليكمل آخر والكلمة أطول عمراً، وما دمنا نملك هذه الكلمة فنحن إذن أطول عمراً، ومن يطل عمره ينبت شعره، صارت الكلمة حكمة أي من يطل عمره ينبت شعره، تماماً كما هى الأولى التي ثبتها صلاح عبد الصبور على كتابه " تبقى الكلمة " الذي تولى نشره ذات يوم الأديب على مصطفى المصراتي بعد أن مر ذات يوم على ذات المكان عقب إبعاد السعداوي وأحمد زارم ومظاهرات فبراير 52، قبل واحد وعشرين سنة كاملة ترى ماذا أنت فاعل يا عبد الغني، وقد اعتدت أن تحلق الكثير من هذه الرؤوس المنتسبة إلى المدينة خصيصاً والمنزرعة عبر شرائحها الكثيرة، ومن بينها بالطبع الصحافة والرياضة، غير هذا الزمن الذي انقضى على افتتاح الصالون منذ سنين بعيدة، حين حصلت على مكان مستقل ولم تعد أجيراً كما كنت قبل ذلك، حين أعلنت الصحف المنتشرة جميعها عن صالون عبد الغني، وكان ذلك مع إحدى مباريات كرة القدم التي حددت مصير دوري طرابلس، فظهرت الصورة، صورة عبد الغني وهو يعلق على المباراة بين عشاق كرة القدم ومتابعيها، وذكر يومئذ أن عبد الغني صاحب صالون الصحافة، غير أن اللوحة التي وضعت على المحل اكتفت بكلمة " صالون حلاقة " حتى لا يتحرج بقية الناس

على ما يبدو، في حين قال البعض إن للأمر علاقة بموقف بعض الصحفيين مما كان يجرى من صراع في الوطن العربي، وكلام كثير قيل عندما تبارى فريق الأهلي مع إحدى الفرق الشقيقة، وفهم البعض، خطأً، أن التوجه القومي يعنى عدم الحماس للفرق المحلية، أو التساهل في حقوقها ! وكان ذلك من الأخطاء الشائعة التي رافقت بعض المواقف القومية غير المدروسة أو غير الناضجة، أو التي لا تصدر عن رؤية واعية، فكل خيار من الخيارات السياسية وكل انتماء من الانتماءات لا يمكن أن يكون مفيداً وذا جدوى حقيقية ما لم يكن منطلقه الأول من الوطن.

لم أكد أفرغ من هذا التعليق والمجموعة تعيش مرحلة الهمس حتى أمسك الرفيق محمود بناصية الكلام، ليس عن الأسماء التي تشاهد هنا وحسب وإنما ليقرر بطريقته الخاصة، ما لديه من رأى بصدد فنيات عبد الغني في الحلاقة والميزات التي يتميز بها ، وبعض الهفوات التي تنال من عمله، وبجعله أحياناً أقل من نظرائه في المدينة التي يعتبر محمود ابنها بلا منازع بوصفه من سكان أقدم الأحياء، فعبد الغني بمقتضى هذه الرؤية من خارج المدينة فهو من النوفليين، وهى ضواحى المدينة، لأنها خارج السور وحتى بعد أن أزيل السور فالمدينة مدينة والدواخل دواخل، ولهذا كان سكان المدينة يفرقون في توصيف الناس بين من تطلق عليه كلمة ابن مدينة ومن يطلق عليه لقب ابن ناس، وهذه الأخيرة تعنى في التعريف الشخصي المحترم وتعنى ليس من المدينة.

اختلفت الأمور بصدد الحديث الآن، فلم نعرف بالضبط ما إذا كان محمود يريد بما تحدث به الآن أن يدفع نحو مزيد الحديث لتمضية الوقت، أو ذلك نهاية ما يرمى إليه. فأنشأ الكل يتحدث عن حلاقه الذي اعتاد أن يحلق عنده، فتبين أن البعض لا يرتبطون بمكان معين وإنما يطلبون الخدمة ممن يجدونه غير مزدحم، فالانتظار ليس من الأمور المحببة، لتوالى بعد ذلك الحديث عن تجربة قص الشعر منذ النشأة الأولى. عندما كان حلق الشعر يتم بواسطة (موس الحسانة) حين كان أصحاب الخبرة يطلقون على هذه الآلة صفة (الطيبة) فلا يكاد المرء يشعر بمرور شفرة الموس على جلدة الشعر وهى تحصده حصداً مرة في الشهر على الأقل، لأن العملية شرط من شروط النظافة ووقاية من ذلك الكائن الذي ذكره القرآن ضمن جنود الله حين أرسلت مع الطوفان لأولئك الذين لم يقدروا الله حق قدره ولم يحسنوا عبادته وكانت " الموس " من ضمن ما اكتشف الإنسان من الالآت الوقائية التي يمكن الاعتماد عليها في محاربة العدو الأزلي للإنسان (القمل) ، ولم يسمح للأطفال في ذلك الزمن إطلاق شعورهم ولم يفعل ذلك أيضاً الكبار، حين لا مجال للنظافة المحققة ولا وجود لأسبابها بما فيه الكفاية.

كلام كثير جادت به الذاكرة بدءاً من مسقط الرأس وموس سيدي منتصر الذي لا يشعر المرء به أبداً وهو يمرر على الرؤوس خلافاً لغيره من الحلاقين الذين تتحول معهم هذه العملية إلى نوع من العقوبة التي لا مهرب منها ، كل شهر لأى طفل من أطفال الشارع حتى إذا ما

أفلحت الأجيال أن تشب عن الطوق وأن تترك للشعور طريقها للنمو، ويطلق البعض " الكابيلا " وينهض أبوبكر الذي تعلم من سيدي المنتصر المهنة بالموس ليطورها بعد ذلك إلى المقص والمشط ثم "الماكينة" ، ويختفى من الأجيال الجديدة التعامل بالموس وتبدأ رحلة المدينة من شارع الرشيد والعم جمعة أول من نافس الإيطاليين في هذه المهنة فتعلم وعلم وخاض مع عدد من أقرانه معركة شرسة نحو عالم المهنة وعدم الركون إلى الوظيفة العمومية فحسنوا دخولهم وامتلكوا المساكن وبعض المزارع وعلموا أولادهم على نحو جيد ليرثهم جيل أكثر قدرة ومعاصرة من بينهم محمد جمعة الفنان الصامت الذي لم يكتف بمحل واحد وإنما فتح اثنين من المحلات في أهم شوارع المدينة ـ ميزران والوادى،، لتبدأ رحلة ما فات الشباب مع محمد الصغير وغيره في تلك المحال الذين جمعوا بين الحلاقة ومواصلة الدراسة، ولم نكن نحن لهذه الاعتبارات من رواد عبد الغني، لكن عبد الغني هو الذي يحضر الآن ومعه ذلك الحشد الهائل من الذين اعتادوا الجلوس إليه بمن فيهم رئيس النيابة الذي حقق مع بعض الشباب ذات يوم ممن سبقوا ذات يوم نحو المكان وضابط المباحث الذي يبدو عليه التطلع نحو المهنة حتى بعد أن تغيرت الأحوال والعهود حين بلغت الأزمة أوجها قبل سنوات ستة. . 67 تحديداً.

كانت الأحاديث تتوالى والذكريات تنساب والوجوه تتوارد الواحد تلو الآخر وإذا بباب القسم يفتح وصرير الأقفال يعلو من بعيد والمنادى ينادي بالغذاء كاسراً بذلك رهبة الأقفال ووساوس الصمت

والجميع يرددون الكلمة: شعر وينبت

ـ شعر وينبت

كل له طريقته في ترديد الكلمة واستشعار الدلالة ومواجهة الحدث وقراءة ما يمكن أن يأتي من جديد.

* * *

تلاءم الرجال السبعة كما لو كان حين من الدهر قد أتى على وجودهم في المكان أو كانوا كذلك طول عمرهم. سابقوا في تلاؤمهم تعاقب الليل والنهار، هذا التعاقب الذي يبدو الآن ثقيلاً على النفس ثقل الجبال الرواس. قذر كالمرحاض الذي يحتل زاوية من زوايا العنبر، محرجاً بحجم ما يستشعره أي منهم وهو يقضي الحاجة فيسمع الجميع صوت ما يفعل. . لقد استمرءوا ذلك كله بدا وكأنه جزء من حياتهم اليومية. التفوا حول بعضهم البعض. جميعهم يبدون على هيئة جسد واحد، داخل الجدران الأربع، لم يعد هناك ما يفصلهم. لم يعد هناك ما يشغلهم عن واقعهم، فالقدرة التي تمتلكها المحنة على توحيد الأفراد إلى درجة الصهر تتجاوز كل الأواصر الأخرى. المحنة فوق الفوارق، فوق المسافات، فوق العقائد. المحنة فعل يتجاوز بتأثيره كل الأفعال. انتماء يستوعب كل الانتماءات. المحنة مكان بحجم الكون.

لقد انقطعوا عن العالم تماماً، رغم أن الأيام كانت قليلة، لكنهم بإحساسهم بهذا الانقطاع صاروا يتجاوزون الزمن بشهوره وحتى أعوامه. لم يعد هناك من يتصل سوى الشاويش مفتاح الذي يقوم

بتفقدهم عند الصباح وقبل النوم وربما زاد على ذلك عسى أن يكون العدد قد زاد في أي عنبر من العنابر وهو يمسك بكل المفاتيح في يده، يحرص على أن يزودهم بالمقرر من المؤن والاحتياجات اليومية، لكنه لا يتردد في لفت نظر كل من يلحظ عليه شيئاً من الارتخاء أو حتى بوادر الحرص في إبداء بعض التعليقات السخيفة، تلك التي لا يقتضيها المقام ولا تسوغها الأريحية لو وجدت، أشد ما يؤلم هذا الرجل أن يرى أحد الموجودين يبتسم لصاحبه أو أن يكون من ذلك النوع الذي اعتاد أن يبتسم مع كلامه، أو تكون حركة شفاهة بهذه الكيفية، فلا يملك إلا أن يسأل ذات اللحظة سؤاله المعتاد والمحرج أيضاً:

ـ على من تضحك. . شن يضحك فيك.

والإجابة لابد أن تكون صعبة، فكيف يمكن لمن تحويه مثل هذه الجدران أن يفصح عن سبب ضحكه أو يبرره، كيف يمكن التصريح بسبب من الأكيد أنه لا يسر السامع ولا يرضيه، أو أنه يقصد عن فهمه وإدراك أهدافه ومراميه البعيدة. . ولهذا لا يملك الرجل إلا أن يتميز غيظاً. وينفس عن كربته بأى حركة غير طيبة، لكن الصلاحيات فيما يبدو ضيقة، فلا شئ يهون على النفس المستفزة ويخفف من غيظ الرجل المتوتر سوى رفع صوت المذياع وهو يعيد بشكل متوال بعض الأناشيد المحرضة على الشدة والداعية إلى القوة ورفض كلٍ سبيل يؤدى إلى الشفقة وما في حكمها.

"دوس على الرجعي والخائن اللي ما عنده مبادي"

ومن أين للمرء أن يفلت من هذه التقسيمات الكفيلة بتبرير أي إجراء يتخذ: فأضعف الإيمان أن الإدانة يمكن أن تأتي لعدم وجود المبدأ. هذا النموذج يختلف عن جميع الذين يبادلونه مسؤولية التفقد وفتح الأبواب. ..المنزك الذي يضع على ذراعه شريطاً واحداً، يبدو دائماً شديد الحياء مشرق المحيا، توحي سمنته الظاهرة بخفة الدم وابتسامته غير المصطنعة بنزعة الخير، لا يقول كلمة سيئة على الإطلاق، فإذا ما لاحظ ما يدعو للحزم فلا يزيد على كلمة واحدة (صلوا ع النبي) ويمضي بعد ذلك في سبيله وأداء مهمته التي لا يزيد عليها، ولا يسيء بواسطتها.

لا يقل عن هذا نموذج آخر، أسود البشرة حتى الاحتراق، يشكل بياض أسنانه لمعاناً خاصاً، تجعله حركته الخفيفة أقرب إلى فرق الكرة أو الفنون الشعبية منه إلى الحراسة، يذكر من لديه خبرة عن هذا الوسط بنجوم الوحدة في ميزران والمدينة القديمة، هو "سليل أبو هريده" وباب البحر، فيبدو واضح التعاطف مع الذين يعرفهم من هناك، لكنه في الحقيقة يبدى للجميع ما يريحهم، ولا يحول بينه وبين هذه الفضيلة سوى ما لديه من تعليمات تحفز عادة كل من يجري جلبه إلى هنا ، فطبيعة العمل بالحراسة تحضر الحديث مع أي كان، هو لا يقول ذلك صراحة، لكن تصرفاته حين ترصد تؤكد هذه الحقيقة، وربما همس بذلك لمن يثق به من الذين عرف الأحياء التي ينحدرون منها.

على حين يبدو جمعة الذي ارتبط اسمه ببعض الإجراءات

الاستثنائية في الأيام الأولى، شخصية ذات دراية بجميع الأسماء المعروفة، وعلى مقدرة في التفريق بين تنفيذ التعليمات التي يكلف بها مؤقتاً والواجب المنوط به على نحو مستمر، فتراه يبادر بتوجيه حديثه أثناء أداء واجباته التفقدية حين يكلف بها منادياً بما يشير إلى نوع من الخصوصية: أنت الأديب، أنت الصحفي. . أنت أخ فلان الخ فتظهر وفقاً لذلك مقدرته وإلمامه ببعض المعلومات التي تثير الأسئلة. أو التي من تدفقها بالأصح.

لوحظ من البداية أنه لا يضع على كتفه أو ذراعه ما يدل على رتبته ولكنه شديد القيافة، يشير بمظهره إلى نوع من المكانة أو القرب من بعض الأطراف النافذة، كما تومىء بعض تصرفاته إلى أن ما يجري ليس هو الأمر الدائم، والمهم أن الشخص يبدو ومن كل النواحي أنه ليس مثل البقية وربما لهذا الغرض لا يجيء إلا نادراً، وحين يراد بعث شئ من المشاعر لدى الموجودين سلباً أو إيجاباً ، فهو الذي يتقدم المجموعة.

لمجرد أن شرعت المجموعة في تبادل الرأي وبدأت مهمة الرصد المتبادل وهي مهمة تحلو كثيراً في مثل هذه الظروف أجمع الكل على أن جمعة هذا شخصية غير عادية، وقد رجح أكثر من طرف أن للأمر علاقة بالمحيط القبلي الذي ينحدر منه، كل ذلك مع عدم التقليل من المقومات الشخصية للشاب، فالرجل لا يسعى لاختراق الحجب واقتحام الشخصيات مجتمعة رغم طبيعة المهمة التي لا يروق للناس ولا يقبلون بها، لكنه على ما يبدو كان ينظر للعملية في

إطارها العسكري وربما الواجب الاجتماعي الأكبر، والمجموعة على كل حال تحت إمرة الانضباط . فهم يعتبرون وفقاً لهذه القاعدة في حكم العسكريين المذنبين، فلا حرج والحالة هذه من تعرضهم لما يتعرض له غيرهم حين يكون الحال، ومن تطبق عليه الإجراءات العسكرية يعتبر حسب هذا الفهم شرفاً ، وإن تبادر إلى الذهن أنه أهين، وكل ما يأتي من هذه الجهة هدفه إصلاح الشخصية وتقويمها، هي جهة تقسم إجراءاتها بالحزم الشديد: قسوة في الحديث، شدة في المعاملة، سرعة في الحركة، صرامة في التوجيهات. . إلى جانب ذلك حرص على توفير كل الاحتياجات المادية من أكل وشرب وغطاء وتدفئة، بمعنى أن كل من يكون لدى هذه الجهة فلن يشكو من عوز في جميع الاحتياجات ، بيد أنه لن يسلم من القسوة، بل من الممكن أن يتعرض لها بكل اليسر، ودون أن يكون له أي حق في الاحتجاج، والهدف هو أن يتحقق لهذه الشخصية ما يراد لها من سلامة البنية واستقامة السلوك و الوصول إلى أعلى درجات الكمال حسب القدرات الموضوعة لهذا الكمال.

على ذلك فمن غير المعقول أن يتوقف أحد أمام الحالات الاستثنائية ومن بينها هذه الحالة التي جعلت مجموعة مختلفة في البنية والأعمار والاهتمامات فضلاً عن المسؤولية، توضع تحت إمرة هذا الجهاز الذي يفترض أن يكون مختصاً بالعسكريين دون سواهم من فصائل المجتمع، فإذا به يقحم أمام هذه المهنة التي لا يشك أحد في أن هناك من يستثقلها أو على الأقل لا يرحب بها الترحيب الذي

قد يتصوره البعض: ذلك أن كل الإجراءات التأديبية المعروفة والمستساغة لدى هذه الجهات أيضاً ، من الصعب أن تكون مقبولة أو سهلة على كل من يكلف لتنفيذها ولا سيما حين يكون المعرضون لها من هم في حكم الآباء الكبار والرموز مما جعل الأغلبية تستشعر المرارة حتى الحلقوم وتتذوق طعم الألم حتى العظم حين لم تجد ما يبرر بعض الممارسات المتسرعة التي لم يكن ثمة من داع لها ولا مردود يمكن أن يعود منها على أي كان.

* * *

من عادة الذين ترمى بهم الأقدار نحو هذه العوالم، ويقاسون محنتها القاتلة أن يحللوا جميع الحركات والسكنات، وأن يتوسعوا في صنيعهم هذا بشكل يفوق الواقع حتى ليخرج عن حدود المعقول، فكل حركة قابلة للتحليل وكل كلمة، ولو من أقل الناس ، تعتبر ذات علاقة بقضيتهم، كل خبر في الإذاعة يعنيهم كل حديث يقال إنما هو من أجل تجربتهم، كل تصريح يقول به مسؤول من المسؤولين هو بالضرورة يتصل بهم ـ مشكلتهم تفوق مشاكل كل الناس جميعاً، وقضيتهم تتقدم كل القضايا، حتى ابتسامة الحرس والتى هى في الغالب حالة فردية وتعرف عنوه تفرضه حالة صاحبها، حتى هذه الابتسامة يحرص ضحايا الأقدار على ربطها بالموقف العام، وكذلك يفعلون حين تختفى هذه الابتسامة أو تنقص لسبب أو آخر، فكل المعاملات هنا ليست شخصية، ولكنها تعبير عن سياسة عامة، وموقف اتخذ وسيتخذ بصدد القضايا الأساسية المتعلقة بالبقاء

والخروج والموجودون حسب هذا التصور هم محور الكون ومحل اهتمام السلطة وشاغلها الشاغل، ولا شئ يحدث إلا وله علاقة بأمر الموجودين ! تلك هى خلاصة التفكير وجوهر المسألة لكل من نفسه وتصطلك وراءه الزرو.

إن السؤال الأساسي بطبيعة الحال هو ذلك المتصل بالمدة التي يمكن أن تستغرقها القضية، وكم من الوقت ستأخذ، طولاً أو قصراً ؟ وقد اختلفت التقديرات وتضاربت كل له رأيه وتصوره إزاء المدة، لكن ذلك في الحقيقة إن كان انعكاساً لواقع الحال ، فمن تحرك ذات يوم في إتجاه العمل التنظيمي وقامت علاقاته مع الآخرين على نحو تراتبي، بنى على الأسرة أو الخلية أو ما إلى ذلك من التسميات فإن تخوفه أكثر من غيره ، وتقديره للمدة ينصرف نحو المدى الزمني غير القصير، ومن كان بعيداً عن مثل هذه الممارسات ولم يعرف طيلة حياته سوى النشاط الفكري والهواية الأدبية وعلى الأكثر العمل النقابي أو النشاط الاجتماعي فقد كان توقعه يميل إلى المدة القصيرة، فالأشخاص حسب هذه القراءة يمثلون الرمز وليس الهدف أو الغاية.

وقد رجح لأكثر من سبب الرأى القائل بأن البقاء لن يطول كثيراً. وفى مقدمة هذه الأسباب أن الأغلبية ليست من ذوى النشاط الملموس وأن السلطة بوصفها مدنية وذات توجه وطني من المستبعد أن تأخذ بالخيار الآخر فهى لم تعمد إلى إلصاق التهم جزافاً. وقد لا تلجأ إلى التعسف المقصود في الإجراءات النهائية حتى وإن اضطر بعض أطرافها إلى مثل هذا التوجه في البداية ، ومع بعض العناصر

تحديداً، بيد أن البعض كانوا يصرون على الموقف المخالف. والحجة في ذلك أن المنطق غير موجود في معظم المعالجات، إن لم يكن كلها وكان من الصعب على من يرى غير هذا الرأي أن يرفع صوته، إذ لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يقول المرء لمن يتساكنون معه، ويقاسمونه الحلو والمر أن هناك مبرراً بصدد البعض، والعكس تماماً بصدد البعض الآخر، فما كل حقيقة تقال وما كل وجه نظر موضوعية يجوز الجهر بها في لحظة من اللحظات. ومن الممكن القول أن عدم الخوض في التفاصيل كان الخيار الأجدى، كما أن تجنب الخلاف والبعد عن الإثارة والاصطدام من أهم ما ينبغى الحرص عليه، ذلك أن التعرف النهائي في القضية لن يخضع لآراء الموجودين، ولكنه قرار يملكه ذوو الشأن، وهو رهن تقديراتهم ومصالحهم وظروفهم أيضاً.

وعلى ذات التقدير صار من الضرورى تفادى الاصطدام مع المكلفين بالحراسة وتجنب استفزازهم بأى حركة من الحركات بقصد أو بدون قصد، فهم مكلفون بمهمة ليست موضع رضا بالكامل وفى أحيان كثيرة قد تكون موضع تجاوز ومبعث استياء، لابد أن يكونوا دائمي التواتر، متحفزين لسوء الظن وسوء التقدير، ميالين إلى الشك في كل حركة أو إشارة، فكلما ساء الفعل ساءت الظنون، وصار الطريق سالكاً نحو أوهام والتخلي عن المحبين والوقوف منهم بمقولات الأعداء أو الخصوم، فالشك هو الذي يطبع حالات كل من يرتكب الفعل السيء، الشك في أعلى مراحله يتحول إلى ليل مظلم يملأ الحياة بالنسبة لكل من يقدم على الإساءة، وهو توأم النفس

البشرية منذ الأزل، وهي تخوض تجربة الخطأ والصواب، وتجنح في أحيان كثيرة إلى سوء الفعل، فتقع بالضرورة في دائرة سوء الظن.

قد تكون هذه النفس لإنسان مؤثر في الحياة، وصاحب وجود ظاهر في عالمها الكبير. وقد تكون نفس إنسان لا يتجاوز مسؤولية حراسة المكان، كما هو الحال هنا، لكن يظل قادراً على فعل أشياء كثيرة وارتكاب أخطاء قد يتعذر وقفها، ويستحيل كذلك تعويضها في المستقبل، فلا شئ أدعى إلى تفادى المواقف السيئة والضربات العشوائية، وخليقة التطوع بالإساءة لدى بعض النفوس الصغيرة والعقليات البسيطة مثل الحذر من الاصطدام بهؤلاء الحراس والحذر من استفزازهم وإثارة غضبهم ما داموا أصحاب التصرف، وما دامت مرجعيتهم هذا المذياع الذي لم يتوقف بعد عن إذاعة كل ما يزيد التوتر، وزيادة المعركة المفتعلة، والجريمة المصطنعة التي من خلال هذا الصوت المتكلف واللهجة المنفرة عبر البرامج الإذاعية المكررة، وهى ثابتة ثبوت الأبواب الموصدة والأقفال الكبيرة، مخيفة كالأسلاك الشائكة التي تطل على شوشة كل حائط من الحيطان المتتالية والمعنة في الطول والحرس يعلونها بأسلحتهم المدججة.

الحكمة كل الحكمة في تفادي الضربة من أي جهة، في تجنب الإساءة المجانية، في الحذر من شخصية المتبرع بسىء الفعل، المندفع خلف الحكم المسبق، والإدانة الجاهزة، فالظرف الآن ظرف مؤقت وأفعال كثيرة غير طبيعية يستطيع كل من يستهويه التجاوز أن يمارسها دون أن يجد من يصده عنها أو حتى يلومه عليها. فكل ما يقال من ذلك الجهاز

الذي يسمونه المذياع في غير صالح الموجودين، وليس من المستبعد ان تكون الشاشة الصغيرة التي بدأت تنشط في احتفالات المولد مباشرة تقوم هى الأخرى بمهمتها في الخصوص، فالذين يتكلمون من المذياع هم الذين يتكلمون في تلك الشاشة. وقد يكون من الحظ الحسن أن هذه الشاشة ليست موجودة، فيكفى الآن ما يأتي إلى الأذن ما بالك ما قد تراه العين، فقد حمل الموجودون ما لم يفعلوا أكثر مما فعلوا، فليكن الحذر من الضحك في مقدمة ما ينبغى التحلي به، والضحك بلا معنى سفاهة كما يقول القدامى. الضحك دليل عدم الجدية، دليل السخرية من الموجود أو الفرح به، فلا داعي لإظهار أي من الحالتين، ليتأجل هذا الضحك بكل القوة والحزم، وما دام الحاضر غير باعث على المسرة فلا داعي أن يلوح ما قد يفهم أنه السخرية، فالقلق على ما يبدو مشترك بيننا وبينهم هؤلاء الحراس. والأعصاب لا شك أنها مشدودة وليس بالضرورة أن يكون من يكلف بمهمة ما أو إجراء ما أسعد حالاً ممن سيقع عليه ذلك الإجراء، وللخجل - عند الحر - وقع على النفس قد لا يقل عن وقع الفعل ذاته.

غير أن التضخيم الإعلامي من الناحية الموضوعية الصرفة، بات يستوجب توفر المدى الزمني المناسب بالنسبة لحجم التصعيد، فقد ارتفعت الضجة الإعلامية حتى لقد بدا ما حدث وكأنه مؤامرة فعلية، ولما كانت مستويات التآمر توجب المدى الزمني المناسب بالنسبة للفترة التي يمكن بعدها البدء في المعالجة، سواء كانت هذه المعالجة قانونية أو غير قانونية، لاح أن ذلك لن يكون قريبا فالنظرة لابد أن تكون سياسية والمستهدف لابد أن يكون جامعاً بين القانوني

والسياسي والأمني، حتى وإن قيل إن القوانين قد اعتبرت في حكم المعطلة، فحدث سياسي بهذا الحجم الذي صوره النشاط الإعلامي لابد أن يكون ثمة مستهدف من ورائه، وهذا المستهدف لا مناص أن يكون متصلاً بحركة المجتمع في عمومه، فهو والحالة هذه يحتاج إلى شئ من الوقت لا يمكن أن يكون مقتصراً على أيام محدودة أو حتى أسابيع ولا مناص بالتالى من أن يفيض شيئاً من الطول، هكذا قدر الأمر أحد الزملاء، وكان التقدير في محله، ولكن بسبب أو آخر لم نقره على ذلك بل غدونا نقدر بما هو أقل، والنظرة بطبيعة الحال لابد أن تختلف كل حسب خلفيته وحسب ممارسته الحياتية، غير أن السؤال الأكبر ظل منصرفاً حول ما إذا كان النظر سيكون شاملاً أم مجزءاً.

* * *

ما رأيكم في أن يروى كل منا قصة حياته ؟

ذلك هو السؤال الذي خطر لبريون أن يطرحه، والصمت المطبق يلف المكان، والرجال السبعة داخل العنبر " تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى " وشيء من الانهيار بدأت علاماته تظهر والحيرة غول يفترس الجميع، وإذ لا مهرب من القبول بأى شىء، فقد بادر بنفسه، وشرع يتحدث عن رحلته إلى مصر، لطلب العلم بالطبع، وهى رحلة لم يكن التوفيق حليفه فيها، ربما لأسباب كانت خارجة عن إرادته، وربما لأنه قد أفلح في روايتها وبالطريقة التي جعلتها كذلك، والمهم أنه لم يبق بعد أن قيض له أن يحل بها، فقفل عائداً وليس بيده أي شهادة

من الشهادات، كما فعل معظم الذين ذهبوا في ذلك الزمان ولم ينل من ثمة أي درجة من الدرجات العلمية، إلا أنه من ناحية أخرى خاض تجربة الكتابة الأدبية في أواخر الخمسينيات وبداية الستينات، وعبر عن موهبة ملموسة كان من الممكن أن تحقق الكثير لو واصل مرانه، واستمر في مسيرته وقد اتضح ما تحقق له من الفهم عند اشتراكه في بعض المناقشات الأدبية مما جعل عبد القادر يرد عليه في ذلك الزمن بعنف شديد، إنه استكثر عليه المشاركة بالكيفية التي تحدث بها، فقد كان ينتظر منه الوقوف إلى جانبه، وإذا لم يفعل ذلك لم يجد غضاضة في التحامل عليه، ومقابلته بكلام مجاف للياقة وطبيعة الحوار. وكانت هذه من سلبيات عبد القادر.

أفلح بريون في دفع الشيخ المعلول للإدلاء بدلوه، فبدا قادراً على التشويق ـ أعترف بميلي لمحمود ـ وهو يتحدث عن تجربة المعيشة وهى التجربة التي أدت به إلى فقد يده اليمنى في حادث انفجار بعض مخلفات العدو عشية احتياج أسرته إلى الارتزاق من هذه المخلفات، ضمن احتياجات الكثير من الأسر الليبية التي لم تجد ما تقتات به فكان اللجوء إلى هذه المخلفات، وكانت الحوادث المفجعة التي تعرض لها عدد من الناس كهذا الذي أصاب المعلول وجعله عاجزاً بشكل ما وفى حاجة إلى أن يلتمس طريقاً للتعيش رأى أن يكون عن طريق العلم، والأزهر بطبيعة الحال هو الملاذ لما يوفره ليس فقط من سبل التعليم بل وإمكانية المعيشة لفترة من الزمن تطول أو تقصر حسب الأحوال.

أعـاد شـرط القـبول الـذي طالمـا سمعـته مـن الوالـد مـنذ مطلـع العمر، والمتمثل في ضرورة حفظ ربع القرآن على الأقل، فأكد أنه قد بذل جهداً لتحقيق هذا الشرط فلم يستطع، فاحتاج إلى المساندة، ولأن عاهته ظاهرة فلم يواجه شيخ الرواق صعوبة تذكر لتسهيل المهمة عندما وصل إلى هناك عقب رحلة دامت فترة طويلة واكتنفتها مصاعب جمة قبل أن يلج باب الأزهر ويقيم بالرواق الخاص بالليبيين حين كانوا ينعتون في تلك الديار بالمغاربة.

كان الزمن هو فجر الاستقلال، ومصر ما زالت تسعى لمساعدة الطلبة الليبيين رغم أن السلطة الوطنية صارت مطالبة بالاضطلاع بهذه المهمة، كما أن سلطة الطلبة المعنوية غدت تفرض على الدولة الوليدة أن توفر لهؤلاء الطلبة كل أو بعض ما يريدون، وهي مطالب لا تتعدى المنح المالية المتواضعة وفرص العمل المتواضعة عند التخرج.

وإذا كانت الصعوبات المالية تجعل الأولى تحتاج إلى شئ من التدبير، فإن المطلب الثاني كان غاية في اليسر نظراً لحاجة البلاد إلى العناصر القادرة في جميع المجالات، سواء التدريس أو الوظائف الأخرى.

وقد كان اختصاص المعلول الذي تاهل فيه متمثلاً في النحو العربي والنحو من العلوم العربية المحترمة، لكن الرجل لا يرى الأمر كذلك، فقد كانت مفاجأة لافتة وهو يقول، في شئ من الحزم الظاهر، واليقين المبرأ من المجاملة حكماً صريحاً يتصل بمحدودية اختصاصه وهو يغمز بطرف لسانه شبه ساخر:

أصدقك القول أننى لم أستفد مما قرأت، تبحرت في النحو وفى اللغة، لا أخطىء في النطق ولا أجهل الصرف وأجيب عن معظم الأسئلة لكن ما الفائدة، بالنهاية أجد نفسي مجرد كتاب أو كتب مكررة، أما الذين اختاروا طريق الأدب أمثالكم، عن دراسة أو هواية، وسلكتم طريق الكتابة لا شك أنه أفضل أو أكثر جدوى، يمكنكم أن تجدوا بكل اليسر من قرأ لكم مقالاً في صحيفة، وقد تطبعون ما كتبتم في كتب مستقلة، أما نحن فماذا يمكن أن نحني ؟

في أحسن الفروض يمكن أن نطبع كتب المنهج وهذه قد تتغير وهى إن بقيت فلا يمكن أن تعتبر عملاً جديداً.

كان الرجل بالغ الحجة استطاع أن يلخص الواقع ويجسده خير تجسيد، لكن المفاجأة تكمن في الاعتراف، إذ من عادة الشيوخ أن يتعصبوا لما اختاروا وأن يفتخروا بما حققوا، أما المعلول فقد صور أزمة أمثاله على أحسن الوجوه. لا يعنى ذلك بالطبع التقليل من النحو وجدواه في رحلة العلم ، ولا ينفي كذلك ما تتوفر عليه من العشق له والإجلال أيضاً ، لكن الذي لا شك فيه أن الاختصاص في مثل هذا العلم يندر أن يحقق لصاحبه أي إضافة، فطريق الكتابة حقاً أوفر للبقاء في تجربة الحياة العملية، أو الإبداعية بالأصح، ولعله يحيلنا إلى ذلك القول المنسوب إلى الأستاذ العقاد في معرض مقارنته بين كتاباته النقدية وأشعار مجايليه ممن لم يرض عن أعمالهم، حين قال في هذا الصدد : " لن يقام تمثال لناقد".

ولا شك أن المعلول محق في استشعار الأزمة التي عاشها، فعلى الرغم من تطوره في مجال الوظيفة التي شغلها بحكم الاختصاص ابتداء من مدرس فموجه في مجال النحو إلا أنه لم يظفر بأى حضور في مجال العطاء، ولا يعدو مجمل ما لديه مجرد معلومات استظهرت وقواعد درست، ولن يتجاوز الجهد في أقصى مراحله إعادة إنتاجها لمراحل التعليم المختلفة حسب الأحوال، وبمقتضى النفوذ عند واضعي المناهج ومعدليها، الأمر الذي يختلف كل الاختلاف مع الذين يكتبون النص الأدبي أولئك الذين يستمر حضورهم من خلال المحفوظات ومختارات المطالعة وما إليها، سواء في مراحل التعليم الأساس أو الثانوي، بل والجامعي أيضاً بالنسبة لبعض الأسماء.

ينطوي الرجل على قدر ملحوظ من المناكفة، الأمر الذي يقلل من الإشعاع وينقص الفعالية مما وفر الإحساس بأن الزج به في مثل هذه التجربة إنما هو من بقايا تصفية الحسابات وليس إلى أي شكل من أشكال المساهمة، ما يدفع إلى مثل هذا الشعور حوله أكثر فأكثر، ما كان يشوب أحاديثه من جنوح ظاهر / العادي بل وحتى الضعيف من المواقف.

حين أمضيت في تصحيح بعض المعلومات له إزاء عدد من الأسماء المعروفة بحضورها في المجتمع، تلك التي التقاها في مرحلة من مراحل العمر، وفى زمن التعليم بالذات، وقد صار لا يقتصد في إدانة خياراتها السياسية ومواقفها الثقافية في شئ من عدم الدقة في الحكم والتبرع بالمعلومة ، وقد فوجىء بما توفر من معلومات مخالفة لما تحدث

به، فلم يجد غضاضة في القول وهو يمزح بين الجد والهزل.

- مش أحسن كان خلوك غادي بدل ما يجيبوك هنا.

كان القصد واضحاً والضيق ظاهراً أيضاً فهو يريد لمعلوماته أن تقبل ولآرائه أن تسود، ولم يكن ثمة بد من القبول بما ذهب إليه، فذلك هو غاية ما لديه من وما يكون له إلا أن يظل هكذا. إذ لم يقدر له ولا أمثاله أيضاً أن يتمعنوا دلالة الشرط الذي وصفه الأزهر ذات يوم والمتمثل في حفظ ربع القرآن الكريم لولوج أبوابه وقد عمل به أكثر من عنصر وعاد بعد ذلك يحمل شهادة من الشهادات كما فعل هذا الرجل، فإذا بالحوار المعمق الذي وفره المكان يفصح عن أن الرجل وربما غيره أيضاً لم يتوصلوا إلى المعنى البعيد رغم أنهم قد خرجوا بشهادات معتبرة، وتبوأوا في سلك التعليم مواقع مرموقة فصار ضرورياً أن تطرح الصورة على نحو أكثر عمقاً وأدنى من الدلالة التي ظهرت من خلال المراجعة للنص الكريم ذاته.

لقد تبين من خلال المراجعة للأجزاء الثابتة التي هى مجمل الجزء الأدنى من القرآن ويطلق عليها ربع (يس) أن هذا الربع يحوي جملة من الأمور شبه الشاملة لكل من يستظهر هذه الآيات ويدرك بعد ذلك معانيها ، بدءاً من فلسفة التوحيد ومأساة العمر وقصص الأنبياء والى موقف كفار قريش من الدعوة المحمدية إلى ما حصل بين المهاجرين والأنصار على نحو ما جاء في السور المدنية من حيث الحقوق وازدواجية الموقف. وكلها مفصلة في كتب أسباب النزول،

استطاع أن يرويها بثبات الشيخ العكاري وهو يعيد أجزاء من سيرته الذاتية، كإنسان تجرع مرارة اليتم وعاش ظروف الحاجة، ومع ذلك أصر على مواصلة التحصيل معتمداً في البداية على والدته التي عهدت به إلى الفقهاء والشيوخ ليتلقى تعليمه ويواصل مسيرته، حين كانت الأوقاف الأهلية هى الملاذ الذي يشد أزر هذا النوع من الناس بحيث استطاع أن يشق طريقه قبل إن تتكون للتعليم الديني هيئة خاصة به وإمكانيات مالية محددة له.

كان اللقاء في حقيقته وبالرغم من قسوة التجربة وثقلها على النفس والقلق من المصير يمثل ندوة مستمرة قوامها الحوار الموسع حول العديد من الأمور المتعلقة بالدين والدنيا بعيداً عن المكان والزمان لأولئك الذين ضمهم القدر وتعين أن يستفيدوا من الوقت وأن يتبادلوا ما لديهم من الخبرة والمعلومة وشد أزرهم بالحكمة والصبر بعيداً عن الشكوى والأنين الذي كاد ان يسيطر أو يدفع البعض إلى الحديث لمن لا يملك شيئاً مثل المكلفين بالحراسة ولا دور لهم سوى هذه المهمة. كان البعض يصرون على معايشة الحالة الراهنة وعدم التفكير فيما عدا ذلك ، فللآخرين رب يحميهم ويتكفل بهم، وللموجود هنا عزمه وثقته بنفسه والحقائق الموجودة أمامه.

استراحت النفس لهذا التحليل، فكان لابد أن يثب السؤال حول حلم الليلة الماضية، الذي تهيأ فيه من طلب التوجه إلى المستشفى ورؤية كوثر التي ذهبت لتضع وليدها هناك، وتم التوجه مع من طلب ذلك، فبدا الأمر نوعاً من أفعال الحسن وعلامة من علامات

احتمال الانفراج، كل ذلك دون مشاكسة النفس بالمنطق الآخر الذي يجسده عادة المثل الشعبي المعروف: " اللى في عقل البايرة تحلم بيه".

إنه المنطق الذي يعتبر الأحلام جزءاً من الترجمة لما تتمناه النفس في حالة اليقظة، أو كما تقول الدراسات النفسية في ذات السياق، من حيث العلاقة بين الرؤيا وما يمور داخل النفس من رغبات، وسواء كانت الرؤيا صادقة أو غير صادقة فهى أدعى إلى الترويح على النفس وإثارة مشاعر الطمأنينة.

* * *

كل شئ كان ممعناً في الرتابة باعثاً على التفكير في البعيد، والفرقة المكلفة بتوزيع الغذاء قد فرغت لتوها من بعيد، عندما سمعت حركة غير عادية، بدأت من أول القسم لتصل في النهاية إلى العنبر الذي فتح فجأة، ليدخل أربعة رجال على الأكثر يتقدمهم وزير الداخلية، ليقف آخر المرافقين عبدالله الذي سبق أن استلم المجموعة هناك، وذلك قبل أن يحال الأمر إلى المبروك الموجود بين الذين حضروا وكذلك القمودى الذي لا يعرف أحد له رتبة، وإن كان هناك من يدعوه بالملازم.

لم يكن لهذه الزيارة من هدف يتجاوز تهدئة النفوس على ما يبدو، وربما كانت ردًّا على ما تناقلته بعض الألسن من التجاوز، كان الزائر في عجلة من أمره، إذ يبدو أنه قد بدأ مهمته متأخراً، إلا أنه كان متمهلاً بالنسبة لحديثه مع البعض.

قبل أن يوجه أي كلمة طلب من المجموعة أن يتولى كل شخص التعريف بنفسه عند السلام ومن ثم يمكن لكل من يريد أن يقول ما لديه أن يقول، فلاذ حماد بالصمت وكذلك فعل الغالي، وثمة من أخذ يتحدث عن أوضاعه العائلية، وما يمكن أن يطال الأسر من مشاكل والكلام بطبيعة الحال مفيد وفى صلب الموضوع، إلا أن الوقت ربما يكون مبكراً نسبياً.

لم يكن هناك ما يبرر عدم الرد على أسئلة الرجل وهو يوجه حديثه بالاسم وفى لهجة لا تخلو من المرح، لكن الرد كان مركزاً وفى أقصر ما يمكن من الجمل، في البدء كان السؤال تعميمياً فجاء الرد على ذات الوتيرة.

- أحاديث أدبية وتعليقات لابد أنها محفوظة في الأشرطة وعندما تكرر السؤال مرة أخرى وفى لهجة شعبية مرفوقة بالابتسامة.

- حزيب - تلخبيط الخ .

- هناك مقهى نجلس بها وتعرفونها.

عندئذ بادر الرجل بمد يده مصافحاً مضيفاً كلمة (ربي يستر) وعبدالله يرصد ما يجرى في عناية، ويتابع الأسماء من أوراق موجودة لديه سلفاً.

كان أول الذين التقيتهم في بداية العهد، حين كانت الإذاعة مركز الانطلاق وقد تولى مهمة التعريف يومئذ محمد التركي الذي

كـان يشغل وظيفة كـبير المذيعين. وقـد شـهد قـبل ذلـك مـا حصـل مـن مضـايقات وحـرص دائمـاً عـلى إبـداء عواطفـه الجمـيلة. ولهـذا بـادر بالـتعريف مـن الـبداية وحـرص على أن يـتولى الـتقديم. وكـان أول مـا أمكـن الخـروج بـه ذلك الحـرص على ارتـداء الـبدلة العسكرية والرتـبة المتكونة مـن ثلاثة نجوم، إذ لم تتقرر الترقية العامة بعد ذلك لفترة. وقد لوحـظ عـلى النقيـب تخوفـه الشـديد مـن أي شـبهة سياسـية، إذ حـين تمـت الإجابة على أسئلته حول أسباب المضايقة أن التهمة انصرفت إلى الحزبـية، فـلم يملـك إلا أن يسـأل بانفعـال شـديد : وهـل صـحيح هنـاك نشـاط حـزبي ؟ فـتعذر الـرد بتفاصيل أخـرى لكـن العـبارات لم تكـن تشـجع على الخـوض فـي أي حديـث أو السعي لأى علاقـة. وقـد حصـل نفـس الشـيء عـند مـروره عـلى المطـبوعات فـي إطـار مـتابعة المرافق العـامة وهـى مـتابعة بـدت شبه مصطنعة والحديث فيهـا أيضـاً أقـل جديـة. فهـى إلى التسلية أقـرب مـنها إلى العمـل الحقـيقي. ومـن المفارقـات أن التركى الـذي حضـر أول لقـاء حضـر أيضـاً عند المرور على المطبوعات لأنهـا المكـان الـذي بدأ منه رحلته الإعلامية ، وذلك بعد أن خـرج هـو الآخـر مـن الإذاعـة بطـريقة لم يسـترح لهـا هـو ولا غـيره مـن مـتابعي النشـاط الثقافي والإعلامي، فأراد أن يعبر عن بعض ما يجيش فـي نفسه من مشاعر الإحباط ولكن دون جدوى لأن المسألة الإعلامية محسومة ولا مجـال للحديـث عـنها أو التصرفـ حولها إلا لجهة واحدة، اعتبرت النشـاط الإعلامي جـزءاً لا يـتجزأ من الشأن السياسـي المحـاط بعنـاية خـاصة.

كان الموقف العام من العناصر المعروفة قد اتخذ منذ زمن بعيد، وما يجرى الآن هو من قبيل الشكليات لا أكثر ولا أقل، غير أن النفس لا تعرف الاستقرار في أحكامها والظروف الصعبة دائماً تبعث الأمل في أي شئ ، فمن يجد نفسه غارقاً في البحر يمكن أن يعلق أمل النجاة على القشة الطافية فوق الماء. وهذا اللقاء أيضاً ربما يكون قشة من القشات ومع ذلك فلا مندوحة من المتابعة والمشاركة والانتظار.

معظم الموجودين يضيقون ذرعاً بكل نقاش يقوم على الموضوعية، وعلى الأخص فيما يتعلق بالإجراءات التي أدت إلى الوضعية الراهنة، فتراهم يرفضون كل رأى يؤدى إلى تبرير أي تصرف وإن كان الدافع ليس كذلك، ومع أن الفارق الأساسي بين ما يفعل وما لا يفعل هو الوقوف من الأشياء وفقاً لما توفر المعطيات وليس العاطفة المتأججة التي كثيراً ما تزين للنفس في ساعات المحنة كل ما هو غاية في السوء وتدفع إلى القبول بكل ما هو ممعن في الأخطاء، غير أن بعض العناصر الشابة ليست كذلك بل تبدو مناقضة للعناصر المخضرمة التي كثيراً ما تجنح إلى الريبة والظهور بأكثر من مظهر وبالذات حين يكون الأمر متصلاً بالنواحى الدينية فهذه تميل إلى تخطئة الخصم واعتباره في حكم المارق عن المعتقد فلا تجد غضاضة الغيبة واستبعاد الصدقية، إذ تفترض ذلك من الأساس في حين تأخذ العناصر الشابة بالبعد عن المماحكة وافتراض حسن النية في الآخرين ما لم يثبت العكس.

أقرب الشواهد على ذلك ما جرى من حوار مع الغالى حول ما

أشيع منذ سنوات روج له البعض عن تأطير سياسي محدد اعتبر عبدالله رأسه الأول وأن هذه المهمة قد أنيطت بغيره عندما هاجر في أواخر الستينات، فقد تنامى هذا الزعم إلى عدد من الشباب من بينهم الغالي، وإذ أكد أن هذا الأمر محض افتراء ما كان منه إلا ان التوضيح ولم يتطلب الأمر أي جهد ولم يعهد إلى المزج بين الجد والهزل كما يفعل بعض المخضرمين، بل أخذ الأمر مأخذ الجد وتبنى ما وضح له ولم يزد على أن قال : " انا مصدق ما تقول لأنني أفترض الصدق لدى جميع الناس.

كان يومئذ حديث التخرج من معهد الهندسة التطبيقية، ولم يكمل بعد سنوات الخبرة المطلوبة، بيد أنه كان لما يتصف به من الجدية أكبر من عمره الحقيقي. فاطلاعه على الكتب جيد، وصلته بالتيارات الثقافية ليست خافية، وخلفيته الدينية كذلك، لكنه ليس أسير أفكاره ويبدو أقل جدية من نظرائه، لتوه قد ذبل من مرض مزمن هو التدرن الرئوي وهو يعزوه إلى سوء التغذية ، كان مدركاً لحساسية المرض، وقوبل حرصه بعدم تعميق هذا الشعور لديه، كلمة الغالى تمثل اللقب أما الأب عبدالله عبد القادر، وثمة آثار للجدرى ظاهرة على الوجه، أعاد للذاكرة على الفور اسم على عبدالله عبدالقادر الذي ذهب ذات يوم ضحية هذا المرض الذي يطلق عليه التدرن عندما جيء به إلى طرابلس وظل لفترة طويلة طريح الفراش ليخرج مرة ويعود مرات، وضيق التنفس يلازمه باستمرار حتى كانت نهايته بعد أن تفرق الشمل وبعدت المسافات، وبين الخوف

من مصير على عبدالله عبدالقادر الذي غاب في زمن قديم وما زالت ملامح وجهه باقية وتملي وجهه الغالى الذي يحمل نفس اللقب وذات الملامح إلى جانب حفر الجدرى، كانت النفس الأمارة بالسوء والخير أيضاً تذرع المكان طولاً وعرضاً وتمسحه من كل جانب، وتعطى للحاضرين مساحات من التآلف والحميمية والخوف عبر هذه الأحوال سيد الموقف، الخوف من المجهول والخوف من العسف وثمة خيط رفيع بين الخوف والرجاء واليأس والأمل.

خمنت أن الشاب لابد أن يكون محسوباً على التيارات السلفية، وهو لم يترك للحيرة وردود الآخرين عليه التي كانت بمثابة التقارير الرسمية إلى الجهات المعنية قصة هذا النفر عجيبة، إذ إنها كانت في البداية تجمل ذات التوجه، ثم اختارت بعد ما اقتضته الدنيا، فاصطدمت بكل من سلك طريقها القديم واختلف مع ترتيبها الجديد، وإذ لم تتوفر الحجة الكافية للرد كان اللجوء إلى الغمز واللمز كإقحام الأسماء التي يثير الزج بها شبهات معينة مثل الشيخ تقى الدين ومن في حكمه. والهدف من هذا الزج توفير القرينة لمن يرصد وإرهاب المتكلم بأن مرجعيته السياسية قد حددت، ولأن قسم المتابعة يداوم على الحضور وعلى التقاط مثل هذه القرائن ، فمن الضرورى أن يكون الغالى ضمن الموجودين، بيد أنه كان شديد الاطمئنان بأن شيئاً لن يطاله إذا ما اتصفت الإجراءات بالموضوعية فهو لم يرتبط بأحد ومن خاضوا تجربة الارتباط لن يتجنوا عليه.

لم يكن ما قاله الغالى جديداً فقد سبق أن أعيد شئ منه،

عندما كان الموفدون إلى القاهرة وغيرها من البلاد العربية يعودون موسومين ببعض السمات السياسية، فكثيراً ما كان بعضهم يروى مثل هذه التعليقات المدسوسة التي تقحم اسم ميشيل عفلق أو صلاح بيطار لتوليد الشبهة البعثية أو تشير إلى لينين وتروتسكي لتوليد الميول الشيوعية، ويومئذ كان هناك إحساس بأن هذا القول ينطوى على شئ من المبالغة من قبل المجاملين فإذا بالمعلومة الآن تجيء من فئات جديدة لا علاقة لها بالمناورة أو المنافسة، لقد تأكدت المعلومة بعد خمس عشرة سنة كاملة من ذلك التاريخ وتجاه أجيال جديدة، يفترض أن يكون الحدب عليهم أوفر والحرص على استمراريتهم أكثر، مهما بلغ بهم الشطط وقوى لديهم الرفض، فهم أدعى إلى حسن الظن والى إتاحة الفرص للعمل الجمعي، لولا أن الطبع كما يقول القدامى يغلب التطبع.

كيفما كان الحال فللواقع إشكالاته الخاصة وظروفه التي تستدعي معايشته، ولا أحد يدرك الآن ماذا يجرى هناك، والغالى يقول : " اشكر الميت إلا الحى ما تدريش عيه ش يعمل ".

ما كان لافتاً هو ما لوحظ على كثرة الموجودين من قرى صغيرة للغاية وقد جسد ذلك أن بعض الولاءات قد تمت بتأثير القبيلة أكثر مما يؤدى إلى الناحية الفكرية، فللقرابة تأثيرها القوى في مثل هذه السن، لكنه الخطأ الذي يرتكبه بعض الذين تستهويهم بعض القناعات فلا يجدون أي صعوبة في توريث ما لديهم لأقرب الأقارب، فإذا ما حل أي ظرف مثل هذا الذي نعيشه يكونون جميعاً

ضحايا من سبق إلى التجربة وجر لها البقية الباقية، وكانت هذه الجزئية موضع تقدير عندما وقع شئ من التفكير في شئ ما وذلك قبل إن تثبط العزيمة وتتعطل الحركة ويتم العدول عن أي شيء.

* * *

آه، خرجت من القلب دون أي تفكير ممن كان يستمع، وهاهو المقام يضم المرء مع من كان أكثر ايجابية بدون شك، ماذا لو كانت المسيرة أكثر لو كانت الخطوات أكثر جرأة، ما جدوى التحفظ في واقع لا يؤمن إلا بما قرر في المرة الأولى. إن من واصل خطواته وضاعف من عمله كان أكثر توفيقاً أو تلاؤماً مع نفسه، ومع الواقع بالأصح. هذا واقع لا يغير قناعته، لا يبدل المربع الذي يضع فيه من يريد. قد يتحول المرء إلى أي شئ لكنه لا يتجاوز المربع الذي وضع فيه ربما يتم ذلك في حياته وبعد مماته أيضاً ، فما فائدة أن يفعل المرء غير ذلك. كثيرة هى الأسئلة التي تحاصر الإنسان ولكن الردود أيضاً متتالية، فليس من تحفظ كمن لم يتحفظ ومن أعطى الحجة لا يستوي مع من لم يوفر هذه الحجة، وما كل محاولات خلط الأوراق بقادرة على تحقيق ما يرمي إليه البعض. وليس من الحكمة أن ينجر المرء إلى أي حوار يتجاوز اليومى، ويخرج عن مشكلات الإقامة المؤقتة وبقدر ما يكون الإطار العام مبرمجاً من قبل من يعنيه الأمر أو يختص به على الأرجح. والحياة على أي حال قسمة ونصيب. يوم هنا ويوم هناك وشيء من التحمل سيكون أكثر جدوى.

قلت وأنا التفت نحو حماد والذى يبدو أكثر من غيره ميلاً إلى الصمت والتفكير في أمور بعيدة، ظننت أن يكون للأمر علاقة بوجود بعض الأقارب في ذات المكان ومن خلال إشكالية طرحت في المناسبة على نحو فيه شئ من المبالغة، فظننت أن الأمر يعنيه هو الآخر.

لم يكن الوجه غريباً عليَّ عند اللقاء، فقد سبق أن رأيته ذات مرة لكنه لم يؤكد ذلك عند تذكيره، بل أبدى شيئاً من الاستغراب ولم يستمر الحديث في هذه الجزئية، بيد أنه كان يتملى الوجه، ويحاول أن يستوعب، أو يجد طريقة للحديث، هو أيضاً من العاملين في حقل المباني المدرسية ومن خريجي الهندسة التطبيقية.

ما كان يشغله، إضافة إلى الظروف العامة، مناسبة اجتماعية كان من المفروض ان يكون ضمن المساهمين فيها. لتعلقها باحد زملائه في الدراسة والسكن.

قلت في محاولة للتخفيف، المهم الآن الحالة الشخصية ما عدا ذلك "فرح ويتم". لم يسترح للرد وفرح برد بعض التفاصيل :

لأيام قليلة كنت هناك في زيارة لعبد السلام، تعرفت على الوالد والوالدة وبعض الأقارب، شربت حتى " اللاقبي " الذي يعتبر الآن نادراً، ووعدوا بإحضاره مرة أخرى لو ذهبت هذه المرة، وهاأنا أتخلف الآن مكرهاً، وقد كنت عازماً على اصطحاب والدتي، فالذهاب إلى هناك فرصة وبالذات في الربيع حسبما علمت. أحببت بلدكم حين عرفت عبد السلام، قضينا في الدراسة أياماً جميلة

وسكنا معاً في عنبر واحد وسريرين فوق بعضهما البعض. كانت طباعنا واحدة. بسرعة خطب عبد السلام امرأة، الحاج حميدة اهتم بيه. هكى البو والا بلاش وضحك حماد ضحكة لا تخلو من مرارة ورقرقت من العينين دمعة !

أذهلتني هذه المشاعر الجياشة وأنا أتملي الوجه المليء بالأحزان وهو يعيش ثمن هذه اللحظات ويكابد هموم الغياب، رغم أنه يعيش مثل هذه الظروف المرعبة.

أحسست باقتراب نحوه أكثر من ذي قبل، صار الفعل بحجم الاسم كان الاسم في البداية هو الداعي للانجذاب، فإذا بالمشاعر أيضاً. لم يحدث أن افترقت عن يوسف سوى هذه الأيام وهو في دورته بشمال بريطانيا، موفداً من مؤسسة النفط ذلك المجال الذي اختاره عندما تبين له أن الإعلام جحيم لا يطاق. لقد بدأت الدورة منذ أشهر وتوشك الآن أن تنتهي، ليكون القلق من ذلك أقرب من السرور، فصرت أتمنى طول الغياب، أمنية أعيشها لأول مرة.

كان الواقع مخيفاً أشد الخوف، لكن التغلب على الأزمة هو أيضاً متيسر ولم يتسرب إلى النفس ما اعتاده البعض في هذا الصدد بالذات، انجذبت العاطفة نحو حماد. وما أن ظهرت أخلاقياته على هذا النحو، حتى صار الحديث والإنصات بمثابة الخروج من هذه الأسوار.

ترى هل كان عبد السلام غريباً والمرء يعيش هذه اللحظات التي يبدى فيها يوسف حماد كل هذه المشاعر ؟ أبداً فقد كان

معروفاً منذ مجيئه إلى الدنيا حين سماه الحاج حميده على الشيخ الأسمر، فقد كان الحاج حميده من كبار الأتباع ومن المتحلقين دوماً لدى الشيخ سواء في الزاوية العروسية أو المزرعة. إذ كانا متجاورين، حين قضت الزوجة الأولى نحبه في عز الشباب ويتزوج الحاج حميده وينجب هذا العدد من الأولاد . وها قد صار عبد السلام واحداً من العدلاء، عندما تقدم لخطبة عزيزة التي عاشت معنا فترة الأيام الأولى في المدينة، كما لو كانت الابنة الأولى، حتى لقد خشيت من تأجيل الفرح أمام المستجدات.

لهذا وجدتني أقول ليوسف، دون أن أشرح له العلاقة، هذا إذا لم يتأجل الفرح لا قدر الله، فكان هذا القول بمثابة البشارة ففي أعماقه كان يهمه ان يحضر مناسبة صديقه، ومضيت أفصل له العلاقة مستبعداً أن يحدث أي تأجيل إذ إن الأهل لم يؤجلوا حتى عندما أعدم منهم العشرات في يوم واحد، ومع ذلك فقد أبرمت عقود الزواج اقتداء بالمثل الشعبي المعروف :

- الميت يبي حفرته والحي يبي سترته.

فصرت وصاحبي متناقضين في الموقف، العاطفة التي تحبذ الحضور والعقل الذي يتمنى المضي في المهمة ليعيش الناس حياتهم حسب المتيسر وخشية أن يأتي الزمن بتطورات أسوأ وأشد مرارة. ولن يستفيد أحد بتأجيل لحظة من لحظات العمر التي يمكن أن يكون الناس بها أكثر سعادة. بل لعل الموقف المفيد بالنسبة لمن يكابد

مأساة من المآسي إنما تجيئهم من أولئك الذين يعيشون حياتهم بشكل اعتيادى لأنهم أقدر على التفكير السليم والعمل الطيب.

أثار الحديث انتباه الشاب، وكان ذلك في مقدمة ما راهنت عليه ففى مثل هذه الحوارات يمكن أن تنشأ علاقات تصل أعماق العمق، وتكون على قدر من المسؤولية. فالبواعث التي حركت المشاعر جميلة ونادرة، لكنها تحتاج إلى شئ من الترتيب. هكذا بدا الموقف، وربما يكون قد فكر من جهته بذات الأسلوب، لولا أن الظرف أصعب من أن يتجاوز، لكنه في النهاية ليس قادراً على حجز الإنسان من داخل نفسه ، فالنفس دائماً تستطيع أن تتحرك حتى ولو غلت الأيدي، والخيال الجميل هو القادر على إنزال الهزيمة بلحظات الألم.

شرد النظر وقفز الخيال هل يقدم الأصهار على إهمال الفرح بالنسبة للفتاة الصغيرة، دون أن يحول بينهم وبين المضي فيه الذي جرى، هل يكون همهم الأول أن تبنى الفتاة الهادئة الوديعة بيتها وقد جاء الآن فارس الأحلام ؟

تلك هى الأمنية ولا يهم أن يشارك المرء من يحب من الناس أفراحه بالحضور بقدر ما يكون المهم هو عدم التوقف، وتتم الأشياء في مواعيدها وبرامجها المعدة لها، إن الحضور والمشاركة شئ جميل ومحبب إلى النفس ولكن التأجيل والانتظار لن يفيد أحداً، ذلك ما أثبتته التجارب الطويلة والأحداث المتكررة، كل لحظة في الحياة ينبغى أن تعاش كل صفوفي العيش يجب أن يستثمر. قبل أن يخسر

العرب فردوسهم الأرضي المتمثل في الأندلس الحاضرة بآثارها العربية، ولجميل أشعارهم في ديوان العرب والجميل من أخبارهم التي تسجل إبداع ما تركوا. كانت الدعوة إلى اقتناص لحظات الأنس وساعات الرضا، حيث كان شاعر الأندلس العظيم ابن زيدون أفضل من جسد هذه الأحاسيس وهو يسطر سينيته الجميلة خلف قضبان السجون، ملخصاً في بيت واحد أجمل النصائح وأبلغها في المعايشة والتعبير.

" اغتـــــنم صـــــفو اللـــــيالي

إنمـــا العـــيش اخــــتلاس "

وعندما سقت هذا البيت الرائع، ضمن ما كنت أسرد جملة الأحداث والمشاعر، حثني مستمعي على المزيد من رواية الشعر، وكنت من جهتي أتساءل هل الذي أثار الانتباه بحق جمال النص أو أن تجربة ابن زيدون الحياتية هى التي تثير الانتباه، فيما كانت المعاني تتصارع بشأن عبارة الاختلاس التي أنهى بها ابن زيدون عجز البيت هل حرفية الكلمة أم المقصود المباغتة والافتراس من أجل التمتع باللحظة، وفى جميع الأحوال فإن ابن زيدون أحسن رفيق لمقاومة جفاف المناخ في زمن مضى في تلك الربوع ، وهو الآن الأقدر على مقاومة هذه اللحظات والهروب معه خارج المكان.

* * *

مثلما تولد الأحزان كبيرة وتأخذ بعد ذلك في التناقض بفعل

الـزمن فـإن الحـادثـات أيضـاً تخضـع لهـذا القـانون الطبـيعي، قـانون التضـاؤل أمـام الـزمن سـواء كانـت هـذه الحـادثـات قـد جـاءت نـتـاج الطبيعة والمقادير، أو كـان ذلك بفعل فـاعل مـن عـباد اللّٰه، ومجموعـة مـن هـؤلاء العـباد وهـم يمارسـون لعبـتهم فـي الحـياة الدنـيا. . بعضـهم يطغى بمـا أوتـى من قوة الجسد والسلطان والبسطة في الرزق والمكان. وبعضـهم يرتكـب مـن الأخطـاء فـي حـق غـيره فـيؤخذ بهـذه الجريـرة جزافاً، أو يـزج بـه ظلماً وعدوانـاً. تلك هى فطرة اللّٰه التي فطر النـاس عليها. فعل يقابلـه فعـل، وخطأ يقابلـه خطـأ، وحـالات مـن التشـنج يطـال أثـرها الـنـاس جميعاً. ويسهمون في تأجيج نيرانها جميعاً، وفى النهاية عودة تدريجية إلى العادى في كل شيء.

وهكذا، مـع انـتهاء الأسبوع الثـالث وعقب الزيـارة التـي فوجىء بهـا الجميع وتحـدث أثنـاءها أكثر مـن مـتحدث. وفـيمـا كـان الصـباح ينسحب رويـداً رويـداً تاركاً للضحى مدى يطل بوهجه الدافيء المنعش بحكم تغير الفصول، ذلك التغير الذي شرع يكرس حضوره متلازماً مع مـايو الـذي هـو يومـه الأول. فـإذا بـالعـنابر تفـتح دفعـة واحـدة لـيخرج الجميع إلى الممر الطويل، دون أن يؤذن للموجودين بـالخروج ودون أن يمـنعوا أيضـاً ، فـقـد اكـتفى المشترك بفـتح الأبـواب تـاركـاً ممـراً عـند الحـرس الذيـن اسـتهواهم الفضـول وربمـا الإشـفـاق. فشـرعوا يمعـنون الـنظر فـي عشـرات الوجـوه الذابلـة والمـيالة للصـفرة، عـندمـا أخـذ أصحـابها يـزدحمون أمـام البـاب الوحـيد، الـذي يتـوسط الممر الطويل، يـؤدى ممـر محجـوز تتوسـطه عـلى مـا يـبدو أمـاكن أخـرى. لقـد غـص

المكـان أمـام المدخـل الطويـل الـذي أطلـت مـنه أضـواء الشـمس وقـد اغتـالتها الجدران السميكة، فصارت حلماً بعيد المنال.

لا أحـد هنـا يكتفى بالمعلومة من الآخر. الكل يريد أن يطل بأم عينيه على ذلك المدخل المؤدى لأكثر من جهة.. ومنه ما قيل إنه يؤدى إلى الانفرادي، مما مكن بعض الفضوليين من استراق السمع ومعرفة بعـض الوجـوه مـن ذوى المـدد الطويلـة، فللفضـول دوره الإيجـابي فـي مـثل هـذه الأحـوال، حيـث المعلومـة هـى الأسـاس وإن يكـن التحلـيل المشوب بالتمنى لا يخلـو مـن أهميـة، ولا سيمـا فـي إيقـاد جـذوة الأمـل والإبقـاء عليها في مواجهة رياح التشاؤم القـاتل.

شغل المدخـل المضـيء معظم الحـاضرين، فـلم يستـثمروا الوقـت فـي الـتعرف عـلى بعضـهم بمـا يجـب، فأكـثر الوجـوه معـروفة وربمـا الأسمـاء أيضـاً. وهـم عـلى كـل حـال ليسـوا غـربـاء، لكـي يحـتـاجوا لهـذه الجزئيـة. ومـع ذلك فقد كـان هنـاك من تهمه هذه النـاحية إلى حد كبير. فكـان التفرس والتدقيق الذي يصل إلى حد الرصد.

عند مغـادرة العنبر، وخـروج المجموعـة المجـاورة، وقبل الفراغ من السلام والـتعرف الكـافي، إذا بشـاب مفـرط الطول شديد اصفرار الوجه واضح الإحسـاس بـالحزن ودون أي مقدمـات يبـادر بـالقـول:

- البلد ماركسية يا صديقى.

كـان فـارق السـن مـن الوضـوح بحيـث لا يحـتـاج إلى ملاحظـة، واخـتلاف النشـأة والمكـان هـو الآخـر يمكـن الوقـوف عليه بيسر شديد.

لكن الشاب كان شديد الانشغال بهذه الجزئية التي احتلت حيزاً كبيراً من تفكيره، ولا يستبعد أن تكون قد شكلت مستوى من مستويات الراحة به، فحين يكون الواقع هكذا يكون وجوده ـ حسب هذا الطرح ـ مبرراً فحساباته غير الدقيقة وحالة الارتباك التي يعيشها وحداثة التجربة بالنسبة للجميع مقلقة ومحيرة، فليس أمامه سوى مثل هذه القراءة الخاطئة للأحداث.

لم يكن الوقت يسمح بالرد، سواء على هيئة تصحيح للمعلومات أو الملاحظة أو الذهاب إلى ما كان يقتضيه المقام، كاد المرء يضحك ملء شدقيه، أو يعبر عن أي معنى من معانى السخرية في مثل هذه الأحوال، حين يرد كائن من يكون مثل هذه المعلومة الموغلة في السطحية. ولم يكن هو من جهته ينتظر أي قول، فقد استقر فهمه على هذه الحالة، ولابد أنه قد وجد الطمأنينة والراحة، فمضى مسرعاً إلى حيث تجمع الموجودين ليرى بأم عينيه ما إذا كان هناك من الأمور ما يستغرب، لكنه لم يكن في حاجة إلى الاقتراب، فالقامة المفرطة في الطول تحقق له الاكتفاء بالنظر من بعيد ومعرفة ما يتطلع الموجودون لرؤيته.

كان الجميع في حالة أقرب إلى الصوم منها إلى الافطار، إذ تبين أن السجاير ليست موجودة ومعجون الأسنان أيضاً قد صودر منذ أن بادر المبروك بهذه الفعلة. . ثلاثون سنة كاملة، بالنسبة للتجربة الشخصية، مضت الآن على معرفة هذا الاكتشاف الجميل المسمى بمعجون الأسنان، كان ذلك في أواخر الاستعمار الايطالى

حين جيء به إلى البلدة الصغيرة وصار الناس يتعاطونه، فتبيض الأسنان وتطيب الروائح، حتى فقدوه في سنوات الحرب الكونية وما ترتب عليها من نقص في جميع السلع الاستهلاكية ليستعيضوا عنه بجملة من التدابير المحلية كان الفحم الأسود أقربها إلى حياة الناس وكذلك أحجار الوادى الجميلة التي يطلقونه عليها (الصأقول) ، كل ذلك من أجل أن يكون للقوم ابتسامة جميلة كما كان الكبار يدأبون على نصح الصغار. وقد استمرت حاجة الناس حتى زمن الإدارة البريطانية، ولكن مع الانتعاش الاقتصادى في الخمسينات ظهر المعجون في حياة الناس سواء من تيسر له الذهاب إلى المدينة أو من صار يعول على من تعهد بتوفير الأشياء في دكانه أو مفازته كما يقولون، وبالذات المهدى حامد الذي تفنن كثيراً في توفير السلع وغدا محله محط أنظار الذاهبين والقادمين في ذلك الطريق الذي انتعش بفضل العاملين في النشاط المتصل بالتنقيب عن المعادن ومن يأخذون طريقهم باتجاه الجنوب. .

بيد أن الذين قضوا زهرة العمر في الثلاثينات فخبروا مثل هذا النوع من مواد التنظيف، وحالت بعد ذلك دونها ظروف حياتهم الصعبة، اضحوا اليوم يقفون طويلاً أمام ما عرفوا قديماً وجاءت به الحياة حديثاً ، ولم تعد ظروف المعيشة سامحة بامتلاكه، فاستعاضوا بالنظر، فبالكاد أمكن هؤلاء أن يوفروا قوت أطفالهم فكيف بمثل هذه الكماليات ؟ فليكن النظر الطويل لتهدئة الشوق العام، وكذلك نحن الآن.

لقد استعاض البعض بأعواد السواك التي لم يجد المبروك مبرراً

لمنعها لما تمثله من المكانة الدينية، وقد أدت الغرض المطلوب منها، خاصة عندما حولها البعض إلى نوع من الفرشاة، فيما استفاد آخرون من بذور الزيتون لتحقيق أكثر من غرض، الأول تنظيف الأسنان والثاني تصنيع المسابح الصغيرة يوم أن تنادى الجميع إلى قص أوراق التايد ليصور منها " رامينو" بالكامل، وكذلك حول عجين الخبز إلى شطرنج كامل.

فجأة حاصرت الذاكرة فكرة عن بعض ما حدث:

ـ المبروك ليس وحده، فهو ضمن مجموعة الأوضاع والممارسات، قوامها بكل الصراحة مايصدر من أوامر، فمن الخطأ تحميله المسؤولية دون غيره، بل لعلّ من الصواب أن يعترف المرء بأن للأمر علاقة بالمزاج الخاص أو ردود الأفعال الشخصية، لتحاصر الذاكرة بهذه القوة.

لكن هذه النزعة التبريرية لم تجد طريقها السالك إلى الوجدان ولم تكتسب ما يسوغها، ويحقق لها القدرة على الاقتناع. ذلك أن التجربة المعاشة حفلت بنماذج استطاع أصحابها أن يكونوا أكثر امتلاكاً لخصائص النفس الخيرة التي تفلح في التمييز، حتى عندما يكون الأمر متصلاً بالواجب، فلو كان كل شئ هنا مرتبطاً بالواجب، لما وجد المنزك الذي يؤدى واجبه كاملاً غير منقوص لكن نظراته على الأقل تطفح إنسانية. فرج الذي هو أكبر رتبة ينبىء عن شخصية مترفعة عن سفاسف الأمور وعن كل كلمة ساخرة أو مؤذية. حتى

مفتاح الذي يحمل الأشرطة الثلاثة وحسب ، لم يكن شراً كله. ناهيك من الملازم محمد الذي بادر بحسن المعاملة وجرى الثناء عليه، مما جعله يؤثر الابتعاد حتى لا يشكل حساسية لأحد، أو ينعت بالمتعاطف ! فالكلمة الطيبة ليست دائماً صدقة، فكثيراً ما تكون بمثابة التقرير الذي يقدم للأطراف القائمة بالمتابعة بما تثيره من مشاعر الغيرة والنحس منْ حسن السمعة، فما أكثر الذين يضايقهم الثناء على غيرهم ولو كان هذا الغير هو الأدنى مكانة والأصغر رتبة.

الحياة إذن مليئة بالنماذج الحسنة والعناصر الجيدة التي تترفع عن المبادرة بالإساءة أو لا تنصاع لنداءات الإيذاء أو الشهادة بما سوى الحق والمشاركة في إكراه الآخرين على التفوه بما ليس فيهم، وبالتالى فلا مجال للقبول بمن هم دون ذلك، فالذين اختاروا طريق الخير لم يمسهم أحد بسوء، ولم يخسروا أشياء تذكر، وهم حتى وإن خسروا فقد نسوا ما حل بهم، وأفلحوا في تجاوز هذا الذي حل بهم، فما قيمة امرىء لا يرتقى إلى مثل هذا المستوى من السلوك ما قيمة امرىء يستجيب لأى ضاغط من الضغوط ما دامت الحياة تسمح للمرء أن يكون أكثر كمالاً، وللمواقف أن تكون أكثر سمواً وللمشاعر الإنسانية أن تتألق وتتجاوز المألوف، ولا تقبل بالدرك الأسفل.

من لى بإسماعهم تجربة ذلك الرجل الخالد في ذاكرة المدينة البعيدة، امحمد بِلاَّمَة، الذي عمل في الجندرمة الإيطالية، ويكلف بين الحين والحين بجلد من توقع عليه هذه العقوبة من السلطات الإيطالية الغاشمة، عندما استطاع أن يتميز عن نظرائه بأشياء كثيرة

منها الحرص على التنفيذ بطريقة فيها الكثير من التعاطف والبعد عن أي حركة من شأنها أن تزيد في هذه العملية المؤلمة، حتى لقد ظل الناس يدعون ربهم سراً وعلانية حين يكتب عليهم مثل هذا الجزاء أن يكون المنفذ هو هذا الرجل الطيب. كان في كل حركاته خجولاً من أداء هذه المهمة حريصاً على أدائها بما لا يسيء ، بل بما يساعد الآخرين، مما جعله يحتل مكانة مختلفة عن جميع نظرائه في العمل وفى الحياة أيضاً. لم يكن الرجل من صلب البلدة فقد ولد بها حين حل بها أهله ذات سنين بعيدة واستوطنوا وأنجبوا وصاروا جزءاً لا يتجزأ من الناس، حتى أن الرجل حين فارق الحياة في بداية الخمسينات واختار الموظف الإداري أحد أبنائه ليحل محله ولم يبلغ السن القانونية التي تسمح بذلك، اعتبرت هذه المبادرة في مقدمة ما جعل الموظف ذاته يظفر بتقدير جميع المنصفين من الناس، بل لقد كان موكب جنازته عند موته في ذلك الزمن يفوق كل المواكب وكان تردد الناس على البيت مختلفاً عن جميع الذين رحلوا في سنه.

ذلك يعني أن الإنسان سيد نفسه، ومسؤول عن تصرفه، ويستطيع حين يحسن اختياره أن يؤدى واجبه دون أن يؤذى، دون أن يجرح العواطف ولو بالكلمة الحسنة. فلا مجال للجبر. إن الإنسان قادر على تجاوز الخطأ المقصود وتفادى الإمعان في السوء، وما من عذر له في هذه المسألة.

كدت أقول إنها أفكار المعتزلة قد اختزنت في الذاكرة، لولا أن التجربة المعاشة تجعل المرء دائماً إلى المثل الملموس في الحياة

القريبة، ومن المؤكد والحالة هذه أن الكثير من هؤلاء الذين يهرعون جيئة وذهاباً بأداء واجب الحراسة فيهم من بينهم ذلك النهج الذي انتهجه الراحل الذي طرق باب الذاكرة الآن.

* * *

كادت وتيرة القلق أن تعلو، حين ظلت المجموعات واقفة في الممر الطويل، كل أمام عنبره، ولم تتقدم أي مجموعة باتجاه الأخرى، بل اكتفى الجميع بتبادل النظرات والسلام من بعيد، فالجميع يؤثر ألا يدخل مع الحرس في أي مشاحنة أو نقاش يتجاوز الضروري، كما لو كانت نصيحة بريون التي جهر بها من البداية قد بلغت إلى الجميع.

شرعت كل مجموعة تناقش بعضها كما لو تكن قد خرجت من العنبر سوى منذ قليل، فكل حركة تعنى الجديد. وكل تغيير يعنى الدلالة، وبين متفائل ببقاء نصف الكوب الملآن بالماء، ومتشائم يئن من إنفاق النصف الذي استهلك يكون دائماً الحوار.

- هات ما يفرح

ذلك هو الرد الذي أمكن الاستنجاد به، والغالى يحسب الأمور بعقلية المهندس الذي يحدد كل المسافات، ويصر على الحكمة الخالدة.
- اقرأ النقص تتلاقى أنت والوفا.

والشيبة الغريبة تعلو هلال الحاجب. فالشيب عادة يكون في فودى الرأس أو أعلى الجبهة، أما الحاجب فموعده يكون بعيداً، لكن

الشاب كان على هذه الوضعية، والمنزك يطلب الدخول إلى الحجرات ولكنه دون أن يقفل الأبواب، ليعلو من هناك صرير قفل وحركات أحذية إشارت إلى أن هناك من خرج من المكان، ولم يفلح التحذير من محاولة استراق السمع والنظر أيضاً ، وهناك من يخمن أن الرجل لا يمانع في النظر وإلا لقفل الأبواب، ولمجرد أن أحال مسؤولية الحراسة لغيره جاء مرة أخرى ليقف باتجاه الغرف آمراً بالخروج للممر، وقبل إن يكتمل العدد قام بفتح الباب المؤدى للفناء الواسع قائلاً الجملة الأولى بالعربي والأخرى بالايطالي.

- اطلعوا اخذوا " لاريا " أي الهواء

كانت هذه الكلمة الوحيدة التي لم يشملها التعريب، والسر أنها خفيفة على اللسان فلا أحد يختار عليها كلمة أخرى، حتى وإن كان من الذين لا يتكلمون الإيطالية ولم يعثوا عهد ذلك الاستعمار.

أردف الكلمة بإشارة من يده نحو الباب، والكل يتأمل الكلمة الإيطالية الصامدة أمام التعريب الذي طال كل الأشياء الموجودة، ليبقى المصطلح صامداً كلما حان موعد التمتع بالهواء الطلق، حيث كل الأمور محددة بمواعيد، بعكس الموجودين الذين لم تطبق بخصوصهم قاعدة ما.

اندفعوا جميعاً في حركة لا إرادية، حتى أن أحداً لم يراع الآخر، كل لا يفكر إلا في نفسه. . المهمة الأولى والأخيرة الخروج نحو الفناء الواسع حيث الشمس والهواء، السير أو الوقوف . بدا المكان

وكأنه ينظر لأول مرة وليس ذلك الذي وصلوا إليه، عند الدخول عقب أربعة أبواب تم فتحها وقفلها. اختلفوا في مواجهة الموقف الناتج عن الانتقال من الظلام إلى الضوء والتكيف مع اللحظة الجديدة، كان ضوء الشمس صعباً على معظم العيون جراء البقاء في الظل وعدم التعامل مع الشمس. هى حالات المكان الذي لا خيار فيه ترمى به الأيام خلف ابوابه، بما في ذلك هذا المكان الذي ربما حجب دهوراً طويلاً. وقد يمنح لحظة أو لحظات. وربما امتد إلى ساعات كل حسب الحالة المقررة وفقاً لدواعى المجىء، والأطراف القائمة عليه مجيئاً ومعاملة ، وحده الذي يعرف أولئك الذي سرق مالاً أو انتهك عرضاً أو قتل أحداً، عامداً كان أو عن طريق الخطأ.

تداخلوا فيما بينهم الآن، كل يحيي، كل يبتسم، لمن يعرف ومن لا يعرف. إذا الناس يهتمون عادة بمن يعرفون أكثر من سواهم. وقد تفرض اللحظة عدم الالتفات للغريب، حتى وإن أظهر الغريب معرفة من المعارف، إن الوقت أيضاً لا يسمح بغير هذه الوضعية. والحديث في الغالب لا يعرف حدوداً، ولا يتوقف إلا ليستأنف، لا أحد يريد أن يصرح بما في نفسه لمن لا يعرف من الناس. سرعان ما تحلقوا في مجموعات، كل إلى أرومته رجع. مما جعل التصنيف شبه الرسمي يأخذ طريقه من البداية، بعد أن كانت العنابر توحد الجميع، أو تفرض هذه الوحدة بالأصح. والأمر في هذا الصدد أبسط من البسيط فطبيعة التركيبات المجتمعية لابد أن تكون كذلك، والنزوع إلى المشترك هو الأساس.

لقد اختلف الموقف بصدد الهوية التي أطلقت أمنياً على كل مجموعة، وفي حين رأى البعض فيها شيئاً من القبول، اعتماداً على أمرين اثنين: إما أن هذه الهوية معلنة وثابتة، وثمة إصرار عليها مهما كان الثمن الذي سيدفع، وإما أنها ليست مرفوضة اجتماعياً ومن المهم التسليم بها كيما يصار إلى تسويتها لمن لا صلة حقيقة لهم بها من حيث الاقتناع الكامل والممارسة الفعلية، إذ لم يتجاوزوا في الواقع الملموس جزءاً من جزئياتها فألصق بهم لهذا السبب أو ذاك.

كان الموقف شديد الصعوبة بصدد هذه الشريحة، وكانت هناك مبالغة في الضيق من الجهر بالهوية خشية أن يكون لهذا القبول أثره في المعاملة القانونية، متى تقرر التعامل مع الأمور على هذا النحو بمعنى أن القبول بالهوية من قبل المعنيين ربما يعتبر نوعاً من الاعتراف أو يعطى ما يمكن وصفه بالقرينة، وبين الجد والهزل يجرى الكثير من الحوار والكثير من الصراع الذي لا يخلو من شطط.

أكثر الهموم اليومية وأشدها تأثيراً، جسدها حظر التدخين لوجود أعداد غير قليلة يستهويها هذا النوع من العادة. والسجائر لها فعلها الكبير في التخفيف على النفس عند الإحساس بالكآبة، جراء الفقد واستشعار المرارة، ففيها الكثير من العزاء. وكثيراً ما لجأ إليها الذين كابدوا أحزان الموت، ومشكلات الفاقة والخروج المؤلم من الأوطان. وها هى الأقدار لا تتوقف هنا عند الحجز وحسب ، وإنما تتعدى ذلك إلى منع سيجارة يعتبرها من يعاقرها ويتلذذ طعمها سر الوجود، ولم تجد على ما يبدو حتى المطالبة التي قدمت بشأنها في

أول زيارة تفقدية. فعلى الرغم من مقابلة الجزء الأكبر من الموجودين والإنصات إليهم، فقد ظل المنع قائماً.

قبل سنين طويلة برر أحد الأصدقاء المشغولين بالشأن العام، امتناعه عن التدخين بقوله إنه يخشى أن يحجز على حريته يوماً فيستغل منع التدخين ضمن وسائل الضغط النفسي. ولهذا فهو لا يريد توفير هذه الفرصة لمن يفكر في استعمالها فظل مصراً على عدم التدخين. ولكن عندما حدث الآن ما قد حدث، فإذا بذلك الحذر قد غادر، ولم يتمتع بحذره ذاك، بل لم يتذوق طعم صموده على ذلك الحذر عندما بدأ في معاقرة السجارة. لقد نجا من هذه التجربة، لكن إلى أي حد نضمن أنه لا يواجه الآن ما هو أصعب من الموجود. احتمالات كثيرة تؤكد أن الأمر كذلك، لقد تم التخلص من هذه العادة قبل عشر سنوات، لكن الإحساس بضغطه على النفس عند النظر لبقية الرفاق يبدو أشد وقعاً على النفس، فالمرء حين يضمه جمع ما فالطبيعي أن يكون مع جماعته يحس بما يحسون ويعاني ما يعانون، لا يهم إن كان قد اعتاد عادة من العادات أو تخلى منها، وربما لهذا السبب يحرص البعض أن يكون كل ما يجيء من الأهل حقاً للجميع، ولا مجال للخصوصية هنا فكل الأشياء شراكة، وهي على كل حال نادرة، وإن كانت بعض الأمانات قد أخذت تصل من الأهل الذين أبلغوا على ما يبدو بإمكانية الإرسال. وقد جاءت لحسن الحظ من أكثر من منطقة، فأمكن بالتالي تعميمها بكل اليسر، لقد شذ عن القاعدة من شذ فاستأثر بما لديه لكن الأكثرية كانت مع هذا السلوك الجميل،

الذي يؤكد أن الحياة ليست كلاماً يقال وإنما هي مواقف تتخذ وإيثار كبير بحجم العمر، بيد أن مشكلة التدخين ظلت مستعصية لكثرة المدخنين وندرة ما تسرب بهذه الطريقة أو تلك، وفي مقدمتها ما كان يصل من زملاء القسم المجاور الذين استقرت أحوالهم وطالت مدد إقامتهم فحاولوا لمجرد إحساسهم بالمشكلة أن يجودوا ببعض ما لديهم، كان بعضهم مبالغاً في كرمه غير مدرك لطبيعة العسس حين عهد إلى وضع بعض العلب في أماكن القمامة باعتبارها وسيلة الاتصال الأكثر شيوعاً فلم تصل إما لأن الحرس فطن وأصر على تطبيق المنع وإما لأن النوع الفاخر كان مغرياً، أما البعض الأكثر فهماً والأقدر على الوصول إلى ما يريد بيسر استطاع أن يفلت من الرقابة حين قام بكسر الكثير من هذه السجاير فظلت على هيئة عقب لا تمتد إليها الأيدي.

صارت الساعات التي مضت من النهار بحجم العمر، والكل منهمكون في أحاديث لا تنقطع ولا تهدأ أبداً يتجاوز عدد الموجودين المائة والعشرين، وهو متداخل في بعض . وثمة أسماء كثيرة غير موجودة مع أنها قد استدعيت من البداية، فتأكد وفقاً لذلك أن هناك أكثر من قسم يسكنه الموجودون، وأن الذين يحويهم المكان أقل عدداً مما عداهم. فكان في الحق عجيباً ولا فتاً وضع هذا الخليط المتجانس من الشباب أو الأحداث إلى الكهول ومن دخلوا مراحل الشيخوخة، حين غص بهم ذلك الفناء وهم يخوضون تجربتهم الأولى، في المكان الذي طالما حوى المئات، ولكن ليس بهذه الوضعية. صحيح أن بعض

النظراء قد حلوا في ذات المكان مرتين وذلك في حقبة الستينات، وما عدا ذلك فقد كان على الدوام مثوى الذين انحرف سلوكهم وساءت أحوالهم وأفعالهم بالأصح. عندما استجابوا لنداء شهوة من الشهوات السيئة أو انجروا لفعل من الأفعال غير المحمودة، ومع ذلك فإن مدد بقائهم محدودة وحدود جزاءاتهم معروفة، وغالباً ما تشملهم مناسبة من المناسبات الكثيرة وأبواب رحمتها الواسعة، وفقاً لما حددت التشريعات واشترطت من حسن السلوك والسيرة لكل من يكتب عليه ولوج هذه الأبواب جراء فعل من الأفعال، بعكس هؤلاء الذين جاءوا في خضم هذا المولد، وإعلان شديد الصراحة والوضوح بشأن تعطيل القوانين، مما يعني أن إقامة الذين هنا غير محددة وهاقد صاروا الآن يناقشون هذا الوجود ويتساءلون عما يمكن أن تأتي به الأيام، ومتى وكيف سيسألون عما فعلوا ومتى وكيف سيعرفون نوع وحجم ما عليه يمكن أن يجاوزوا، متى وجد ما يستدعي الجزاء.

إن المعمول به سابقاً أن كل من تستدعيه الأجهزة بسبب من الأسباب فلابد أن تواجهه من البداية بالسبب وربما الدلائل، ليقدم بعد ذلك ما يفند فإذا ما اقتضى الأمر حجزه كان ذلك بقرار من النيابة ثم الغرفة، وأخيراً قاضي الاتهام، أما الآن فإن الأيام تمر دون أن يحدث شئ من ذلك اللهم إلا النوم والأكل والشرب ولا شئ غير ذلك. وباستثناء ما أضافه الهواء ورؤية الناس لبعضهم البعض فقد بدا كل شئ ثابتاً ومشاعر القلق أكثر ارتفاعاً.

* * *

فـى الفـنـاء انتصـب عـبد اللطـيف بقامـته الفارهـة وبشـرته البيضـاء، وقـد بـدت ملامـح الشـيخوخة تظهـر علـيه. . تجاعـيد الوجـه ضـمور الوجنتين، نـدوب ظـاهـر وكلـف حـول العيـنين الضـامرتين خلـف الـنظارة الطبـية الـتي اشـتهر بهـا مـنذ صـباه الأول، أو شـبابه الـذي عرفناه في تلك السنين البعيدة.

كـان يحـرص بـالـرغم من كل هذه العلامـات الدالة أن يتماسك وأن يظهـر بروح أكثر شبابـاً، عندمـا ارتفـع صوته الأجش وعلى طريقته الخاصة فـي الحديـث عن المفارقـات العجيبة في هذا الحضور، وذلك دون أن يستشعر أي مستوى مـن مستويات الحساسـية حـول الهويـة السياسـية الـتي جـيء بـه مـن أجـلها إلى هـذا المكـان والمتمـثلة فـي انتمائه المزعوم إلى اليسار الليبي، تلك الشبهة التي حـامت حولـه في الخمسينـات عـندمـا أسـس العـاملون فـي قطـاع النفـط نقـابة لهم وكـان هـو ضـمن العـاملين فـي ذلـك القطـاع، فـرأى بعـض المـثقفين المهـتمين بالشـأن الـنقابي أن يحـثوا بقـية العـاملين للدفـع بهـذا الوجـه لرئـاسـة الـنقابة حـتى يكـون ضـمن المسيرين لاتحـاد الـنقابـات الحـرة المنـاوئة للتنظـيم الحكومـي معولـين عـلى تطلعاتـه القـيادية مـن نـاحـية وعـلى نزعته الليبرالية من نـاحية أخرى كواحد من الذين درسوا فـي إيطاليا واخـتلطوا باليسـار الإيطـالى ذات يـوم حـين كـان ذلـك اليسـار يديـن الوجـود الاستعماري الفاشي ويدعو إلى تمكين الليبيين من استقلالهم، كـى تنشأ علاقـات بـين البلدين أكثر تجرداً وأدعى إلى تحقيق المصالح الإيطالية، بعيداً عـن المـنزع الاستعماري والتطرف العرقي، حين تبلور

لدى عبد اللطيف ميل ظاهر نحو تلك الأجواء، بل لم تفصح عنه الدراسات، ولم تجسده الجهود النظرية، وإنما عبرت عنه بقوة المواقف العملية ، الأمر الذي عبر عنه ما جاهر به عبد اللطيف من ميل واضح نحو الخيارات الاشتراكية، وانحياز للتيارات التحررية التي دعت إليها الكتلة الاشتراكية وعلى رأسها أوربا الشرقية، ومن ثم معاداة بقية التيارات التي حاولت أن تقف أمام التيار، ولكن دون أن يتساهل في مواصلة نشاطه الاقتصادى وتطوير مركزه المالى حتى صار من أصحاب المطابع المعدودين الذين يعمل لديهم عشرات الفنيين والعمال. ومع ذلك ما زال هناك من المسؤولين من يعتقد في وجود مثل هذا الخيار وهو الذي يستفيد من فائض القيمة، ويستفيد من عرق العمال، أو كما يقول بشكل محدد:

بعد زمن يطول أو يقصد سيكتب أحد المؤرخين أحداث هذه المرحلة ويقول على سبيل المثال إن العبد لله ـ يقصد عبد اللطيف نفسه ـ كان من بين الذين دعوا إلى المذهب الاشتراكي وعاشوا ما نعيشه الآن في مكاننا هذا ويومنا هذا وبلدنا هذا. في الوقت الذي يعلم فيه القاصي والداني أن هذا الإنسان (ويشير إلى صدره) لا يعدو أن يكون رب عمل يستغل بشكل أو آخر العاملين في مطبعته، ويبذل كل ما في وسعه للظفر بأقصى حق من عملهم هذا. فبكل المقاييس لست من الكادحين الذين من مصلحتهم سيادة الفكر الاشتراكي ليستخرج من ذلك كله حكماً بأن وجود مثل هذه المفارقات تجعل الإنسان يشك في صحة جميع الوقائع التاريخية !

هكذا يبسط عبد اللطيف المسألة كى تصل إلى الأقسام، لينتهى من تبرئة نفسه من جميع ما نسب إليه من ناحية، وينال من صحة أشياء كثيرة، من ناحية أخرى.

والحق أن المسألة بالنسبة له، كذلك بالفعل، فهو لم يحمل عقيدة سياسية مكتملة يجسدها تعبيره، ولم يتبين فلسفة الطبقة العاملة مطلقاً، ولم يتأذ في سبيلها، ولم يؤمن بحقها في الشراكة، وبالأحرى الملكية، فقد كان نتاج شرائح أخرى، فهو من صميم البرجوازية، صغرت أم كبرت. ولعلها أن سئلت : ومن أشهر مشاهيرها ؟ فلم ترض بغير الباشوية، فهو إذن أبعد ما يكون عن العمال وعن الفكر الذي يمكن أن يسعى لتسوية العمال، والأمر لا يتصل بالمطبعة التي هى آخر نشاطه ولكنه يمتد إلى زمن المزارع والكثير من المشاريع المماثلة التي تصل إلى زمن الرق.

غير أن هذا الفهم يصل إلى حد التشكيك في صحة وقائع التاريخ لا يقابله عند عبد اللطيف انهيار في الممارسة والقدرة على التحمل. . لا يقابله تهافت على الطرف الأقوى في المجتمع. وهو أيضاً لا يتحدث بلغة الاستعطاف، ولا تستهويه أبداً لهجة الاسترحام، فاللغة في هذا الصدد تختلف كل الاختلاف وثمة ابتسامة خفيفة ودعابة مصاحبة لها، تبدو شديدة الاقتران بما ينطق اللسان، تساعد على التخلص من الموقف الضعيف من الثورة في أي كلمة تجعل منه شخصية تشبه أياً كان.

ولا شك أنه لهذه الخصائص، تعمد أن يقدم التهنئة في صباح هذا اليوم، لكل الذين يعرفون الهوية السياسية المنسب عليها سلفاً، في مفتتح هذا الشهر بوصفه اليوم التاريخي للطبقة العاملة، مما جعل هذا الموقف مصدر إزعاج ومبعث إحراج لمن حواهم السور الكبير من مجايلى عبد اللطيف، إذ رأوا في هذا الموقف الذي جمع فيه بين الجد والهزل، نوعاً من توفير المبرر لوضع المجموعة داخل هذا الإطار الضيق، باعتباره كان السبب في تضييع فرص العمل في المجتمع المدني أولاً، ويوفر الآن المبرر لهذا الوجود ثانياً، وقد يكون هذا الموقف المعلن، وإن يكن ذكر على سبيل الهزل، دليلاً من الأدلة التي يحتاج إليها الأمر لتثبيت ما يدبر، فالموقف الجاد هو الذي يدفع نحو الحذر، بيد أن هذا الرجل يرى أن كل شئ معروف ولن يكون من اصطناع الحذر أي مردود. ولعله لهذا السبب لم ير ضرورة للصلاة مع الجماعة لما تنطوى عليه - حسب فهم الكثيرين - من محاولة التنصل من الهوية السياسية غير الدينية حسب الاتفاق العام والفهم السائد، إذ يبدو إلى حد كبير شبيهاً بذلك الرجل البسيط الذي قال قديماً مثلاً مأثوراً:

- كان سموك حصاد . . شمشر مناجلك.

إن اليومى مهم في مثل هذه العوالم، بل لعله، حسب تصور آخر، يشكل الأساس في إبراز الشخصية المراهنة على الدور الأبقى والأكثر جدوى في حركة التاريخ. ذلك الشيء الذي لا يعرف الكبوات ولا يتوقف اطلاقاً أمام المواقف المؤقتة كهذه التي اقتضت مثل هذا الحضور. إن النفس لا تملك إلا أن تستشعر السعادة بما يتجاوز هذه

اللحظات الموغلة في الألم، حين ترى محمد العارف، وعبد الحكيم، توأما الموقف وشقيقا الرحم والفكرة، وهما من ذات الجيل وذات السمة، ولكن في ممارسة تبدو أكثر توازناً، وفى رصد للحركة أدعى إلى الإحساس بالمسؤولية والمثابرة والصبر.

لم يسرق بريق الخارجية عبد الحكيم عندما ولج بابها عقب التخرج فيذهب به الطموح إلى حيث السفارات والتنعم بالتميز في جواز السفر والمركوب، ولم يسلب لبه كذلك عالم المحاماة بما أتاحه لنظرائه من علاقات رجال الأعمال وأصحاب التأثير، بل ظل حيث هو محامي الفقراء من الناس والمدافع عن البسطاء والطيبين هناك في المدينة الصغيرة والعائلة الواحدة، فهو بحق صديق المهنة التي تنتصر للحق وتسخر من تطويقه للأقرباء وكذلك يفعل محمد العارف الذي لم تؤثر فيه الممارسة غير العادلة وغير المنصفة عند إقصائه من إدارة مؤسسة السلع التموينية ، وهى التي تحتاج أول ما تحتاج لعلمه وحماسه وهو المؤمن بحق من أعلى رأسه وحتى أخمص قدميه باقتصاد القطاع العام، لتسند إلى من هم أقل منه حماساً لهذا التوجه وربما عداء له، فآثر أن يبقى في المؤسسة وعلى وظيفة غير رئيسة لإيمانه بهذا القطاع وحرصه على الإسهام في تسيير دواليبه والدعوة إليه، فإذا ما كانت النهاية هنا، ظلت البسمة على الشفتين والتفاؤل يعلو الوجه المشرق من كل جانب، في حركة لا تعرف التوقف وحوار يزداد عمقاً في هذا الزخم البشري الهادر ملؤه السماحة في كل شئ والإيثار في كل الاحتياجات، في مواءمة واعية بين اليومى في

بساطته وتأثيره والعام في مشكلاته ودلالاته وبارقة الأمل التي تلوح لكل من يحسن النظر.

لا شئ عند أمثال هؤلاء يعز أمام شريك المحنة، ولا فرق بين من يتبنى ذات الأفكار ومن يتناقض معها على طول الخط وعرضه، إن صح التعبير، فما تصنعه العلاقة الشخصية والممارسة اليومية يتجاوز في أحيان كثيرة بقايا الأسر والخلايا، لا يأس مع الحياة، ما دامت الرؤوس ملتصقة بالأجساد، لابد للمرء أن يتحرك ويمارس اختياره ويثق في إمكانية الوصول إلى نهاية النفق. وكلما شاعت هذه الممارسة بين أبناء الجيل ومن قبل رواده تحديداً، كان التعبير عن السرور والإكبار والتقدير والثقة الذي صار للموجودين بحجم الكون أو الدنيا بأسرها.

الجميع يسيرون، مثنى وثلاث ورباع، استظهاراً للمعلومات استدعاء للذاكرة استنهاضاً للهمم.. حالة من الاعتصام الذي لا يتوقف، ولا يرضى بما سوى التماسك والدفع باتجاه الموقف الثابت والصراع المحبب، ولكن دون الوقوع في محاربة طواحين الهواء.

ساعات بحجم العمر، والكل يعيشون فرحة فتح الأبواب، كما الصائم الذي يعيش فرحة انتهاء اليوم الأول من صيامه، أو الغريب الذي يؤوب إلى أهله.. لولا أن المنزك - وهو غير المنفر وغير المتسبب في الحزن وينادى في صوت مرتفع - ترى خشو داخل شوية.

فبدا الأمر وكأنه نداء الإمساك في فجر يومه قيظة شديد

الحرارة، ولم يكمل الصائم ما اشتهاه من الماء البارد.

* * *

من المميزات الجميلة لهذا المجتمع الذي نعيش فيه. والتى يمكن لكل من يتابع سير الأمور أن يقف عليها بوضوح شديد، ويلمس تفاصيلها بيسر وسهولة، تلك التي تتمثل في عدم القدرة على المضي إلى ما نهاية، في مجافاة الواقع والإمعان في الانجرار خلف كل تصور مفتعل للمخاطر على حساب الحقيقة. والمضى في اعتماد المعالجات السياسية. أو شبهها بالأصح عندما لا تكون ثمة وقائع ثابتة بشأن حدث ما، بقدر ما يكون الأمر مجرد محاولة لممارسة نوع من الضغط على أطراف محددة، كثيراً ما تكون إلى الرمز أقرب منها إلى الفعل في حد ذاته، فتأتى في خضم الأحداث بعض التدابير التي تبدو وكأنها ترمى إلى إشاعة بعض الحقائق، أو كإشارات المرور بالنسبة لما يمكن أن تأتى به الأيام، وتدفع به المعطيات الحقيقية، وذلك بالحرص على توصيل المعلومة لجميع المعنيين، ربما لتهدئة روعهم وإثارة اطمئنانهم، فإذا ما تبين أن المعنيين ليسوا موجودين في مكان واحد، كان من بين ما يلجأ إليه في الغالب تبديل المواقع بين الأفراد والجماعات، كما جرى في هذا الظرف، حيث تم الخلط ومن ثم الفصل بغية إيجاد شئ من الموازنة بين العدد والنوعية (حسب ما أفضت إليه قراءة الأحداث، وإن يكن هناك من عزا الأمر إلى رغبة بعض الجهات في الوقوف على الآراء المتعددة والتصورات المختلفة، وفقاً لاعتقاد راسخ أن من بين الموجودين من قد جرى

تكليفهم بهذه المهمة، وأن الحضور من هذا الجانب مجرد شئ شكلي بانتهاء المهمة، أو أن هناك من رؤى أن يعهد إليهم بمثل هذه المهام عندما لوحظ على الوجوه شئ من الاستعداد أو سهولة القبول، والأمر في مثل هذه الافتراضات لا يخلو من التأثر بالواقع الموضوعي لكل طرف، وحجم المسؤولية إزاء ما يجرى الآن، وما عساه كذلك أن يكون قد جرى في الماضى، واتخذ بصدده موقف من المواقف.

كان الثقل البشري اللافت متجسداً في القسم (3) إذ إنه حوى المجموعات الأولى، عقب المولد النبوي مباشرة، وقد تصادف أن كان عدد غير قليل من هؤلاء ينتمون إلى قدماء الدارسين في مصر سواء الذين ارتادوا صحون الأزهر وارتدوا العمائم والجبب الطويلة أو الذين وجدوا الطريق نحو دار العلوم أو الذين نعموا بالأساليب الحديثة فاتسعت لهم بعض كليات الحقوق والآداب، وجميعهم من الذين ذهبوا في الاربعينات، عندما كان الصراع شديد المرارة بين الأطراف الاجتماعية المختلفة ومن بينها قطاع الطلاب، حين كان كل يزكي نفسه ويفاخر باختصاصه، ويتعصب للمؤسسة التي يدرس بها، وقد يتأثر بالشيخ أو الأستاذ.

وفيما كان الدارسون في دار العلوم وهى المؤسسة الأحدث في الدولة المصرية، يرون في مؤسستهم هذه المكان المتقدم على صحون الأزهر، كان عتاة المصريين الأزهريين لا يستنكفون من السخرية بهذه المؤسسة التي لا تمثل ـ حسب رأيهم ـ أي تقدم على الأزهر، بل لعلها أضعف منهجاً والدارسين بها أقل تحصيلاً.

إن العمق التاريخى لهذا الصراع يعود إلى زمن على باشا مبارك، الرجل الذي قاد مشروع التحديث في مجال التعليم، وخطا خطوات كبيرة في المعاصرة في المناهج والبنية، الأمر الذي لم يرق للسكونيين والداعين إلى التشبث بالماضى، وقد كانوا يمثلون القوى المتنفذة في مؤسسات العلم والتوجيه، وبالجملة كل مصادر القرار انعكس هذا الصراع ذاته على الطلبة الليبيين الذين درسوا بمصر نظراً لطبيعة الاختلاف نشأة وتأسيساً، فتفاعلوا معه وتمثلوه في حياتهم ومشكلاتهم الطلابية ومؤسستهم المتمثلة في نادى الطلبة الليبي، الذي كان محور اهتمام الجميع ومحط أنظارهم ومطمحاً من مطامح النابهين فيهم والمتطلعين نحو المستقبل وما يطرحه من أسئلة وما تلوح فيه من آمال وقد كان النص الشعرى مجسداً إلى بعض من ذلك الصراع، ولا سيما حين ننصت إلى التصحيف الذي أدخل على البيت القائل:

" فغض الطرف إنك من نمير

فلا كعباً بلغت ولا كلابا "

لنجده يروى بهذه الكيفية :

فغض الطرف إنك درعمي

فلا طبا بلغت ولا ادابا (*)

(*) درعمي كل من يدرس بدار العلوم.

الى جانب هؤلاء، وجد بعض النقابيين القدامي، ناهيك من عشرات الشباب الذين استقطبتهم بعض الفئات الناشطة في الاتجاهات السلفية، وحققت منهم قوة متطرفة ومتصلبة، يحسب لها حسابها الجميع، ويعلق عليها أكثر من أمل، بعكس القسم (1) الذي ضاقت مساحته وقل عدد الموجودين داخله، وكانت المياه فيه ساكنة وليس هناك ما يمكن أن ينتظر منها، حين تصح الفرضية بأن الوجود لم يكن عبثاً: لكن المجموعتين ما لبثتا أن عاشتا تجربة الدمج قبل انتهاء الأسبوع الثامن، فنتج عن المزج تغير في حركة التاريخ . عشية ذلك اليوم الصيفي الذي شهد أفول نجم الربيع وما يعتريه عادة من تغلب على الطقس من برد وحر، فتنقص شهوة الأكل والملابس ويشتد الإقبال على الماء.

لقد بادر الحاج محمد بما عرف عليه من الحكمة والقدرة الفائقة على معالجة الأمور، عقب عودته من المهمة الطويلة التي قضاها خارج البلاد، فتجنب بسفره الوقوع في الكثير من التجاوزات واقترنت العودة بوقف كل شئ حيث هو، ومن ثم أذن لبعض الأقارب أن يتصلوا بأبنائهم في مكاتب إدارية تحت مبررات أحسن ابتداعها. ورغم أن ظاهر الأمر كان يعني مجاملة بعض أقاربه والخلص من أصدقائه، إلا أن الهدف الأبعد على ما يبدو هو تسويق معلومة مفادها أن نظراء هؤلاء على نحو خاص لم يرتكبوا أي مبرر لوجودهم ضمن المجموعة لولا التسرع الذي طبع تصرفات من استخلفه في الإدارة عشية سفره الطويل، لأن عشرات الموجودين لم

يكن هناك من داع لجرهم لو وجدت الشجاعة في تحمل المسؤولية، ليقول في نهاية المطاف (الخبرة في الواقع) وأنه سيبذل قصارى جهده أن يكون ذلك مفيداً لهؤلاء قبل غيرهم.

ولأن هذه الوضعية لا تنطبق على هوية واحدة من الفرقاء بقدر ما هى موجودة لديهم جميعاً، فكان إذ أعطت بعض حالات الوفاة التي حصلت في ذات الفترة مناسبة لتمكين بعض الموجودين من حضور مراسم دفن والديهم وتقبل التعازي مع ذويهم، على نحو ما حصل مع عبد الرزاق وهو المعروف في مجال التجارة والأوساط الاجتماعية الواسعة، فكان السماح له بحضور ليالى مأتم والده مناسبة لالتقاء معظم العناصر المعروفة في المدينة التي قدمت العزاء ووجدت الفرصة السانحة للوقوف على أحوال المجموعة والاطمئنان عليها، بذات القدر الذي عبر عن مشاعر المؤازرة الممكنة والتعاطف الطيب، ومن ثم تمرير ما توفر من المعلومات عن الحدث وظروفه والآفاق المنتظرة بشأنه، والمدى الزمني المتوقع له بوصفه يمثل البداية في هذه المرحلة التي تعتبر انتقالية من التاريخ الوطني.

أفضت التحليلات التي تبلغ أقصى حدودها في هذه العوالم، إلى اعتبار ما حصل من الخلط بين المجموعتين إعطاء الفرصة لقراءة الأحداث وتبادل المعلومات وربما الرأى أيضاً وفقاً للظروف الموجودة، والمعطيات القائمة، بعيداً عن المبالغة والافتعال، وبمنأى عن انتظار المساواة في المعالجة الرسمية.

تبين أن رأى العاملين في الأجهزة أن البقاء لن يتجاوز مداه القانوني، ولهذا رؤى أن تكون الفترة الأولى تحت مسؤولية الأطراف العسكرية ريثما تبدأ الإجراءات المعتادة. وإذا كانت التجربة هى الأولى التي تتم وفق هذا السياق. كان من الضرورى أن يمضى العمل في صعوبة شديدة، مما استوجب على ما يبدو توفير المخارج التي لا تطيل المضى في معالجة الأمور بمنأى عن القانون ولا تصطدم في ذات الوقت بالرأى القائل بالتعطيل المطلق للتشريعات. . وكان ذلك أقصى ما يمكن أن يجرى به العمل وسط ظروف صعبة، وأوضاع عربية ودولية قوامها المصالح وتحقيق القدر الأكبر من الكاسب.

ارتبطت عودة عبد الرزاق من ذلك المأتم بتوفير كميات كبيرة من الضروريات اليومية، ذات الطابع الاستهلاكي من ملابس داخلية وما في حكمها، إذ أفلح عدد غير قليل من عارفيه أن يبعثوا لذويهم ما توفر منها، وبدا أن السبيل في هذه الناحية سهل، ولم يبق من الاحتياجات سوى السجاير، فكل كمية تعتبر قليلة أمام كثرة المستهلكين ـ تعتبر كل من يوجد لديها في حكم المذنبين، والمذنب لا حق له في التدخين، بل وفى أشياء كثيرة، والدخان على كل حال من الأشياء الضارة، ومن يقم بمنعه إنما يفيد المدخن بالدرجة الأولى "فرب ضارة نافعة" كما يقول المثل ـ كان قراراً صائباً بحق على ما يبدو ذلك الذي طبق على النفس قبل ثمان سنوات خلت، عندما تم الإقلاع عن التدخين، حين أصبحت سيجارة السفير هى الخيار وتعذر المضى في تدخين " الفاسيروي " الامريكي الصنع وقبله " المركب "

البريطاني. والأمر لا يتصل بالحس الوطني، ولكنها الناحية الاقتصادية والالتزامات التي لم تعد تسمح بتحمل نفقات السجاير الرفيعة. وإن يكن لا يهمل ما طرأ على تلك السيجارة من تحسن حين أحسن خلطها بنسب معقولة من المستورد. وكما كان يمازح خليفة بأن الإصرار على تدخين السفير لابد أن يؤدى بصاحبه إلى بلوغ منصب السفير، وفى النهاية تم الإقلاع عن التدخين وجرى التخلى عن متعة من أجمل المتع، إذ مع النفس العميقة يشعر المرء أن كل الهموم قد زالت. وأن ما يوازي الجبال ثقلاً على النفس قد رفع ، ألم يقل الشاعر الشعبي قديماً:

" فراقك وطول الليل ما نجمته

رماني على الدخان وتعلمته"

هو إحساس ترسخ داخل النفس الناشئة في تلك الربوع إزاء جدوى السيجارة في مواجهة الكوارث والمساعدة على تغلب الهموم ونازلات الأيام، فكيف لا يهفو القلب نحوها الآن كي يحس أنه ينفس من الصدر المتورم حزناً وألماً وضيقاً من عقوبة بدون ذنب وإساءة بدون مبرر، وتسلط واضح ومكشوف، والصحب يتحلقون حول ما تيسر من هذه السجاير، كيف لا تسترجع الذاكرة وجه عمتى عائشة وهى تبرر معاقرة هذه السيجارة الجميلة قائلة بحق الجميع أبناء وأصهاراً وأقارب.

- لا حر لا شر، جبدة السبسي تجلى الهم !

مع أنها لم تقترب يوماً من هذه العادة كما تفعل جارتها في المسكن والخوولة ، وهى لا تجد غضاضة بعد أن فقدت البصر أن تأخذ سيجارة من أي زائر يحلو الحديث معه، وهى تعيد قصة من قصصها بدءاً من الهلاليين ووصولاً إلى تغريبات الأهل وأنواع المظالم التي حلت والكوارث التي حصلت، والمبرر في نهاية المطاف أن الدخان يعين على تحمل آلام الأسنان !

ومع ذلك فقد أفلحت في تطوير المشاعر التي تنتاب من تستهويه مثل هذه العادة، عند دخول مرحلة الشباب في الغالب، ويتصور أنه لكى يؤكد الخروج من سن الطفولة والخضوع للوصاية والدخول في عالم الرجولة وفعل أي شئ يحلو وأن نفس السيجارة أمام الناس يعنى في هذه المراحل معنى الحياة.

طارت النفس خارج الأسوار إلى حيث مقهى الجادة في قلب الدينة، وعدد من الصحب يقضون مساءاتهم وأكثر من واحد يمزح على الأستاذ عميش وهو يقول كلمته المعهودة حين يلذ له أن يدخن من أحد الأصدقاء ترى سبس.

وهل ثمة من يجلس الآن في المقهى، وصوت المذيع المتكلف يردد بشكل مستمر:

مكانك مش في القهوة نوض مكانك في الميدان.

نفس من سيجارة إليه تتوق النفس ولو كان من العقب التي يتسابق البعض عليها، لكن العقب في بعض التجارب تطفأ في

أجساد الرجال، كما هو الشعراء المناضلون العرب الذين تقدمهم البياتي، ليس فقط بما كتب، بل وما ترجم عن ناظم حكمت وما أشار إلى نيرودا والى آخرين، تتوارد أسماؤهم وتجاربهم، فيختلط الخوف بالألم والحزن بالفرح، وصوت يشير بانتهاء الوقت فكثيرة هى أشعار البياتي المختزنة في الذاكرة منذ أن دأب على نشرها في الخمسينات وكانت تصل عبر دواوينه الشهيرة، النار الكلمات، عشرون قصيدة من برلين ومثلها إلى ناظم حكمت ، وقد أجاد فيها جميعاً وهو يصور لحظات الصمود لعشرات المناضلين الذين استدعى صورهم وهو يعيش تجربة الغربة ويكابد آلام النفي أيام حكم نورى السعيد، تجارب تطرب لها النفس وهى تتابع الأحداث من بعيد. أما عند الوقوف أمام التجربة وجهاً لوجه فلا شك أن الأمر يختلف كل الاختلاف ، صحيح أن هذه النصوص تستثير العزيمة ولكنها بذات الدرجة تبعث على القلق بل الخوف وانتظار المجهول، فما كتبه البياني من وصف للحظات الصمود فيه الكثير من المخيلة، ليس لأن الحياة لم تشهد ما تحدث عنه البياتي، وإنما لأن تصويره للأمر وكأنه يعني شيئاً من اللذة هو الأمر الصعب، ويبدو أن مثل هذا الشعور لا يرد إلى النفس إلا في مثل هذه اللحظات، وربما لهذا الغرض كانت قصائد اراغون أكثر قدرة على تجاوز المحنة بدلاً من ذلك المنحى الذي نحاه البياني في تصوير شخصية حامل الفكرة سواء وهو يصمد أمام جبروت خصمه، أو وهو يتوعد هؤلاء الخصوم حتى أنه لا يتردد في التوعد بأن تكون جماجم أولئك البشر منافض للسجاير، فهى والحق

يقال صورة شديدة البشاعة ولا تنسجم أبداً مع فكرة سياسية يفترض أنها جاءت لإسعاد كل الناس وانها حين تسود لابد أن تكون إنسانية مع الجميع، غير أن هذه المعايشة لنفى البياتي المشار إليه لم يجر التعامل معها بمثل هذه الرؤية المعمقة، وإن تكن قد وجهت بصددها بعض الأسئلة عندما جاء إلى البلد ذات يوم.

* * *

أصبح العدد بعد عملية الخلط، في حدود المائة، ينقص أحياناً ويزيد أحياناً أخرى. ولكنه خرج من حالة الكآبة التي طالما طبعت أجواء القسم (1) كان اللقاء في تأثيره الأول على الجميع، بمثابة الخروج من الأسوار وليس فقط إلى فناء محدود، فالكثرة دائماً تخفف على النفوس، وتقلل من ثقل المكان. ما بالك والتوعية على هذا النحو، في التخصص والأرومة وكذلك اختلاف الرؤى وتنوع التجربة.

كل يسأل. . كل يحرص على الحديث . . كل يسعى إلى معرفة ما لدى الآخرين، بصدد ما جرى وما يمكن أن يجرى أيضاً . الرأى هنا صريح لا مجال للمواربة، وهو بالنسبة لأصحاب التجربة أكثر راحة، الأمل يفتح أبواب المستقبل، يصون من الانهيار، يحول دون الإمعان في التباكي، يعصم من السقوط في درك الاسترحام المذل، والتسرع بطلب الصفح قبل وجود ما يبرر، إن كان هناك ما يبرر، فمثل هذا المصير أخطر ما يهدد من قد يوجد في مثل هذه التجمعات.

إن أكثر الناس عجزاً عن التعامل مع الظروف الطارئة بالقدر

المطلوب من التعقد هم الذين أنجروا ذات يوم إلى شئ من التهور أثناء حضورهم لبعض اللقاءات المفتوحة، وكانت آراؤهم الانتقادية، بصدد بعض المشاكل إلى الاستفزاز أقرب منها إلى الجدل المنطقى، حيث لم تفلح - بالرغم من النشأة الدينية - أن تجادل بالتى هى أحسن، والتى لم تستطع أن تستوعب قول السابقين أن كل الأشياء تلد ما هو أصغر منها سوى الكلام، فهو الوحيد الذي يلد ما هو أكبر، بمعنى أن من يشتم امرأً من عباد الله ويغلظ له في القول، سواء بنعته بما ليس فيه أو بتضخيم ما هو موجود لديه في الواقع، لابد أن يكون نتاج قوله هذا ممن يعنيه الأمر هو الرد بما هو أكبر من كل كلام قيل ومن يجرأ على سب الآباء أمام الأبناء لابد أن ينتظر من هؤلاء الأبناء أن يسبوا آباءه وأجداده وأجداد أجداده، ومن يجرؤ على نعته بالظلم والخيانة لابد أن تكون ردة فعله قوية وأن تدفعه إمكانياته - كيفما كانت - إلى فعل بحجم الفعل وأكثر منه تأثيراً، تلك هى طبيعة الحياة، وخاصة قانونها القوى، وذلك هو المآل المنتظر لكل ممارسة من الممارسات التي يفضى إليها عادة اللقاء الأول مع كل من خاف مثل هذه التجربة حين ظهرت بعض الوجوه التي شوهدت قبل فترة وجيزة على الشاشة الصغيرة وهى تتناول مختلف الشئون، تناولاً قوامه القسوة في كل شىء، ومحتواه المزايدة المحببة لدى أصحاب العواطف.

لم يكن الوقت مناسباً للدخول مع هذه العينة في نقاش حول هذه القضايا، ومن وجهة نظر تقويمية لجدوى تلك الأحاديث، فما جرى قد جرى ولا جدوى على الإطلاق من الإمعان في نقد مثل هذه

التصرفات، إذ قد تفصح عن نوع من الندم، والندم بعد حلول الواقعة يعتبر أسوأ ما يرتكبه المرء إزاء نفسه وغير نفسه، إذ لابد من حمل المسؤولية، لابد من القبول بما قد جرى ومواجهة كل النتائج بشجاعة وثبات، فالندم لا يحل المشكلة ولا يخفف من الواقعة بقدر ما يضاعف من الإحساس بالخسارة واستشعار الحسرة والوقوع في مستنقع الانكسار، والانكسار هو أشد مراحل الإحساس بالهزيمة التي كثيراً ما تطال المرء في حياته وعقب معاركه التي يخوضها طائعاً مختاراً، لكن نتائجها لا تكون في صالحه ، على أن شيئاً من عدم الإحساس بمشروعية الإجراء أو صوابه بالأصح أو أي صفة من الصفات، يبدو وكأنه قد خاصر أوساطاً كثيرة، وربما كانت المعلومة التي تسربت من البداية عن مقابلة قام بها الصادق والفيتوري لبعض الموجودين ومناقشتهم حول خياراتهم الفكرية ومواقفهم السياسية التي رؤى أنها مناقضة للتوجه العام، أو مهددة له بالأصح، والإشارة إلى إصرار المجموعة على مواقفها، إنما كان بمثابة الدليل على وجود شئ من التراجع الرسمي أو ما يشبهه، على الأقل بالنسبة للبعض، أو انه قد فسر كذلك. إلا أن هذا الطرح من جهته كان باعثاً على القلق ومثيراً لمشاعر الخوف، إذ ما ضرورة أن تطرح الأمور بهذه الكيفية، والى أي حد يمكن ألا يعتبر مثل هذا الحديث المعلن بمثابة الحكم المسبق أو المؤشر على عزم السلطة على إلباس الجميع لبوساً ليس لهم، يستوى في ذلك من اتخذ موقفاً حقيقياً في هذا الصدد، ومن لم يكن الأمر وارداً لديه من البداية، فضلاً عن انه غير متوفر في الوقت

الحاضر، بمعنى أن مبدأ الإدانة للكل أريد التمهيد لها بمثل هذا القول ووسط ضجة إعلامية، حتى يكون الإجراء اللاحق مقبولاً من الجميع. ولكن من هم الجميع الذين يمكنهم أن يؤثروا في قرار يراد له أن يتخذ، وإجراء يرد له أن ينفذ، والعهد ما زال في عنفوانه، والإنفاق العام دائب الارتفاع، وكل يحقق من الأرباح ما لم يكن قد حلم به مجرد الحلم في أي يوم من الأيام، فما الذي يمكن أن يكون مثار خلاف يستقطب الأغلبية ؟

الحق أن كل المعطيات الموجودة تؤكد بشدة بأن السواد الأعظم يهمهم الإنفاق، ولا أمل بالتالى في إثارة أي خلاف فكري، أو صراع سياسي، ثم ما هو الجديد الذي يمكن أن يأتى به الصادق، ومن هم الذين يمكنه أن يحاورهم، ومن ذا الذي سيستريح لنقاش الفيتوري وبأى هوية يمكن للرجل أن يتحدث.

كثيرة هى الأسئلة التي كانت مطروحة، وكانت كذلك مثيرة للقلق قبل أن تتم عملية الخلط، ويتأكد من ثم أن الفيتورى قد قابل فعلاً بعض الموجودين وأراد أن يمهد لوجهة نظر ارتآها، ولكنه لم يستطع أن يقنع. والأمر لا يعود إلى رفض الوساطة كما قيل إعلامياً، وإنما يعود إلى الموقف من الرجل نفسه، فقد كان من الذين سطع نجمهم في السنوات الأخيرة من العهد السابق عندما ملأ اسمه أهم الصحف الموجودة، واحتلت صورته والعديد من قصائده أعمدتها في احتفاء ملحوظ من وسائل الإعلام الرسمية، فكيف يجوز أن يجيء الآن مكلفاً من العهد الجديد الذي أطاح بمن عولوا في بعض

أنشطتهم على مثل هذا الاسم.

- كبرت كلمة تخرج من أفواههم.

ذلك ما قال أحد الموجودين في ذلك التجمع، والفناء يعج بذلك الحشد من الناس. عندما تأكد أن مجيئه كان بقصد مقابلة عبد الله ويوسف لصلته الوثيقة بهما قبل العودة من مصر، وهى صلة بدايتها أسرية، ثم عمقها الهم الثقافي والنشاط الأدبي، فقد كان مفتاح الفيتورى على صلة وطيدة بآل الفيتوري وجماعة مصراتة بشكل عام، بحكم العلاقة التي تربط بين الليبيين ولا سيما بلدتي مصراتة وزليتن اللتين ينتسب لأولاهما القويرى وثانيتهما الفيتورى، بل إن قبيلة أولاد بعيو التي يعود إليها القويرى تعود في النسب إلى اولاد الشيخ عبد السلام الأسمر، فيما يعتبر الفواتير أخوال ذلك الولي الشهير كما تقول الروايات الشفوية. أما الصلة الأدبية فقد تمثلت في انخراط الثلاثة في التيارات الأدبية الحديثة التي نشطت على نحو خاص في حقبة الخمسينات. وهو بالتالى أولى بأن يسأل عن آل القويرى، وأن يكرس علاقاته بالعهد الجديد لخدمة الاثنين. لقد قيل إنه مكلف بهذه المهمة وثمة من يؤكد أن المبادرة شخصية.

كان الرجل قد ولد بالمهجر، وعرف مع والده من المهاجرين منذ صباه الأول. ذلك أن الشيخ مفتاح الفيتوري ما كان له أن ينسب إلى الليبيين لو لم يكن من أبناء زليتن بل الشيخ الأسمر، وذات المكانة الروحية الخاصة التي بدأت بانتساب الشيخ الأسمر إليها وقويت

بعد ذلك بالدور الريادي الذي اضطلعت به في الحفاظ على العلوم الدينية عندما أصبحت قبلة الدارسين من كل حدب وصوب، بما وفرته لهم من كريم الإقامة وفيض العلم، حيث تنافس أصحاب الخير في دعم المنارة الأسمرية بالوقف تلو الوقف كان لذلك كله أبلغ الأثر في حفظ اللسان العربي وترسيخ الفقه المالكي حتى لقد أصبحت مركزاً من مراكز الإفتاء.

ولأن الشاذلية ـ بحكم الآثار الأسمرية . تعتبر في مقدمة المرجعيات الأساس بالنسبة للأسمرية، لم يجد الشيخ مفتاح الفيتوري (والد الشاعر) صعوبة في تبوأ المكانة المرموقة في الأوساط الصوفية المصرية، خاصة وأن صلته بالجالية السودانية كانت شديدة المتانة، حين كانت السودان تمثل الامتداد الطبيعي لمصر، وتدار معظم شئونها شراكة بين المصريين والانجليز ويحتل مشروع وحدة وادى النيل في الشارع المصري أهم الأولويات وهو المشروع الذي رتب على السلطات المصرية الالتزام بتقديم بعض المساعدات الثقافية لأبناء السودان، من بينها منحة شهرية تدفع باسم الملك فاروق لكل طالب من الطلبة السودانيين بمصر، سواء كانوا في رحاب الأزهر أو ردهات الجامعة وكلية دار العلوم، حددت يومئذ بخمسة جنيهات مصرية واعتبرت كذلك شيئاً، ذاك ما حدا بالشيخ مفتاح إلى تسجيل ابنه محمد ضمن الطلبة السودانيين، ليستفيد بهذه الميزة المالية، فكان ذلك أول ما عمق لدى الفيتورى الشعور بالانتساب إلى السودان، إذ لو لم ترتفع الألسن بنسب الفيتورى إلى السودان لما كان بإمكانه أن

يستفيد بهذه المنحة التي تعتبر دخلاً جيداً بحساب ذلك الزمان، فإذا ما قدر للفتى أن يطرق باب الشعر ويقدم نصوصاً واعدة وتتعهده بعد ذلك أقلام الدارسين والنقاد المنضمين للجبهة المعادية للاستعمار ومخططاته الجهنمية بفرض التبعية والإبقاء على النفوذ الأجنبي، باعتباره من شعراء السودان ومن المهتمين بالاتجاهات الجديدة في الأدب والفن التي تشربت الأفكار التقدمية والدعوات القائمة على الالتزام ومقاومة الأحلاف الأجنبية والتميز العنصري والاحتكار، وكلها اعتبرت جوهر السياسة الامريكية. فكانت المسألة الإفريقية في مقدمة ما شغل به محمد الفيتورى وعدد من مجامليه أمثال جيلي عبد الرحمن، وتاج السر الحسن، ومحى الدين فارس، ممن لمعت أسماؤهم وصخمت مقاماتهم عبر ذلك التيار، هى أمور يدركها جميع الذين عاصروا تلك الحقبة من تاريخ الثقافة العربية، ونشاط الطلاب الليبيين الذين وجدوا في ذلك الزمن والتيارات التي أثرت في تكوينهم والجهات التي مولت أنشطتهم وحاولت بطريقة أو أخرى أن توظف هذه الأنشطة في عملية الصراع.

المهم أن محمد الفيتوري المعروف بالهوية الليبية من حيث الأصل الخاص بوالده المرتبط أشد الارتباط بالليبيين الذين عاشوا في المهجر العربي. الفيتورى هذا عرف بكل الأوساط الثقافية العربية والإنسانية بشاعر افريقيا، وساعده على ذلك سواد بشرته، سواء كان هذا السواد نتاج الزواج بالإماء كما درج على ذلك العديد من مشاهير القوم أثناء معيشتهم بتلك الربوع وطول إقامتهم لأغراض التجارة،

أو أن هـذا السـواد مـرده إلى الناحـية العرقـية الصـرفة بمعـنى أن الانتساب إلى زليتن بحكم النشأة وليس الجذور ، فالأمر ليس ذا أهمية تذكر إذ المهم هو الشعر والموقف.

وبصـدد هـذه المسـألة فـإن الفيـتوري شـاعر مـن الدرجـة الأولى، ومواقفه كذلك شديدة الوضوح، وهو إذ كان قد ارتاد الواقع الليبي سنة 68 على وجه التحديد، وضمن أسماء عربية كثيرة، يممت يومئذ وجوهها شطر ليبيا ووجدت شيئاً من التشجيع بواسطة الإنفاق السخي الذي عرفته الساحة الإعلامية، وشكل نوعاً من التعويض عن المشرق العربي الذي اهتزت مراكزه عقب نكسة 67، فإنه ولذات السبب قد عمق منذ مطالع السبعينات عندما عمل بالسلك الإداري الليبي وأن يشترك في أكثر من محفل ثقافي ويكتب أكثر من عمل شعري، ولكن في ذلك كله اعتمد على رصيده الذي كرسه لقضايا التمييز العنصري الأمر الذي جعل من شعر الفيتورى فضاء لإدانة هذه السياسات الرجعية التي ما كان لها أن تستحفل لولا الدعم اللامحدود من الدوائر الاحتكارية من الدوائر الاحتكارية الرأسمالية وهو ما شكل السبب في شد الاهتمام إليه من الأجيال الجديدة التي تكون وعيها وتحددت مواقفها زمن المد الناصري. لقد شق الرجل طريقه بثبات نحو الأجيال الجديدة وغدا في لمح البصر صاحب حضور ملحوظ، حتى أن بعض قصائده أو لنقل أشهرها صارت شبه مقررة بشكل يومي عبر موجات الأثير، فوجد أصحاب القرار عذر المشاعر من مجيئهم قبل الثورة للعهد الذي أجهزوا عليه، ووجدوا العذر لأنفسهم في هذا الاقبال، ولكنهم لم يستطيعوا أن

يقنعوا غيرهم أو أن يحولوا دون حالة الرفض الذي كان يقابل به والتى كثيراً ما وصلت إلى التشكيك في صحة النسب الليبي. والسبب بطبيعته هو أن الشاعر لم يحسن تقدير ظروف الرحلة ولم يستطع أن يستوعب ما كان يمور داخلها من صراع في السنوات الأخيرة من عمر التجربة السياسية الزائلة. خاصة وأن كل الذين تعاونوا أوقفت محاكمتهم في ما عرف بقضية تضليل الرأى العام، فتكون ما يمكن وصفه بالعقدة لكل من وجد في تلك الجوقة، ولم يعد مستساغاً أن يظهر أمثال هؤلاء المكلفين بالحوار أو حتى مهمة تطييب الخواطر، على نحو ما حصل مع عبد الله ويوسف، على الرغم من أن المقابلة قد أدت إلى خروج عبد الله في وقت مبكر للغاية، أي قبل ثلاثة أسابيع واعتبر ذلك الخروج بمثابة الرسالة الموجهة لكل من كان في وضع عبد الله، فالأمر لم يكن ساراً بقدر المطلوب، والسر هو هذه المفارقة اللافتة.

لقد طرحت هذه الإشكاليات عند أول خلط للمجموعة، وجرى بعد ذلك حوار موسع مع كل الوجوه، كما راجع عدد من الذين درسوا عبر معلوماتهم حول الهوية الخاصة بالشعر والظروف التي درس بها والعلاقات التي ربطته بعدد من الدارسين الذين عاصروه. وكانوا شديدى الحضور، بيد أن خروج عبد الله لم يكن مسألة فردية فقد شمل أيضاً نصر الدين وعبد الهادى، إلى جانب طالب وحسن من بنغازي، وكان ذلك من الأدلة لى إن العشوائية قد رافقت بعض الاختيارات.

والواقع أن المضى في تناول الأمور بمثل هذه الطروحات يبدو بالغ الصعوبة، فبقدر ما يكون الحديث مشاعاً عن تقصير هذا الطرف

أو ذاك وبقدر ما يتيسر إلقاء المسؤولية على فرد أو أكثر في مسألة من المسائل فإن الحل النهائي يظل في أحيان كثيرة أمراً بعيد المنال، وعلى كثرة ما قيل عن خطأ بعض المسؤولين في الأجهزة عن التوسع في تنفيذ المهمة وعن عدم وجود أي معلومات من شأنها أن تبرر الإدانة، فقد ظلت المجموعات مع بعضها البعض، ودون أي خطوة من الخطوات التي تؤكد ما كان يقال، حتى لقد غدا الأمر لا يتجاوز جبر الخواطر إذ تأكد أن الإذن بالتصرف لابد أن يتم على أعلى المستويات، ويتطلب وفقاً لهذا التصور تقديرات محددة لا تملكها الأجهزة وربما حتى الجهات القضائية، بما في ذلك بعد ما كانت عقوبته القانونية محددة مثل محاولة الخروج من البلد دون علم السلطات والمحددة بستة أشهر. ومع ذلك فإن الاكتفاء بهذه العقوبة لا يمكن - في ظل الظروف القائمة - الركون إليه، فمن شغل منصباً عاماً أو مثل أمام محكمة الشعب فلا بد أن يكون ذا صفة خاصة، وكذلك الأمر بالنسبة لمن ضبطت لديه بعض الممنوعات، فيفترض أن يكون مكانه بين نظرائه في مثل هذه الجرائم لا أن يكون في هذا الوسط، لكن الطقس بشكل عام منصرف لمسألة الرأى وليس لأى شئ آخر، بل لعل البت في الجرم من الأساس لن يجعل إلا بعد الإذن به بشكل سياسي. وذلك في نهاية المطاف موضع تدبر ونقاش يختلف عن كل المناقشات.

* * *

كثيرون هم الذين قد استغربوا كثرة المعلومات عن الشاعر

الفيتورى وعلى الأخص فيما يتصل بانتسابه إلى السودان، وربما تبادر إلى بعض الأذهان أن ما قيل كان نتاج موقف معين أكثر من كونه صادراً عن معلومات محددة، وما كان لهم إلا أن يتصوروا ذلك، فقد طالت المدة كثيراً على هذه الأحداث، كما أن الواقع العام قد بنى لدى الكثيرين على مبدأ ردود الأفعال الشخصية. وربما وجدت النفس مبرراً لما كان يخالجها من مشاعر القنوط، والإحساس بالاحباط، بعد أن أصبح المصير على هذا النحو، وقد ذهب من العمر ما ذهب ومن التجارب ما قد فات. على أن الحديث عن الحوار الذي أجراه الصادق هو الذي لم يصدر عن أي شكل من أشكال التعاطف، بل إن أحداً لم يؤكد وجود مثل هذا الحوار من الأساس، ذلك أن حديث الرجل مع الجماعات الإسلامية كان قديماً للغاية، ولم يحصل بصدد قضية من القضايا المثيرة للخلاف، إذ إن هذه الجماعات ليس لديها ما تخفى، ومن المرجح أن بعضها قد اعتقد في بداية العهد أن من الممكن أن تفلح في الاقناع بتبني برنامجها، وهو أمر ليس بالمستغرب في فترة يكثر فيها الحديث عن المحتوى الديني كهدف من أهداف العهد، ففي البدايات يكثر الكلام وتكثر البرامج، ويختلط العام بالخاص، ويستحيل في أحيان كثيرة التفريق بين الأثنين، غير أن الشيء الذي تأكد من المعنيين أن الحوار قد توقف من البداية، حين تأكد الموقف الرافض أو المتوجس، فتبين بالتالى أن المعلومة صحيحة وأنها تعني وجود شئ من المناورة لدى أصحاب الفكرة وأصحاب القرار، وكان ذلك كافياً

بوجود طرف يرى أنه صاحب برنامج، وطرف آلت إليه مقاليد الأمور وبرفض الموقف الأول من الأساس.

إن الحوار في الساحة لا يعرف المواربة ولا يقبل بما سوى الوضوح وكان ذلك يشكل نوعاً من الضيق لدى بعض الذين وسموا بالهوية اليسارية وكان فهمهم لها قائماً على مفاهيم محدودة، ومواصفات صارمة قوامه التفريق بين التعاطف والعمل، بين النظرية والتطبيق، بين الالتزام الحقيقي والميل النظري، فكان بعضهم يضيق ذرعاً بكل من يصفهم وصفاً صريحاً بصفة اليسار هذه فيما كان الذين يقولون بذلك لا يجدون غضاضة في الموقف النقيض.

إن أكثر الناس يبنون آراءهم حول الآخرين، ولنقل يرسمون صورة هؤلاء الآخرين، طبقاً لما انتهجه أولئك المشغولون بغيرهم، وتعويلاً على واقع حالهم، ولأن معظم الذين سلكوا طريق النشاط السياسي السري في أواخر الخمسينات، وأوائل الستينات، قد اختاروا الأسلوب المنظم، كان صعباً على هؤلاء ولا سيما حين أزفت الأزفة حقيقة أن هناك من اكتفى بالنشاط الثقافي، أو رأى العدول عن العمل المنظم من البداية، وكانت الآراء في هذه الإشكالية مترنحة، بين الإصرار على وجود شئ ما، وبالذات بالنسبة لمن استشعر فداحة التورط، وبين الأخذ بالحقيقة كما هى والتسليم بأن التجربة مختلفة، فكانت الإشاعة في أحيان كثيرة هى البديل، وكان ذلك يحدث في اللحظة التي وصلت فيها معظم الأجهزة إلى الاقتناع بعدم وجود أي تحرك يمكن أن يوصف بالنشاط المنظم على نحو تراتبي، عماده نظام

الأسر والخلايا أو أي مستوى من مستويات التأطير، ومع أن هذه الحقيقة كانت جلية ومعروفة لدى الأغلبية، منذ الستينيات، وفي الفترة التي وجدت فيها القوى السياسية مجتمعة خلف القضبان، فقد ظل فريق من الناس يحرص على عدم التسليم بهذه الحقيقة، والمسألة في هذا الصدد لا تعدو أن تكون أسلوباً من أساليب التكتيك المرتكز على الرغبة في اقحام الجميع، تحت طائلة المسؤولية بحجة أن اتساع الدائرة من شأنه أن يخفف من وطأة الضغط، كما أنه من ناحية أخرى قد يدفع إلى إذكاء روح المنافسة، ودفع الأجيال المختلفة نحو فضاء المشاركة، إذ كلما قيل لإنسان ما في زمن معين وعمر معين إن جماعة من الناس تسعى للتمكين لفكرة من الأفكار السياسية، فلا مندوحة من أن يؤدى هذا إلى تحفيز من تتوق نفسه إلى عدم القبول بهذه الفكرة للتحرك نحو كبح الداعين إليها، ولو بأضعف الإيمان، ويبدو أن أضعف الإيمان هنا قد تمثل لدى البعض بالإصرار على وجود نوع من التنظيم لليسار التقليدي فظلوا يروجون لمثل هذا الادعاء، لدرجة أن عزوا عدم التعرض لأى ضربة من الضربات التي طالت الآخرين إلى دقة التنظيم من ناحية، وكذلك المراهنة على إمكانية الوصول إلى الخطوط الدقيقة في وقت لاحق، عندما تتوفر الجدية اللازمة في الخصوص.

لقد اختلفت المواقف بصدد الإشكالية، فثمة من يغيظه كل حديث يرجح كفة وجود شئ ما، ويرى في هذا القول ضرباً من ضروب التمنيات غير الطيبة، وثمة من يلتمس العذر ويرى ضرورة

الاقتداء بكلمة برنارد شو الشهيرة على لسان أحد أبطال مسرحياته. في معرض الرد على من تعرض له بالشتم، إذ لم يزد على كلمة واحدة إثر ابتسامة عريضة:

- كل ينفق مما عنده.

مما جعل قول الغالي بصدد هذه المسألة من البداية جميلاً ومؤثراً للغاية عند الحديث عما نسب لعبد الله ذات يوم، وكان موضع حديثنا معاً.

- أصدق وأفترض الصدق في الناس جميعاً، ما لم يثبت العكس، فقد ثبت حقاً أنه صادق. ولهذا لم ينزلق يوماً نحو المراوغة، ولم يخرج في تعامله عن البساطة، إذ لو لم يكن على هذه السجية الطيبة لذهب إلى الشك وتحسب للأمر ألف حساب.

إن الحديث في هذا الواقع يعيد إلى الذاكرة أجواء الستينات، وبالأحرى آخر سنة منها على وجه التحديد، حين ذهب التفكير السطحي بالبعض إلى حد القول أن المناشير التي صدرت من تنظيم الضباط من تدبير اليسار، رغم اختلاف الخطاب بل وظهور اسم الضباط صراحة . والسبب هو أن ذلك البعض كان محموماً بالرغبة في إيجاد ضحية ما ولو كانت بريئة كل البراءة، فمن نذر نفسه لخدمة الأجهزة أو للقيام بدورها، فليس لديه هم سوى أن يضع المسؤولية على شخص أو أشخاص محدودين حتى لا يفقد دوره في اللعبة.

أصبح المكان على صغره كبيراً، والمجموعة على محدوديتها كثيرة، إذ يمكن للمرء أن يتحدث مع من يتحدث إليه بإفاضة ويبوح بمكنون نفسه في راحة وثقة، ومن يكتفي بالحديث معه في الضروريات من الأمور وعلى قدر يقل أو يكبر من التحفظ وحتى الانقباض. لكن التزود بالصبر والتحلي بالمزيد من التحمل والتماس العذر للجميع، يظل على الدوام هو طوق النجاة الذي يمكن لكل من يأخذ به أن يظفر بما يحتاج إليه من الهدوء كل ذلك مع عدم إهمال الواقع الموضوعي لكل حالة، فليس من اعتقد ما يمكن أن يكون محظوراً كمن باشر الترويج لهذا المظور، وليس من تراجع من البداية كمن استمر في طريقه. وما سيتخذ من إجراءات تجاه الجميع لن يكون له أي علاقة بالنقاش حول الاحتمالات من قبل الموجودين، والخلاف حول هذه المسائل ضرره أكثر من نفعه. والمكان في نهاية المطاف ليس إلا إقامة مؤقتة مهما طال الزمن، وما عدا ذلك فهو من مشمولات أصحاب الأمر في البلد فما جدوى الكلام خارج اليومي المسيطر، والمشترك المحدود، وما من مردود من كل خلاف يثار سوى توتير الحياة وإثارة الأعصاب، ومضاعفة الإحساس بالضيق والتبرم، بما في ذلك تلاوة الشيخ صادق المكرورة، وصوته الذي يعاني من الحشرجة، وإيقاعه السريع المتلعثم، بالرغم من أنه يمثل كتلة من الصدق والبساطة، حتى أنه لم يجد غضاضة في التصريح للتخلص من أصدقائه الذين رافقوه في سنوات الدراسة وتعرضوا بعد ذلك لتجربة مماثلة خبروا موقفه إزاءها حين كان في مقدمة من بادر

بالإدانة. إنه لو كتب له البقاء الآن خارج المكان لما تردد في تكرار التجربة وإدانة الموجودين أيضاً . فيما كان يذرع المكان جيئة وذهاباً مستنجداً بالشيخ الأسمر الذي ترعرع على وقف معهده، ونال قدراً كبيراً من العلم في صحون مسجده العتيد قبل إن يلج باب الأزهر أو يقطن بالرواق، ليعود بعد ذلك بتحصيل متميز في الفقه أي لكى يكون بواسطته أرسخ قدماً من أكثر مجايليه الذين كان حظهم في الوظيفة أوفر، ومن الشهرة الرسمية أكبر، فلم يجد سوى الصوفية ملاذاً يأوى إليه، حتى إذا ما تعرض لهذه التجربة كان إدمانه للاستنجاد بالأولياء على نحو لم يعد أي من الحاضرين يخفى تبرمه به، مما يدفع الشيخ فتح الله إلى التخلى عن وقاره والمغامرة بالمنزلة التي يتمتع بها لدى الأكثرية فيصرخ في وجه الصادق.

- سيدك عبد السلام ايده فيها للباط !

بمعنى أن ما جرى ليس موضع رفض من الشيخ نفسه وربما من هو أكبر من الشيخ أيضاً . ففى لحظات القنوط لا يجد المرء غضاضة في التضحية بكل الأشياء والياس من كل الأبواب أيضاً ، وعندئذ يشبح البعض بوجوههم مستنكرين جراءة الشيخ في صمت لا يقل في تعبيره عن الكلام. وترتفع أصوات البعض الآخر بالحولقة والاستغفار، فيما يجد آخرون بارقة أمل في أن من الممكن أن يتحول الرجل من النقيض إلى النقيض، لو وجد من يحسن الاستفادة من مثل هذه اللحظات التي تحدث الخلخلة من ثوابت كثيرة، عندما كانت مثل هذه التجمعات من أكثر المناخات ملاءمة لصراع الأفكار

وتغير المواقع والمواقف وإعادة ترتيبها على كلمة سواء.. إلى جانب هؤلاء تتسع بطبيعة الحال دائرة الذين يتخذون من التجمع مناسبة للاستشراق باتجاه واقع آخر أو انتظار ما ستأتي به الأيام، منصرفين بكل ما لديهم نحو الورق الذي صنعوه مما لديهم من علب. والشطرنج الذي تفننوا فيه من بقايا الخبز، وبذور الزيتون التي صارت تشكل مسابح جميلة، والأيام في تحركها أثقل من الشهور أو الأسابيع كأنها العمر، بيد أنها تمضي مهما كان الإحساس بثقلها ورتابتها، وحجم الإحساس بالهزيمة أو النصر إزاءها، وإزاء تحركها.

* * *

أكثر الأيام ثقلاً على الموجودين هنا، هو يوم الجمعة، وما ذلك إلا لأنه يوم العطلة الرسمية في كل أسبوع. فمن الضروري أن يكون يوماً عديم الحركة، حتى أن هناك من أطلق على اليوم جمعة الصمت، وباستثناء إجراءات الإفطار وبعد ذلك وجبتي الغذاء والعشاء، فليس ثمة حركة في هذا اليوم، بل إن هذا الواجب اليومي أيضاً يؤدى في كثير من السأم الظاهر، والملل غير المخفى، مما يجعل الحرس يبادرون دوماً بما لا يسر، والسبب أن الحاضرين هم الذين يفرض وجودهم عدم التمتع بهذه العطلة حتى ولو كانت ستعوض بيوم آخر، فالتعويض أعجز من أن يرتقى إلى مستوى الأصل. والراحة مع الناس تختلف كل الاختلاف عن التمتع بها والجميع منهمكون في أعمالهم. ولهذا فإن الإحساس بالضيق من الموجودين يبدو أكثر بروزاً يوم الجمعة، ولن يفيد أبداً إحساس الجميع بأن وجودهم حصل بالاكراه.

لكن الصمت المعتاد قد اختلف عما سبق هذا اليوم، وذلك عندما نادى المنادى على مجموعة محددة طالباً إليها أن تبتعد إلى ما وراء الأبواب ، مرتدية الملابس الأصلية وليس ملابس النوم التي سلمت للجميع، والتى أصبحت تشعر الجميع وكأن العمر كله حالة من النوم ولا مكان للنهار أبداً، بالرغم من أن الهدف من توزيعها قصد به دون شك توفير مستوى من مستويات الراحة. والمهم أن المجموعة قد توجهت خارج الأبواب والتى حلت أقفالها خلافاً للمعتاد. وكانت المفاجأة أن الأمر قد تم يوم الجمعة، لينهمك بعد ذلك من لم يشملهم الاستدعاء في تحليل هذه الدعوة ومحاولة الوصول إلى ما يمكن أن ينجم عنها، بين مؤمل أن تكون الدعوة بهدف الحوار، أو المساءلة أو أي شئ يدخل في ضمن هذه الدائرة، وبين من يرى أن الأمر قد يختلف عن ذلك كل الاختلاف، وأن كان هذا الاحتمال قد بدا أكثر رجاحة، خاصة وأن وعداً قد قطع بالتحرك في هذا السبيل.

لقد تعدل المناخ كثيراً، فالزمن هو الشهر السادس حيث اعتدال المناخ إلى حد كبير، فقد أطل الصيف ذلك الضيف الخفيف كما يقول الأولون، عند مواجهته للزمن، واحتياجات الأطفال من الملابس والمؤن وكل ما تقبل عليه النفس في فترات البرد، فيما لا يكون الأمر كذلك عند استدارة الفلك، وحلول هذا الفصل الخفيف، وإن كان تقييد الإقامة يجعل المرء شديد التهافت على كل شىء، ولو كان هذا الشىء تافهاً وغير ذى بال، وقد لا يدفع المرء إلى استشعار أي جديد ولو كان خروج مثل هذه المجموعة، لكن يونيو هو شهر الإجلاء وفيه

ترتفع النبرة الإعلامية، حول الأحداث والمنجزات، ولعله لهذا السبب أدى إلى التخفيف من الغلو الإعلامي الذي كان يتردد باستمرار حول من دعوا بالمندسين والمرضى ومن في حكمهم من الذين كان مثل هذا التصنيف أحد مبررات وجودهم، فكان لابد أن يتحرك أمام دعوة المجموعة شئ من الأمل، بالرغم من علو الأسوار وصرير الأقفال.

وفيما كان الأخذ والرد يشتد بين الموجودين، عاد من عاد من الذين سبق لهم الخروج، فتحول الجمع الكبير إلى مجموعات، كل يتحدث إلى مجموعته عن الأسئلة التي وجهت والنقاش الذي جرى وكل يدلي بما لديه من آراء، ويضيف ما يمكنه من إضافات، ليصل بعد ذلك إلى النبوءة بما عساه أن يأتي مع المستقبل.

أحد الذين تم استدعاؤهم، ومساءلتهم استطاع أن يوجز ما طرح بشكل عام ومحدد في ذات الوقت : الموقف من الزعيم خالد حسب التسمية المكرسة إعلامياً، الرأى حول إعدام الشيخ سيد، وجملة من الأمور تسير في ذات السياق، وكانت الإجابة مجملة وتحتمل أكثر من وجه، منها أن من أقدم على إعدام الشيخ سيد، لابد أن تكون له مبرراته الكافية، وأن الموقف من الزعيم الخالد لم يكن موضع تفكير من قبل من توجه له بالأسئلة، لأن الرجل يحكم بلاداً أخرى ... إلى غير ذلك من الأجوبة التي لا تلزم صاحبها بموقف ما، الأمر الذي حدا بصاحب الأسئلة إلى القول وبكل الوضوح - ما دامت إجابتك بهذه الكيفية فإن بقاءك هنا لابد أن يطول، لم يكن الرجل مجهولاً، فقد عمل كثيراً في الإعلام وقبل ذلك في بعض اللجان

التطوعية وأشهرها لجنة نصرة الجزائر، وهو نشاط اتخذ منه بعض المتطلعين للدور الفكرى ذى المحتوى الديني فضاء لهم، عشية تحركهم الجاد لزعزعة الواقع الذي لم يرق للكثيرين في مجاله المحلي، وامتداده القومي. بعد أن طالهم ما طالهم في منتصف الستينات عندما لقى الشيخ سيد ما لقى، ضمن كوكبة من إخوانه في الفكرة والموقف وسط ضجيج إعلامي ضخم، حول اكتشاف مؤامرة نسبت إليهم، قيل يومئذ إنهم كانوا يعتزمون فيها إلى جانب الشخصيات السياسية، قتل عدد من الفنانين أبرزهم بالطبع الفنانة أم كلثوم، ويومها اختلف الناس حول هذه الأفكار التي تبثها الإذاعات وتنشرها الصحف والمجلات وبالجملة كل وسائل الإعلام القادرة التي تابعت، ما كان يذاع وينشر ويحتوى على الكثير من التفاصيل.

هناك أغلبية قبلت المبرر، وسعت إلى الترويج له من عديد القطاعات وهناك أقلية رأت أن العمل في مثل هذا الاتجاه غير سليم وأنه ينذر بمستقبل غير سار في الحياة السياسية، الأمر الذي ما لبث أن صحت النبوءة المتصلة به عندما حلت نكسة يونيو، أي بعد ذلك التطور بسنين فقط، وهى نكسة شهدت نكوص الكثير من المقاتلين عن أداء واجبهم المقدس لأنهم فيما يبدو لم يعودوا يرون شيئاً يستحق الدفاع عنه بالنفس والنفيس، وهو موقف كان متوقعاً لدى الكثير من المستنيرين الذين كانوا يعرفون سلفاً طبيعة الممارسة السائدة في تلك الأوساط والتى يستحيل أن يوجد من المتعايشين فيها من يجود بالنفس حقيقة في سبيلها كما تردد وسائل الإعلام صباح مساء ، ذلك

أنه كلما شاع الموت بالمجان صار المكان رخيصاً وغير ذي بال، وهانت بالضرورة كل الخسائر المنتظرة والمعارك التي قد تخاض تحت هذا المبرر أو ذاك، هى قراءة لم تكن مقبولة من حملة الخيار العاطفي الذي عجز عن الادراك أولاً، ولم يستطع تحمل هول الفاجعة ثانياً.

أحد الشباب الذين عملوا في قطاع الاعلام، وعرف عنهم شئ من الحركية في الشأن الثقافي المتشح بالمضمون السياسي ينسب إلى هذا الذي استدعى الآن أنه كان دائب التحذير له من نشاط مزعوم، كثيراً ما رأى فيه التناقض مع معتقده، وهيأ له خياله الواسع وجوداً غير صحيح له، فصار يومئذ ويحكم علاقة الجيرة بالذات لا يسأم من التحذير، وكان تحذيره ذاك من علامات الاستفهام عن وجود ما كان يخشى منه، لكن الذين قيل بصددهم ما قيل لم يعيروا الموضوع أي اهتمام، إذ ما كان يعنيهم هو الانصراف الكامل نحو الأدب والفن، سواء كانت هناك بداية من البدايات، أو أن الأمر لا وجود له، وفى النهاية طحنت دوامة الحياة بمسؤولياتها المتلاحقة الجميع، كما أن احتراف الكتابة الإعلامية قد فعل فعلته هو الآخر، بالنسبة للكثير من العناصر، إذ ما يكاد المرء يستمرىء اللعبة الإعلامية، حتى يهجر بعد ذلك كل خيار عداه، وبالذات ما كان تطوعياً. لقد تخلى من تخلى، وتوقف من توقف، وانعدمت القدرة لدى نوع آخر. وذلك زمن مضى . لكن اللقاء الآن ربما يكون مناسباً للإفصاح عن مثل التصورات المحتملة أو النتائج المستخلصة، أو الصعوبات القائمة، لكن الردود التي أعيدت أثارت شيئاً من الحيرة، وأعادت حواراً مختلفاً.

لم يكن هناك بد من التصريح بكل هذه الهواجس عندما تيسر الانفراد بالرجل وغيره ممن تبودلت الثقة معهم، وتأكدت اللحمة بهم، إزاء الموقف من الماضي، فلا يمكن - حسب الظروف القائمة - أن يتنصل المرء من مسؤولية الادلاء بما يرى حول الأساسيات، ولو في شئ من التعميم، ومن بينها بعض الأحداث الكبيرة التي طالت الوطن العربي في عمومه. وعلى رأسها بعض المحاكمات التاريخية التي تعرض لها أساطين الرأى والفكر.

والمرء لا يستطيع الإحجام عن المشاركة بالرأى، وليس أمامه سوى إقرار التصرف، وربما حشر في قائمة الموصوفين بالانتهازية. وقد يجنح إلى الموقف النقيض فيتبنى الإدانة لما جرى في هذا الصدد، ولكن دون الانجرار نحو الموقف المستفز. فالقتل لا يمكن تبريره، ولا يجوز القبول به جزاء على أي خطأ يرتكب ما دام هذا الخطأ لم يصل إلى موت من يطبق عقوبة الموت.

مثل هذا الموقف كان من المفروض أن يتم الجهر به من قبل الذين أثيرت معهم هذه الأسئلة، فهو لا يشكل قرينة لثبوت تهمة من التهم بالنسبة لكل من ضمه المكان، بقدر ما يعنى أن من يجرى نقاشه في مثل هذه الأمور على قدر من المعرفة ومستوى من الوعي. ولكى يكون متسقاً مع ذاته فلابد من إدانة كل جزاء يقضى بالموت، ما لم يكن ذلك جزاء على موت مشابه، وأن تكون الدعوة إلى الحفاظ على الحياة لكل الناس من الأساسيات التي لا تقبل المساومة، ما لم يكن هناك من يعرض الموقف النقيض. بيد أن تقدير الموقف النقيض

يختلف من شخص لآخر، ومن حامل فكرة إلى حامل فكرة أخرى.

وعندما أكد موجه السؤال أن الرد بهذه الكيفية التحفظة، لن يحقق لمنصور رغبته في العودة من حيث أتى، كان هناك ميل للقبول بمثل هذا التوجه من كل من يعي طبيعة الأحداث وملابسات التجربة. وكان أن دفع الحدث بعد ذلك إلى حوار موسع بين كل الذين حواهم المكان، وهم يقطعون المسافة المحدودة جيئة وذهاباً، مكررين حديثهم حول هذه الإشكالية مثنى وثلاث ورباع، وهم ينفقون الدقائق والساعات والأيام.

* * *

كما هى سنة الحياة في تداعي الأحداث وتراتبيتها، أخذ النقاش يتجه حول ما إذا كان في وسع المرء ان يتنكر لعلاقته بالفكر، والى أي حد يمكن أن يكون ذلك مقنعاً، سواء كان هذا الفكر دينياً أو غير ذلك، وما إذا كانت طبيعة الحياة والحضور في الأحداث تقتضى التسليم بحقيقة الهوية السياسية، ولكن في إطارها المتنزه عن التأطير، أو الدفع بالتخلي على الأقل في الفترة موضوع الشبهة. ولا شك أن البعض يدركون أن مثل هذا الخيار هو المطلوب، وهو المجدى أيضاً حتى من الناحية الرسمية، إذ يستحيل على من أقدم على الخطوة المتمثلة في الحجز أن يتنازل عن مبدأ أن ما جرى - من وجهة نظره - ليس من فراغ، فضلاً عن أن الواقع الحقيقى والملموس من خلال مفارقات كثيرة وقرائن أكثر، وفى مرحلة من مراحله كذلك

أيضاً ، لكن اطرافاً فاعلة كانت تصر على رفض مثل هذا الخيار، ولا تجد غضاضة في وصف كل من يدفع باتجاهه بأوصاف غير دقيقة بل ومتحاملة أيضاً ، فضلا عن أنها مجافية للذوق والإنصاف.

إن مكمن الداء يبدو في أحادية النظرة التي ترفض أن تجهر بحقيقة أنها تدين ما تعرض له من تتفق معه في الرأى ومن كان يمثل إضافة من إضافات الفكر في مرحلة من المراحل، سواء في مجالات الدراسات القانونية الموسعة أو الدينية المستنيرة، أو الأدبية ذات الأثر الطيب في تربية الوجدان والذوق، فمثل هذه المعاني لا تقبل خطف مناضل بحجم فرج الله من شوارع بيروت أو دمشق، فلا يعثر على أثر له. وكذلك موت مثقف بحجم شهدى في الواحات، ولا تستطيب عدم الضيق من الصوت الإعلامي الساذج الذي يرتفع الآن في شبه احتفاء سقوط اللندي أمام مؤامرة بونشيه، الذي بدا وكأنه نسخة من زاهدى وهو يتآمر على مصدق وبقتل حسين فاطمى قبل عشرين كما يفعل الآن بونشيه، ذلك أن الذات كثيراً ما تسيطر على التفكير من جميع جوانبه وقد تدفع إلى اليأس من إمكانية حدوث أي خطوة إلى الأمام، ولا شك أن الترحيب بانقلاب بونشيه على اللندي المناضل الشهير، كان باعثاً على استشعار الخجل بكل ما في الكلمة من المعاني، إذ لا يجوز لأى سلطة تدعى لنفسها الموقف النضالى أي ترحيب أن ترحب بما اتخذ إزاء اللندي.

لقد اختلفت المواقف بصدد هذه الإشكالية، وبدت إلى حد كبير شخصية أصحاب الاتجاهات السلفية ما خالج نفوسهم من الارتياح

لتلك النهاية البائسة التي انتهى إليها بابلونيرودا ومن كانوا على نهجه. وكم راودت النفس من الأمنيات الرامية إلى ضرورة انتهاج الموقف المعتدل، بصدد هذه الإشكالية.

ولكن من أين للمرء أن يحقق ما يتمنى، وحتى إذا ما قدر له ذلك، فهل يمكن لأحد أن يقبل الرأى على حقيقته ودون أن يلبسه مجموعة من الأقاويل !

ومع عدم الميل إلى الأسلوب القائم على تحميل المسؤولية السياسية للطرف الأقل مكانة في مستويات القرار، بدا أن ما تناقلته وكالات الأنباء وأجهزة الإعلام تجاه أحداث شيلي وتبنى الموقف المؤازر لبونوشيه وكأنها صادرة من العاملين في مجال الإعلام وبالذات أصحاب الميول اليمينية، أولئك الذين لعب الكثير منهم دوراً بارزاً في الترويج لما عرف بالخطر الهدام الذي طالما قيل في أواخر الستينيات إن تفشيه كبيراً في الجهاز الإعلامي، هو الذي كان له تأثيره في تصفية الكثير من العناصر الكفئة، بحيث أصبح الآن من المتيسر القيام بمثل هذه الخطوة المعيبة المتمثلة في الترحيب الظاهر بما وقع في تشيلي ضد حكومة وطنية جريئة كان من المفروض أن يحجم العهد عن الترحيب إن لم يصل إلى مستوى الإدانة والاستنكار. لقد كانت اللحظة من أسوأ اللحظات وقعاً على النفس، بل يمكن للمرء أن يدعى أن وقعها على النفس وتأثيرها في زيادة استشعار المرارة في الحلقوم لا يقل عن ذلك الذي نتج عن الوجود في عالم القضبان، حتى أن وجوه بعض العاملين في حقل الإعلام من الذين

أدمنوا لعبة التأييد المطلق لكل سلطة تسود، بدت ظاهرة في الأفق وكأنما هى موجودة داخل المكان، وهى على ما هى عليه من الاهتزاز والتخاذل، فتغلب الحسرة على كل شئ ولم يعد هناك ما يزيد في الإحساس بالأسى.

كانوا جميعاً يطلون من بعيد أولئك الذين ترتعد فرائصهم من أي تطبيق من التطبيقات الاشتراكية، حتى أن أحدهم لم يجد حرجاً في الإعراب عن ضيقه من استعمال مصطلح الرفيق ذات يوم في إحدى البلاد العربية التي رفعت شعار الاشتراكية، كما لو يكن مصطلح الرفق من التعبيرات المعجمية التي عرفها التراث العربي وقال بصددها الكثير في متن التعبير ومجامع الأمثال، وغدا مؤكداً أنهم الآن خلف هذه السقطة الإعلامية الشنيعة المتمثلة في تأييد ما حصل في التشيلي بدليل أن الخارجية لم تؤيد الذي حصل، فبقى الموقف إعلاما صرفاً.

ترى هل ما يجرى الآن يدل على مسؤولية حقيقية إزاء الأحداث أم أن ما يتداول إعلامياً قد تم كيفما اتفق ؟

لقد تعذرت الإجابة. وما كان لها أن تتعذر، لكنها لابد أن تحاصر الذات المغلولة، فعلاقة هذه الذات بمحيطها فوق الظروف الطارئة، وعمق الإحساس بالمسؤولية يتجاوز كل المواقع والأحوال وما جرى في تشيلى خطير بكل المقاييس، ومؤلم من كل جانب، غير أن الموجودين هنا يختلفون في مواقفهم نحوه، وأكثرهم يبرره، دون أن

يتأثر بما تطرحه وسائل الإعلام إزاءه، وذلك هو الفرق بين من يعاني خطأ أهله وإن كانوا غير كرام نحوه، وبين من لم يكابد هذه الإشكالية.

إن الإحساس بالجرح واستشعار المرارة في الحلقوم، لا يصدر عن حالة شخصية، إذ لو كانت المسألة الشخصية لقال المرء مع القائلين:

"أنا الغريق فما خوفي من البلل"

وما دام المصير قد انتهى إلى هذه الحالة، فما الداعى إلى التفكير في أي شئ خارج الذات، وما يهم الذات المكلومة هو الخروج من هذه الحالة. لكن المسألة أكبر من الناحية الشخصية، فالخلاف يمكن أن يحصل، وسوء التقدير يمكن أن يحدث إزاء ما يخص الأفراد، أما القضايا الأكبر، فلا شك أن أثرها أشد قسوة، ووقعها بالنسبة للإنسان السوى أكبر وما يخص الأفراد يمكن تعويضه، والتجاوز عنه، أما الخيارات السياسية والمواقف المبدئية فهى أمور يصعب التساهل بصددها أو التجاوز عنها ، لاستحالة التعويض عن ذلك بعد فوات الأوان.

على أن محاولة التحرك تبدو صعبة للغاية، بل هى مستحيلة أيضاً. فكل حديث يتجاوز الحالة الخاصة يبدو من الأمور المحفوفة بالمخاطر، وكل إشارة إلى موقف من المواقف قد توفر قرينة من القرائن، والقرينة لابد أن تكون مخيفة، حين تكون التجربة في بدايتها، والخيانة في هذه الحالة شديد الصعوبة، بيد أن الحياة ماضية في مسيرتها، والواقع الخاص يحيط بالذات من كل جانب، ولا محال للقفز على كل التفاصيل المثيرة. والصمت سبيل إلى الجنون

لما يثيره من علامات الاستفهام. والكلام سبيل إلى الخلاف المشوب بالعداوة لما يسود الواقع الصغير، من جدية في التطور والعمل ، تصور يرى أن ما يجرى الآن في التشيلي هو عدوان على الشرعية وليس من حق أي سلطة وطنية أن تقف إلى جانبه، وآخر يرى أن الاثنين لا يستحقان من كل سالك للطريق السوى أن ينشغل بما يخوضان فيه من حيث وما يفترقان من أفعال. و" اللى يموت من الشياطين يخفف على الملائكة " حسب التعبير الشعبي الذي جسده المثل الخالد. والملائكة بطبيعة الحال ووفقاً لهذا التصور هم الذين لا يهمهم أمر كل الأطراف هناك، وكان ذلك دليلاً على ما يمكن أن ينشب من تطاحن بين الموجودين لو طرح النقاش في مثل هذه الأمور، وهو تطاحن قد يحول دون وجود أي مستوى من مستويات الحفاظ على الحد الأدنى من المعاشرة لو فتحت أبواب الخلاف الذي كان دوماً أخطر ما يتهدد من يفرض عليهم مثل هذا الوجود .

إن الإحساس بالمحاصرة يبلغ في مثل هذه اللحظات نهايته وأقصى درجات تأثيره، فإن تكون ضمن مجموعة لست منها يمكن أن يكون مقبولاً بعض الوقت وإن تفقد بعض الضروريات اليومية، قد لا يكون ذلك أمراً ذا بال، ولكن أن تكون المحاصرة من قبل الموجودين فهو أمر شديد الصعوبة، إن لم يكن مستحيل القبول.

لكن، أنى للمرء أن يهرب من هذا الواقع الصعب ؟ أنى له أن يجد من ينقذه من الاستماع إلى مثل هذه التعليقات الموغلة في السذاجة والسطحية إزاء ما يجرى في تشيلي، وهذه الوتيرة الإعلامية

الساخنة بصدد أحداثه المأساوية، لولا أن لهجة الإعلام قد تغيرت فجأة، ولم يعد الجهاز الذي وضع في الممر من البداية وهو يرسل بصوت مرتفع ومنفر، وصار منذ أيام يوالى بث ما جرى هناك بنبرة إعلامية ذات وقع عدواني، ومتابعة فيها الكثير من العدوانية، أخذ الآن ينحى منحى الاعتدال ويذيع في شئ من الحياد، فيشكل ذلك التغير مؤشراً في اتجاه الإحساس بالارتياح .

غير أن هذا الإحساس، وفى مثل هذا الواقع الضيق، يصعب التصريح به والتعبير عنه، بل ويتعذر أيضاً الانفراد بأى من الرفاق الموجودين لتبادل الرأى حول هذه المستجدات، فبقية الموجودين لن يكون تفسيرهم للأمر بهذه الكيفية، فلا شئ هنا أسهل من إثارة فضول الآخرين، لا شئ يمكن أن يحول دون استثارة حساسيتهم والكثير من هواجسهم .

كم يشتاق المرء، في مثل هذه اللحظات، إلى ذلك الجمع الغفير من الرفاق الذين أحسن انتقاءهم ذات يوم، ويحث معهم في الكثير من الأمور المتصلة بحركة الثورة العالمية، كمشروع وتوجه، والوطنية كبداية وأساس، فضلاً عن القومية كفضاء ومصير .

أسماؤهم في القلب، وجوهم ملء العين دفتهم ملء الوجدان والزمن في جميع الأحوال لا يعرف التوقف، وأعلن بذاته أنه يتحرك، والليل يتلو النهار، والعنبر في نهاية المطاف، وعلى ما هو عليه من الاكتظاظ، وبما توفر داخله من الحميمية يبدو في تضاريسه أكثر

قدرة على تجاوز العالمية على الأقل .

* * *

لم ينكر الظروف الصعبة التي أدت إلى مجيئه، ولم ير غضاضة في سرد تفاصيل مفارقات الحدث حين تيسرت الخلوة، عندما جيىء به مفرداً مفرداً ودونما رفقة بأى من أصحابه القدامى، ممن يفترض أن يكون بعضهم، أو كلهم معه قبله أو بعده، ذلك ليس بالمهم .

كان شديد الارتباك وهو يدخل على المجموعة، والممر الطويل ما زال مفتوحاً، والعنابر التي تفتح عليه كذلك مفتوحة الأبواب، بيد أن لحظة اللقاء تختلف بين من هو داخل المكان، ومن يكون قادماً من الخارج، وإن يكن العجز عن التعبير يفوق دوماً كل ما عداه . وبقدر ما يفلح الموجود في لقاء كل قادم بشيء من الابتسام ولو كان ذلك بالشفاه وحدها، بقدر ما يكون القادم أكثر ارتباطاً وأكثر حزناً، مهما حاول أن يكون ليس كذلك !

لقد ظننا في البداية أنه جاء وفقاً للحسابات القديمة بوصفه من ذوى التجارب المعروفة قبل حقبة من الزمن وأكثر، وإن كان هناك من استبعد ذلك . لأن الهوية السياسية للعهد لا تسمح بمثل هذه الوضعية، لكن السؤال الذي برز، وفى لمح البصر بأى سبب يمكن أن يأتي إلى هنا ؟

من جهته، قال ولم تمض دقائق على دخوله، وهو يرد على هذا السؤال الذي فهمه ضمناً من الموجودين الذين تحلقوا حوله مسلمين

ومرحبين بحكم العادة وهو يحى الموجودين، وفيما يدل على متابعة أخبارهم جميعاً :

- جئت في قضية خاصة ومن المفروض ألا أكون معكم. خالص.

بدت عبارة " خالص " التي نطق بها الرجل كطائر ضخم فريد الحجم غريب التكوين، وكأنه ينتشلني من المكان الملىء بأعداد الناس وأكوام الأحزان، فأستعيد الصورة التي رسخت، ولم يكن قد مر على قيام أول وحدة عربية سوى سنة واحدة، عندما وقف محاضراً في أهم مركز ثقافي عربي، عن الوحدة العربية، وهو يحشد كل ما هو عاطفي - حسب ما بدا لي - للتمكين لخطابه، تعينه على ذلك قامته الفارهة، وابتسامته العريضة وهدوءه المريح، فيكون لذلك كله تأثيره الواضح بما يفوق ما قيل من آراء، لتأتي بعد ذلك أحداث كثيرة فيها الحسن وفيها ما دون ذلك وتظهر أنشطة كثيرة بين أبناء الجيل، وتنمى العلاقات نحو آفاق أكثر احتراماً وأشد تفتحاً باتجاه المشترك والأشمل والأبقى .

لم يمض على الفراغ من تناول العشاء سوى الوقت الأقل، ورؤى فيما يبدو أن يمد في فسحة البقاء الجمعي بدلاً من الدخول إلى العنابر، ومن الضروري أن تختلف النظرة إزاء هذا التغير : فمن هم أكثر اعتماداً على الخالق يصرون على القول بأن القدر هو الذي حسم المسألة، أما الذين هم أكثر ميلاً نحو ربط الأفعال بالإنسان، فكثيراً ما يجنحون إلى التفسير الحالم، كأن يؤملوا أن يكون ذلك دليلاً على

قرب الخروج . وتظل أشد الآراء وقعاً على الجميع تلك التي ترفض الربط بين المعاملة وأى شئ يتصل بالمستقبل، لأن من يدخل إلى هنا لا يمكن أن يذكره أحد وما يفعله المكلفون بالحراسة لا يتجاوز المبادرات الشخصية، ومدى ما هم عليه من الأحوال النفسية .

كدنا أن نتحدث بعض الوقت لولا أن فاجأنا الأمر بضرورة الدخول إلى العنابر، فكان من الضرورى أن نفترق إذ لم يكن سكنه قد حدد وبالأحرى قد عرف بالنسبة لنا، ولم يكن هناك في العنبر مكان يمكن أن يتسع له، فلابد له أن ينتظر التوجيه، ولا مناص لنا من الانصراف إلى حيث المعتاد، كان هناك من خرس نفسه وأمطر الرجل بوابل من الأسئلة، فلم يزد على ما درج عليه من البداية وسط مشاعر الارتباك بالطبع، وكنا أيضاً ـ بعض الذين عرفناه من قبل ـ في دوامة من الحيرة، فقد اعتدنا أن نعتبر هذه اللقاءات من الأمور غير السارة .

عندما أقفل الباب من طرف المكلف به، وقد تصادف أن كان جديداً في تلك الليلة، ويكون بالتالى مدعاة للتدبر والتأويل، وربما الاستبشار لولا هذا التطور غير المطمئن . وإن كان احتمال الإذن بالزيارة قد أصبح الأقرب . لكن الحضور الجديد وللطاهر شخصياً لابد أن يشغل بال الجميع، ولا بد أن يأتى كل بما لديه .

لقد تضاعف الإحساس بالحزن، حين أقفلت الأبواب، وزاد الشعور باليأس من إمكانية أي انفراج قريب، ما دام الإجراء قد امتد

إلى هذه الشريحة والتى يفترض أن تكون مكلفة بالمشاركة وليس هذا الذي جرى.

كان الصمت هو سيد اللحظة. واللحظة في مثل هذه الظروف تساوى دهراً، فحين يذهب كل إلى عالمه الخاص، ولا يعرف أحد من الموجودين كيف يفكر، وفى أي عالم هو، بل وماذا يمكن أن يفعل لو وجد الجرأة ما قاله الرجل إزاء دواعى إحضاره إلى هنا، وعدم علاقة ذلك بالموجودين لم يبعد الصفة القديمة، ولم يدع إلى أي تخمين آخر، فالكل واثقون أن الماضى هو السبب، قيل ذلك أو نفي، ولا مناص من الحديث فيه وكالعادة أسهب المعلول في الحديث عن الفترة التي عاصر فيها الرجل أثناء الدراسة بمصر، وكيف كان الطاهر ينظم الصفوف أثناء الدراسة حين كان الجميع يمارسون النشاط السياسي بطريقة أو أخرى، ويتطاحنون فيما بينهم، وكان يومئذ أقدرهم على خلق العلاقات وقوة التأثير، ليصل الحديث بعد ذلك إلى السنوات الأخيرة. والحديث في هذا الصدد يجمع بين الواقع والتمنى، إذ يحدث أن تضخم الصورة على حساب الحقيقة أضعافاً مضاعفة، فالناس في أحيان كثيرة أسرى لأمانيهم، فيما كانت إشكالية الفراغ الفكرى الذي لوحظ على هذه الشريحة في سنوات التكوين تحاصر الذاكرة النشطة، والنقاش لا يعرف التوقف منذ سنين طويلة عندما كان المتسلحون بالوعي والموضوعية يثمنون مواقف هذا الفصيل الوطني بوصفه من الذين يعتقدون معتقداً محدداً ويعملون في سبيل تسويد هذا المعتقد، وليس كما يفعل البعض من الذين يكتفون بالقول

دون العمل . ومن يعمل لفكرة جدير بالاحترام أكثر من غيره، وعندئذ، يتدخل محمد في النقاش ليؤكد أن الأمر في حقيقته لم يكن أكثر من تجمع حول شخصية الرجل وحول سلوكياته الجيدة ومبادراته الإنسانية، والكم الهائل من الود الذي يتوفر عليه الناس جميعاً .

قلت هذا عن طرابلس فماذا عن بنغازى أيها العزيز، وإذا بالرجل يرد من هناك لو تأملت المسألة لوجدتها بذات الكيفية فالعلاقات الشخصية في الغالب صاحبة الأثر الأول . وهدف الكلام كان في المقام الأول التقليل من قدرة الفكرة السياسية على الإقناع .

هنا وجد الغالى فرصته في المزاح غير المبرأ من الغرض، حين أخذ في التخابث على المتكلمين، وكيف كانت مواقفهم إزاء ذلك الواقع، وبالأحرى مع أي تيار كان انحيازهم . الأمر الذي كان مصدر ازعاج ومدعاة للانصراف نحو أمور أخرى . لكن الحدث كان قوياً، ولم يكن من الممكن تجأهله . فأن يؤتى بشخصية في حجم الرجل ليقول بعد ذلك إن دواعى الحضور تختلف كل الاختلاف عن الموجودين هنا، فالأمر لا ينسجم مع شروط الواقع وملابساته الكثيرة، ثم لماذا جيء بالرجل إن لم يكن لذات الأسباب، فقد أكد يقول ما لديه، وفى النهاية لا يهم السبب، وإنما المهم النتيجة، وبكل المقاييس فهذا الحضور يشكل مؤشراً من المؤشرات غير السارة وغير الباعثة على الإحساس بالاطمئنان .

قبل عقد وبعض العقد كان الرجل ملء السمع والبصر إبان

ازدهار المد القومي ذلك الذي بلغ أوجه في انبعاث أول وحدة عربية حديثة، وقيام الجمهورية العربية المتحدة، عشية عودته ضمن من عادوا إلى الوطن حاملين مؤهلاتهم الجامعية، ومن ثم الدخول إلى الحياة العامة، والإقبال على النشاط السياسي الاجتماعي، ويومئذ أصر على عدم العمل في السلك الوظيفي فكان الحل متمثلاً في تقدير نفقات الدراسة بحيث أمكن الاستقالة، ليتيسر الإذن بالعمل في القطاع الخاص، وكذلك جرى العمل مع بعض مجايليه، وهو حل توصلت إليه إدارة الخدمة المدنية وصار مرضياً للجميع . كان هذا النفر من الشباب شديدو الإقبال على العمل الوطني والاجتماعي، وكان التحرك السياسي شبه معلن ولا سرية فيه، كما أن الترحيب الشعبي بنشاط البعض لم يكن خافياً هو الآخر، فمعظم رموز التيار كانوا شركاء في أول وحدة عربية معاصرة، سواء في الإقليم الشمالي سوريا أو رئاسة مجلس الشعب الذي تكون بعد الوحدة الوليدة، وذلك قبل إن يتفجر الخلاف وتمتد الفتنة إلى الكيان الوليد، وتقبل استقالات أولئك الرموز الواحد تلو الآخر، لينسحبوا بعد ذلك جميعاً إلى منطقة الظل، وينتهى الأمر بتفكك التجربة،، ولم يمض على قيامها سوى سنوات ثلاث وتم وأد الكيان الجميل في مهده، وتباغت السلطات الليبية التشكيلات عندما جرى اعتقالهم جميعاً، ليشهد التاريخ المعاصر أول محاكمة سياسية، تجمع أكثر من طرف. إن حظ التدخل فيها كان ضئيلاً، وإن المستمسكات كانت كافية ليس فقط لإدانة من جرى اعتقالهم، بل تضمنت معلومات مهمة عن بقية الفصائل الموجودة التي لم يحن

الوقت يومئذ لاتخاذ أي إجراء بصددها.

إذ ذاك ولج الرجل أبواب المكان، وقفلت عليه وعلى جماعته زردها فخاض يومئذ التجربة الأولى، وعرف الأقسام والعنابر وكل القواعد المتبعة وكان وجودهم يومئذ باعثاً لتحرك المجاملين ممن حملوا مشاعل الاستنارة، ليبادروا في العمل لتعديل قانون السجون، ليصار إلى التفريق بين الجرائم العادية وجرائم الفكر وقضايا الحرية، فطرح مشروع تعديل القانون المذكور، ليس قانون السجن السياسي، ولأن النظام الإداري ما زال قائماً على تعدد الولايات، فقد تم طرح المشروع على مجلس الولاية ليقدم بعد ذلك إلى الحكومة الاتحادية، الأمر الذي هيأ للقوى الوطنية التي جاء دورها لاحقاً أن تستفيد من هذا التشريع عندما تكررت التجربة عقب حرب الأيام الستة، عندما أشعلت النيران في آبار النفط وفي متاجر الأجانب من يهود وطليان، وتقرر إلقاء القبض على الناشطين في العمل النقابي إلى جانب الذين اختاروا الطريق القومي عبر حركة القوميين العرب تحديداً، تلك الحركة التي حلت نفسها عقب هزيمة يونيو وبالأحرى انشطرت إلى أكثر من جناح تبعاً لما أدت إليه الهزيمة من انقسام في النظرة، واختلاف الموقف إزاء المتغيرات، حتى إن هناك من رأى ما جرى في ليبيا قد جاء بعد فوات الأوان.

كانت العلاقة مع الرجل سطحية، بيد أنها ما لبثت أن تطورت، وأخذت تتعمق المرة تلو المرة، إلا أن اللقاءات ظلت محدودة، وفي إطار الصدف البحتة، ولم يتيسر أي شكل من أشكال اللقاء المرتب، رغم

حرص كلينا على إبداء مشاعر الارتياح لصاحبه ومظاهر الثقة المتبادلة، وما كان يلوح في الحياة من بعض مظاهر الارتياب الناشىء عن صراع الشباب وتنافسهم على كسب الأنصار من الأجيال الجديدة، ربما لأن العمل بالأساليب القديمة قد خفت، وربما لأن كل الأطراف قد أدركت مدى حاجتها لبعضها البعض، وكان الاحتمال الأخير أكثر مسرة للنفوس، وأدعى إلى بعث الثقة في بقايا الطموح القديم.

ولهذا لم نكن في حاجة لشيء، ونحن نلتقي داخل المكان، سوى أن ننتحي جانباً صغيراً لنعرف الجديد، ولننتهي من حيرة الحضور الفردي، ولم يكن ثمة من سر في المسألة إذ إن الصدفة قد لعبت لعبتها، عندما دخل الرجل في شراكة مع أحد الأشقاء العرب من غير المسلمين، ممن لم يكونوا موضع ارتياح لدى بعض الأجهزة فوضعته موضع المتابعة شبه الدائمة. وقد تمثلت هذه الشراكة في إنشاء مصنع صغير استغرق تجهيزه بعض الوقت خلال الأيام التي سبقت الفترة الحالية. وما أن أشرف المشروع على الانتهاء ومن ثم الشروع في الإنتاج، وذلك بعد الفراغ من إلقاء النظرة الأخيرة من قبل الشريكين، مما حدا بهما إلى امتطاء وسيلة نقل مشتركة ليمرا بها معاً على منزل الشريك العربي الذي خرج من بيته حاملاً حقيبته، لم تجد الجهات المكلفة بالمتابعة بداً من ضرورة الاطلاع على ما فيها، ليتبين أنها تحمل بعض الأشياء الممنوعة، كان الرجل عند تسليمه للحقيبة المذكورة قد أشار إلى أنها تحوى بعض حاجيات الرجل ثقة منه أنها كذلك، إلا أن المفاجأة أكدت أن الأمر ليس كذلك، فقد أصبح الرجل

مسؤولاً عن حيازة هذه المنوعات، فاقتضى الأمر أن يتم الاستجواب وأن يكون الرجل موضع شبهة لدى الجهات الأمنية، حتى وإن كانت على ثقة من عدم وجود القصد، فثمة في الحقيقة مستمسك ثابت ضبط في يد الرجل واقتضى أن يكون الاثنان موضع مساءلة، طالما أن الظروف ليست عادية، وثمة حديث عن وجود عناصر تقوم بأنشطة غير مريحة، وغير منسجمة مع حركة الحياة وتوجهات المجتمع، ومن ثم رؤى أن يقتاد إلى عين المكان وإلى ذات المجموعة، رغم أن الحالة خاصة والاشتباه مختلف ، مما جعله يتساءل من البداية عن دواعي إقحامه في التجمع، ولا يرى في رد الجهات المسؤولة أن الحالات الخاصة موحدة، وأن الدافع لهذا الاقحام هو الحرص على تجنيبه البقاء مع مجموعات أخرى تختلف عنه سلوكاً وسناً ومكانة، كما أن الظرف الاستثنائي والقول هنا نسب عنه الرواية للمسؤولين يوجد بين كل المجموعات، والممنوعات هي الممنوعات، كيفما كانت أو عليه، أو حتى زجاجات مغلفة بأجود أنواع الأغلفة وأجملها .

كان هذا القول نذير شؤم بما يمكن أن يؤول إليه مصير الرجل، فما دام الإجراء بصدده قد تم على هذا النحو فلا مناص من أن يلقى ذات المصير، لكن لابد من التماسك وإشاعة الثقة وبعث التفاؤل، رغم أنه يملك الرؤية والتجربة والبصيرة، غير أن اللحظة أكبر من الاحتمال، وكلمة الآخرين تبدو دائماً مهمة عند حلول القدر.

هناك يقين أن الصورة مكتملة، لدى الأطراف المعنية، إذ لم يكن الرجل نكرة من النكرات بقدر ما هو علم من الأعلام، وإذ لم تكن سلوكيات

المجايلين مجهولة عن بعضهم البعض ولا عن الجهات المسؤولة فقد كان ثابتاً أن الرجل بعيد عن كل الشهوات، سواء وهو يعيش في شوارع القاهرة أو يزرع مدن وقرى طرابلس ويقضى الليالى الطويلة مع مجامليه.

لم يكن متحجراً أو منغلقاً على نفسه، بل طالما حرص على مسايرة الخلص من أصدقائه وتوفير ما هم في حاجة إليه، لكنه ظل دائماً بعيداً عن الفعل ذاته، فهل يمكن أن تكون مثل هذه المعلومة ليست معروفة، لدى أجهزة عرفت بالدقة وسعة الاطلاع وقوة التغلغل في كل الشرائح، بيد أن الوقت لا يسمح بالمضى في الحديث، فقد أزف موعد دخول العنابر وكان لابد أن نفترق .

* * *

لم يكن في حاجة إلى كثير من الجهد، لكى يستعيد تماسكه، وينتصر على لحظات الارتباك التي بدت ظاهرة عليه، إذ ما إن علم الموجودون بالسبب المعلن، حتى بادروا جميعاً وبطرق مختلفة إلى اعتبار ما قيل وكأنه من نسيج الخيال، وحتى عندما بثت الشاشة الصغيرة لقطات عن تفاصيل الحدث وتم العرض في الباحة الكبيرة لم يقف أحد من الموجودين أمام الجهاز، فقد أشاح الجميع بوجوههم وكأن عورة من العورات قد ظهرت أمامهم، أو لحظة من لحظات الموت المحزن قد عرضت .

من جهته دخل الرجل في الواقع الجديد بكل قوة، ما إن حل موعد حلق الرؤوس حتى بادر يحلق شعره قبل إن يطلب إليه ذلك

أحد، وما تمكن من الانفراد بأى من معارفه حتى ساره بما لديه . دون أن يكلف نفسه عناء الحديث عن الحادث الذي وقع . تبين أنه منذ بداية الحملة لم يتأخر في بذل ما أمكن من الجهد، ومع أنه لم يكن على علاقة بالوالد إلا أنه لم يتردد في إرسالٍ أحد الأقارب إليه عارضاً ما يمكن أن يقوم به محرضاً على ضرورة الاتصال بمن تيسر الاتصال به عسى أن يكون لذلك أي أثر في تحريك القضية في اتجاه الحل . كانت قناعته قوية بأن كل جهد لابد أن يؤتى شيئاً من المردود، وأن السكون هو الذي يضر بالمسألة .

هيأت شراكة صهره أحمد لإبراهيم أن يتابع أخبار العائلة، ويعلم أن الوالد ما زال مقيماً معهم منذ وصوله في الأسابيع الماضية، من محاسن الصدف أن إبراهيم قد سكن الحى في ذات الفترة حيث تمكن من شراء عقار هناك، فضل والده أن يكون قريباً من أحدث المساجد وقد كان مصيباً في اختياره، فليس هناك نقطة دالة مثل المسجد في معرفة العناوين، وليس هناك مكان يمكن أن يحقق للمرء الكثير من الخدمات مثل المسجد، وبالذات حين يكون هذا المسجد حديث البناء كذلك الذي حل بجواره إبراهيم فقد كان محط أنظار سكان الحى جميعاً وهم يحلون بتلك الضاحية الجديدة وقد اكتملت كل مرافقها الخدمية .

أصبح كلانا شديد المعايشة لحالة رفيقه، وكذلك فعل كل الذين حواهم المكان، لكن العلاقة كانت مختلفة بين شخص وآخر، وقد انعكس ذلك على نفسية الرجل حيث صار أكثر ثقة في إمكانية التغلب على أثر الحادث، وعلى إمكانية التغلب عليه وإن لم يقلل من

خطورته ومن مشاركته في بعض الملابسات، حيث لم يكن دقيقاً في الانتباه إلى احتمال مثل هذه المرافقة، وعندما لاحظ أكثر من زميل أن مبدأ الملاحظة وسوء القصد ليس بالمستبعد لم يجد بداً من تصوير الحالة في شئ من التركيز والواقعية حين قال :

- واحد يدور فيك في السماء لقاك في الخرا.

كان هذا التعبير بمثابة التسليم بوجود مسؤولية ما أو مشاركة ما،، تم بواسطتها تبرير ما جرى ولو لفترة قصيرة، خاصة وأن الظرف لم يكن عادياً، أو هكذا تم تقديره . غير أن ما كان مثاراً للحيرة هو مدى تقبل الناس للخبر وهل سيقع الانتباه إلى ما اعتراه من المتابعة وسوء القصد أو أنه سيقبل كما أريد له أن يقبل . وفى النهاية رجحت فكرة عدم قبول الأكثرية بما قد يقال، تعويلاً على مبدأ الريبة في أي طرح رسمى ولو كان الخبر صحيحاً، ما بالك ومبدأ الاستغلال شديد الوضوح، فالحق أن المكانة رفيعة والسمعة عطرة والقاعدة الشعبية كبيرة الاتساع . وهناك والحق يقال، جملة من المقومات التي جعلته حرياً بذلك كله، فالخيار القومي الذي سلك طريقه واتخذ منه هوية له، يكتسب عمقاً في وجدان الجماهير، والحى الذي ينحدر منه، معروف بتعاطفه مع أبنائه على نحو يفوق الأحياء كلها، حتى أن ثمة من عاش في ذلك الحى ثلاثين سنة كاملة وما إن وقع خلاف بين اثنين من سكانه حتى استشهد به الخصمان باعتباره من الغرباء الذين ليس لهم انحياز مع هذا وذاك، وكانت يومئذ حادثة عجيبة كان لها وقعها في الأوساط الشعبية .

فضلاً عن ذلك فقد كان لاشتغاله بالقانون ومسؤوليات التوثيق على نحو خاص، وما اتصف به من ميل للتطوع نحو مصالح الناس ومساعدتهم ما وجد لذلك سبيلاً أثره الكبير في تكوين قاعدة شعبية شديدة الصلابة لا يكاد يمر يوم إلا وتزداد رسوخاً وعمقاً .

والحقيقة أنه كان من القلة التي لم تغرها شهوة الاحتكار في مجال عمله التوثيقي الخاص، حيث لم يكن ضمن ذلك الفريق الذي بادر بإدانة الجهات المختصة عندما قامت بتعديل قانون التوثيق بما يسمح لغير خريجي الحقوق للعمل في هذا المجال، وهو إجراء من شأنه أن يفتح أبواب المنافسة لعديد الشباب، فإذا به لا يكتفى بحجب العقيرة عن الاحتجاج وإنما أخذ يدرب الكثير من الشباب ويدفع بهم لخوض تجربة العمل انطلاقاً من الإدراك الجيد للمتغيرات الاقتصادية التي خلقت آفاقاً جديدة للعمل وفتحت المجال أمام الجميع .

. كان نظام الرجيم الذي وقع العمل به من البداية قد أدى دوره الكافي حين حصل نقص ملحوظ في البنية، اختفت بواسطته كل مظاهر السمنة القديمة وكان ذلك لافتاً ومثيراً لاسئلته، بل تخوفه أيضاً ، فقد خشى أن يكون ذلك نتاج مرض ألم، وقد كان الرد مزجاً بين المزح والجد.

ـ ما تلاحظه من حالة "التخسيس" نتاج توظيف المكان للرجيم والمشى اليومي، أما الذي سنقوله ذات يوم، فهو سوء المعاملة بالطبع!!

وكانت الابتسامة العريضة بحجم الباحة، فما أكثر من كان

ديدنهم معاداة الحقيقة في مثل هذه الظروف، ما أكثر من كان الخيال هو رفيقهم إلى كل حديث يقال . ليستمد بعد ذلك الحديث المشترك كل يسابق الزمن ويفضى بما لديه، فالوقت على طوله يظل قصيراً و لحظات الانزواء على الآخرين تبدو دائماً شديدة الندرة ولا سيما حين يكون اللقاء في بداياته .

يلخص الرجل فلسفته في التعامل مع الناس والمجايلين منهم على وجه الخصوص في قاعدة محددة، قوامها نظام الأرفف أو (القجور) كما نقول في اللهجة الشعبية، بحيث يقوم صاحب هذه الفلسفة بمحاولة معرفة مرافقه من جميع نواحيه ويقف على أخلاقياته في التعامل من حيث الصدق والأمانة والوفاء بالعهد وحفظ السر، وما إلى ذلك من الأساسيات ومن ثم يوضع في المكان الذي تؤهله له مثل هذه الأساسيات وتقتضى بعد ذلك طريقة التعامل معه . وهى نظرية لا تقبل باستبعاد أي كان من دائرة التعامل ولكنها تقصد التعامل في حدود ما يتوفر لأى كان من شروط التعامل، وهكذا يستطيع من يأخذ بمثل هذا الأسلوب أن يتجنب أي شكل من أشكال الاستغراب حيث يكون قد أدرك مسبقاً آفاق التعامل المنتظر، وإمكانية الاستمرار من عدمه. فلا مجال إذن لترك أي خلاف كى يستفحل أو يؤدى إلى ما اعتاده الناس من اتباع الخلاف بالقطيعة ، وإنما تقلص الخلافات إلى أصغر درجة من درجاتها، ويبقي على خيط التعامل مع الآخرين وفقاً لقدراتهم وللصورة التي حددت لهم فلا تكون بعد ذلك أية مفاجآت إزاء ما قد جرى وبالأحرى ارتكبه.

لقد عرفنا الناس في هذه المدينة الصغيرة وفى أوساط أخرى كثيرة مع بعضنا البعض وما يكون لنا إلا أن نكون كذلك، فعلينا إذن أن نحافظ ما استطعنا على هذا المظهر وأن تتحلى بأكبر قدر ممكن من التحمل، فإذا ما تقطعت الأسباب وتعذرت الاستمرارية، فلا أقل من الترفع عن إدانة الماضى، وعن شغل الآخرين في نشر الغسيل، واجترار أخطاء لم يكونوا سبباً لها وليس لديهم أي مصلحة في الحديث عنها أمامهم ومن ثم إثاره عجبهم بل واستهزائهم أيضاً .

كنت شديد الحرص على الإصغاء والتهام التجربة من كل نواحيها، فالحضور الاجتماعى المبهر والتأثير الشخصي القوى الذي يلاحظ في مواطن كثيرة يحتاج من كل من تتاح له فرصة التعرف أن يحسن استثماره وأن يخبر أعماقه البعيدة، وساعات النهار أطول من أن تمضى، رغم أن أوقات اللقاء ما زالت محددة بحكم أن الأبواب لا تفتح باستمرار، لكنها بشكل ما تبدو كافية للكثير، خاصة وأن بوادر البقاء صارت به واضحة لدى كل الرفاق، إذ إن تعدد الأسباب لم يعد يخفى الغرض الحقيقي والمستهدف الحقيقي . وكل من ولج أبواب الأقسام وقفلت خلفه الزرد، فلا بد أن يبحث وضعه مع الجميع .

إن المتابعة تشير إلى أن الطابع العملي هو المسيطر على التجربة، وان الهم النظرى يكاد يكون غير ظاهر . فيما يبدو الجانب الأدبي منعدماً ولا وجود له، لكن البديل عن ذلك كله يظهر في الانفتاح القوى على كل العناصر والحرص على امتصاص ما لديه من التجارب وحسن الإصغاء لكل من يتهيأ السير معه في الممر الطويل أو الباحة الأوسع .

لقد تركز الهدف بكل قوة في محاولة الاندماج مع الجميع والخروج من حالة الانتظار بعد أن دخلت فكرة وحدة القضية، وصار من الضروري أن يتهيأ القدر الأكبر من التماسك وعدم الإصغاء لبعض الكلمات التي كانت تأتي عبر لقاءات العيادة الصحية، حيث كان بعض الأمنيين السابقين يسعون إلى تحسين صورتهم أو التخفيف من قتامة ماضيهم وهم من هم في ميدان الإساءة لهذه القوى التي حرروا عنها ذات يوم أسوأ الصفحات وأكبر المبالغات، حتى عندما لم يكن من الاختصاص ما يدعو لذلك أبداً .

* * *

ما كان فالأغير طيب، أو امنية غير حسنة، ذلك التحريف الذي أدخل على الأغنية المتشنجة والساذجة أيضاً التي كان مطلعها:

"مكانك مش في القهوة نوض

مكـــانك فـــي المـــيدان "

فغدت تنطق :

"مكانك مش في العنبر نوض

مكانك في الزنزانة نوض"

والحديث يوجه إلى حميد، الذي لم يكن معروفاً قبل هذا اللقاء عن قرب بالرغم من أن اسمه كان شديد الحضور، منذ عودته من إيطاليا التي أوفد إليها في دورة دراسية مطولة في أواخر

الستينات، وعقب نكسة يونيو مباشرة، فقد كان يومئذ مصدراً من مصادر الكتب التي لم تكن متوفرة بشكل انسيابي، بقدر ما كانت تتناقل بواسطة التبادل وكان في مقدمة من لا يبخلون اإن لم نقل يسعون بكل الجهد، كي تكون متاحة لأكبر قدر ممكن من المثقفين الذين يميلون إلى نهجه الفكرى بشكل أو آخر، وذلك في حماس شديد وحرص على النشر.

كان في ثلة من الشباب الجيدين، أشقاء وأصهار وأقارب، فهم عائلة بأتم الكلمة، لكنهم يمثلون حضوراً فكرياً واضح المعالم، يمكن للمرء أن يلمسه من أول كلمة تقال، ولعل الكلام عنهم قد ارتفع عقب تلك الندوة الشهيرة التي أطلق عليها ندوة الفكر الثورى، واختلفت المواقف منها ودرجات الإسهام فيها، وكذلك تحديد الغرض من إقامتها أيضاً.

يبدو أكثر حركية من الموجودين جميعاً، وهم أيضاً لا يخفون اعتزازهم بما لديه من قدرات، وبالذات حين ينجو من حالات التيقظ الحالة التي قد تضربه بين الحين والحين، فتضاعف من معاناته بشكل مرهق للصحة.

لكن هذه الحالة لحسن الحظ قد بعدت فصار الآن أكثر قدرة على الحركة وعلى معالجة الكثير من الأمور النظرية. لكن درجات الحماس ليست واحدة حتى بين أصحاب الخيار الواحد، فللسن أحكامها، وللظروف الشخصية أيضاً، وليس من حمل أعباء الأسرة

كمن لم يحمل بعد أي مسؤولية، مع أن أكثرهم كان مرتبطاً، وربما صار مستعداً أيضاً للزواج لو لم يحدث ما حدث . على أنهم أكثر أثرة للآخرين منذ اللحظات الأولى، وان اختلفت الرؤية بصدد المصير المنتظر، وبصدد ما يمكن أن يقال، رغم أن مستوى التفاؤل مرتفع، ربما لليقين بأن أي ممارسة ضارة لم تحصل، وربما لعدم القراءة الواعية لظروف المرحلة، أو لأن طاحونة الحياة قد طحنت الجميع . بيد أن السؤال الذي لا يمل القوم من ترديده، هو مدى الاكتفاء بالحجز دون الانشغال بمسألة الإثبات، أو الأدلة بالأصح، بمعنى أن الإقدام على هذه الخطوة يستوجب بالضرورة وجود المبررات المقنعة، أو ما يساوى حجم الضجة الإعلامية التي أخذت تتحدث صباح مساء عن الأنشطة المعادية والمعرقلة كذلك للمسيرة .

وعندما دخل نورى إلى القسم وأخذ معه دفعة واحدة كلاً من حميد وعبد العزيز والشرع ومنعم وفاتح وشعيب دفعة واحدة، مضيفاً إليهم كبار العيلة ، كان ذلك يعنى أن الزنازين قد فتحت، وأن شيئاً من الأشياء قد شرع في تطبيقه، وقد لا يخلو الأمر من سوء المعاملة وسيطال هذه الكوكبة من الناس الجيدين، ولن يقتصد أحد في التخمين بما سيجرى، وقد لا يخلو الواقع هناك من يتطوع بتقديم ما لديه وربما ما ليس لديه أيضاً ، مرة من خلال استرجاع أحداث مضت، ومرة أخرى من خلال التركيبة العجيبة التي اقتصرت على الأقارب الذين لا يخفون هويتهم الفكرية، ولا يجدون غضاضة في البوح بحقيقة تحرك ما في زمن ما في مكان ما، وفقاً لمعطيات

كانت قائمة وظروف مجتمعية غير متكررة وهم غير مكترثين بالتغير المفاجىء الذي طرأ على الحياة والذى جعل البعض يكاد أن يخرجوا من جلودهم وهم يواجهون الواقع الجديد، ويعيشون مع خليط من الناس لا يجد بعضهم حرجاً في اعتبار هؤلاء الشباب جديرين بكل سوء وربما لا يستحقون الرحمة ولا حتى المعاشرة .

لقد صاروا جميعاً إلى مكان خاص، ولم يعودوا مثل كل الناس، بعضهم يلاحظ في طريقه إلى هذه الجهة أو تلك، وبعضهم الآخر يتم الخروج به في غير ساعات فتح الأبواب، فيثير القلق في مشاعر البقية التي تطالها ذات الشبهة . وقد يجرؤ على إرسال نظرة أو ابتسامة، أو إشارة من الإشارات . . وقد تحاصر اللحظة الصعبة الموجودين فيعجزون عن ذلك كله . فمن كان بعيداً يكون مقدار حساسيته أكبر من غيره، ومن كان داخل التجربة فإن حساباته تختلف ورؤيته تبدو دائماً أكثر اتساعاً . والفرق كبير بالطبع بين من هو في مواجهة مصيره، وبين من ينتظر ما ستأتي به الأيام، بيد أن تمرير السجاير ما لا يزال المؤشر الأساسي باتجاه الاطمئنان، وهناك بطبيعة الحال من يصر على انتظار الأسوأ، فلا شئ في هذه الحياة الضيقة يمر دون أن يخضع للتحليل والتأويل والبحث الدائم عن سر ما، لقد انتهى زمن العادى من الحياة والناس وصار لكل شئ معناه ولكل حدث مهما صغر أبعاده ومغزاه، وكثيراً ما يكون نذير شؤم، أو بداية خطر من الأخطار، فلولا الخطر ما وجد من وجد هنا، ولو لم يكن هناك خطر فلابد أن يكون موجوداً، ذلك هو المنطق السائد، ومن

يخـرج مـن معايشـة هـذا الإحسـاس لحظـة فلابـد أن يعـود إلـيها فـي لحظة قادمة .

ومـع أن قطـار الخـروج من السكون قـد تحـرك، عـندما استدعي المختـار وجمعـة وفضل وخـالد ومفتـاح، ولم يـتجاوز المدى الزمـنى لكل واحـد سـاعة أو أقـل . ولم تكـن طبـيعة الأسئلة مخـتلفة أو متصلة بـأى أحداث حتى أنهم استطاعوا أن يبلغوا بما لديهم في سرعة البرق، إلا أن توقف المناداة بعد ذلك، وعقب حديث تناقلته وسائل الإعلام عن العثور على كميات من الكتب تم إخفاؤها أثار موجة من القلق ما لبثت ان طالت كل من استطاع أن يتخلص من كتبه في الوقت المناسب، ولم يتم ضبطها معه، فسرعان ما تبادر إلى أذهان الموجودين أن جديداً ما سيحدث، بل إن توقف المساءلة جعل البعض يفترض أن نوعاً من الإعادة لابد أن يتم، على ضوء ما عساه يكون قد ضبط من مستمسكات .

لم يكن ما أمكن التخلص منه شيئاً مهماً من حيث الدلالة، فكل الكتب اقتنيت من المكتبات العامة أو دورات المعرض القديمة في أوائل الستينات، لكن بعض الكتب كان ممهوراً بإمضاء مؤلفين من الكتاب العرب الذين عرفوا بعض الأسماء فأهدوا إليها ما أمكن طبعه من إنتاجهم الذي وقع التعرف عليه منذ سنين طويلة ويخشى الآن أن يشكل هذا الإهداء دليلاً على وجود علاقة ما أو نشاط ما، فالاتصال بالخارج ما يزال هو المؤشر على كل شئ يمكن أن يكون غير مقبول . أكثر من رفيق فعل ذات الفعلة، وكان لعامل الوقت أثره ولوجود الجار

الطيب كذلك دافعه، لكن الذين عرفوا بالرعيل الأول فقد كانوا أكثر اطمئناناً من غيرهم، إذ صودرت الكتب دون أي استثناء، وثمة من كان يهمه أن يقع ذلك سواء لاستحالة التخزين، أو لأنه لا يريد لأحد من ذريته أن يقرأ مثل هذا النوع من الكتب التي قد تجلب المتاعب ذات يوم، وصوت المذيع المتشنج يعيد النبأ عن الكتب المضبوطة، وكل من سرب كتاباً أو كتباً سيعتبر نفسه معنياً بالأمر، ولا أحد لديه الوقت كي يصغى لمن كان يصر على أن الكتب لا تعني شيئاً على الإطلاق، فمن تحاصره الحالة الخاصة لا يلتفت مطلقاً للحالة العامة، ومن يستشعر الخطر بشكل ما لا يتعامل مع الأمور من خلال المنطق، وهذا التعطيل الذي جعل من المستبعد أن يكون بعيداً عما تردد الإذاعة . حتى عندما مر عبد الرحمن في الباحة وحيا من بعيد قائلاً :

ـ أولادك بخير ووالدك معهم، وارجعت المعلومة إلى إبراهيم الذي يسكن على مرمى البصر وعلمت من البداية أنه في أحد الأجهزة، لم يكن ذلك مطمئناً بما فيه الكفاية ولم تفلح حالة الارتباك التي ظهرت على عبد الرحمن وهو يحى من بعيد في إبعاد حالة التوتر، فقد نودى على الجميع، فلم يبق سوى أبي حسام، فكيف يمكن القبول بهذا الاستثناء لو لم يكن للأمر سر من الأسرار.

تضاربت الآراء حول اللجوء إلى الانفراد، وما في حكمه، فثمة من يرجع الإجراء إلى ناحية مبدئية صرفة، وهناك من رأى أن السر في خصوصية المجموعة هى التي اقتضت الإجراء، فالتركيبة الأسرية توجب عزل الأفراد عن بعضهم البعض . وهناك من يعتبر ظروف

المحيط هى المؤثرة، فما دام تحرك هذا الفصيل قد تم في مسقط رأسهم وبين أهلهم وذويهم، فمن الضروري أن تحدث مبالغات كثيرة في تصوير دورهم . وهناك من يعزو الأمر إلى طابع شخصياتهم جميعاً من انفتاح على الجميع فضلاً عن أن القوى السياسية في الوطن العربي عموماً ، وعقب نكسة يونيو ، بالغت في حماسها للفكر اليساري على نحو لم يقترب منه سوى بعض المعادين للفكر السلفي، حين رأوا في العودة إليه جوهر الحل الأمثل والسبيل الكفيل بهزيمة الأعداء، خاصة وأن احتلالهم قد شمل بيت المقدس .

لقد تميزت الفئات التي اختارت الطريق اليساري بنزعة متطرفة إلى حد كبير، حتى انها لم تعر كبير اهتمام لبعض الثوابت، ولم تقدر أيضاً الكثير من شروط المرحلة، وكان ذلك مدعاة لسرور العديد من الرموز القديمة التي رأت في الخيارات شيئاً من التجديد للشباب القديم الذي نالت منه بعض النزعات المترددة والحسابات الكثيرة، وعندما ضمت القضبان مختلف الفئات كان من المتوقع أن تكون المستمسكات أكثر توفر لدى بعض الفئات الجديدة ، إذ ليس من هو في ريعان الشباب كمن طرق أبواب الكهولة، وليس من لاذ بالصمت وأصبحت حركته سكونية، ولم تكن له حركة من الأساس، كمن طاف أرجاء العالم وأنشأ الكثير من العلاقات الخارجية، وحاور أصحاب القرار من خططهم ومشاريعهم وربما استفزهم برؤيته وتطلعاته، وأثار بالتالى شكوكهم وتوجسهم، وليس أدعى إلى إثارة الحركات الراديكالية وهى تمسك بالقرار مثل أولئك الذين لهم الرؤية المشابهة والوسيلة

المناوئة، حتى أن الموقف من هؤلاء كثيراً ما يكون أعنف إزاء الخصوم التقليديين، غير أن الحيرة كانت على الدوام في مدى انعكاس ذلك كله على الفئات التقليدية ممن وضعوا في ذات الوضع ولم تكن مواقفهم تؤهلهم لذلك، سواء اعتبر ذلك من منطلق الإدانة أو منطلق التقدير من هنا كانت تطمينات عبد الرحمن عن الأسرة وهو يقطع الباحة بمثابة البرقية العاجلة عن ملامح المرحلة المقبلة .

كنت على علم بموعد مجيئه، فقد كان دائماً هكذا لا يغيب أكثر من أربعة أشهر عن المدينة كما أن ما جد لابد أن يدفع به إلى الحضور والإقامة أيضاً ، وربما وجد سبيلاً للتحرك والمراجعة، ولم يكن ذلك مطمئناً بالكامل، فثمة خوف من أن تكون الآذان غير مصغية لما يقول أو يطلب، وقد لا يستطيع تحمل بعض الردود التي لا تكون سارة في مثل هذه الظروف، بيد أن ذلك لم يكن تحت التصرف الآن وما جرى جرى، ويرى الحاضر ما لا يرى الغائب . ذلك ما تيسر التسليم به .

* * *

لم تثر كلمات عبد الرحمن السريعة عن الأسرة مشاعر الاطمئنان فحسب، بل إنها من جانب آخر حملت البال إلى هناك، حيث تقيم الأسرة في ذلك البيت الذي لم يتيسر رفع أسواره المنخفضة، ولا حتى صون أبوابه بما فيه الكفاية، فقد كان يحتاج إلى الكثير، ولا شك أن الأسرة الصغيرة تواجه ذلك الواقع بشيء من الضيق، وسيزيد من ضيقهم نسبياً ميل الشيخ إلى كثرة المدائح ذات الإيقاع المحزن، تلك التي تلازمه

فـي كـل حـالات ضيقه، وهـو الآن يعيش أصعب اللحظات بدون شك، فبدت صورته وهو يستنجد بجميع أولياء الله، وبقدر ما يكون الوجود مؤنساً مـن ناحيـة، بقـدر مـا سيكون مـثل هـذا الأسـلوب مـثيراً للقلـق والأسى، بيد أن المرء لا يمكن أن يبوح بمثل هذه المشاعر، فما دام الشيخ الكبير مع الأطفال فمن المؤمل أن تكون الأحوال حسنة .

والواقـع أن المعلومـة ليست جديـدة بمـا فيه الكفايـة فقد تمـت الدعوة منذ وقت قريب إلى مكتب المبروك حيث كان في الانتظار يوسف بملابسه الرسمية ليقوم بمقابلة شبه رسمية أمكن بواسطتها التوقيع على عدد من الصكوك، مما أشار إلى أن المرتبات لم تتوقف، وكـان ذلك أكثر من غيره باعثاً على السرور والاطمئنان، فأن يعيش الأطفال على مرتب الدولة أفضل بكثير من صدقات الأهل وإحسانهم، بل إن التوكيد بأن هذه المرتبات لم تتوقف، كان يعني أجمل البشائر التي ينتظرها كل إنسان ما كان مخيباً للأمل في تلك اللحظات أن يوسف لم يكن حـاملاً معه شيئاً من السجاير، وكـان فـي مقدمة ما تاقت إليه النفس وهو يعرض خدماته أن يكون لديه بعض العلب، حتى يمكن للمرء أن يسر بقية الرفاق ولكنه كـان خـالي الوفـاض فخيب ذلك آمـالاً عريضة، وعندما سأل المبروك عن حالة السجاير همس له ببعض الكلمات فيما فهم معه أن الأمر ليس اجتهاداً .

كـان الوقت المتاح للبقاء فـي الفناء قد مدد بعض الشيء، فبدا هذا التمديد كبير الأثر في التخفيف من ضيق النفس، وأخذ المكلفون باستجواب الموقوفين يجودون بما لديهم من السجاير، مما جعل لهذه

المهمة أثرها على كل من يتم استدعاؤه ولم يعد الموجودون ينشغلون بطبيعة الأسئلة بقدر ما كان انشغالهم بما يتوفر من الدخان . كان الجميع يلتهمون الوقت جيئة وذهاباً، ويبدو الفناء الصغير بحجم العالم كله، وقد يمتد التفكير نحو أولئك الذين لا يعرفون هذا الضوء منذ سنين طويلة، ولم تفصلهم عن المكان سوى حجرات محدودة، غير أن الحديث في مثل هذه الشئون ليس مريحاً للجميع بل ربما بدا للبعض بمثابة الفضول والتزيد، فثمة في مثل هذه الظروف من لا تهمه سوى حالته الخاصة، وثمة من أخضع نفسه لنوع من الرقابة الذاتية حتى أضحى يخشى كل شئ . وهذا النوع من الناس يظل دوماً أكثر تعباً من غيره، فلا الذين يخشاهم يعملون عن خشيته هذه شيئاً يمكن أن يكافأ به، ولا الذين يعيش بينهم قد أفلح في الانفتاح إليهم والبوح لهم بما لديه من مشاعر وأحاسيس باتجاه المجهول . لكن التأكد من صرف المرتبات فاق أثره كل شيء، وخفف بما لا يوصف من كل مشاعر الحسرة والأسى، حين حضر يوسف أمكن الحصول على النظارة الطبية التي سبق أن حجزت ضمن الممنوعات، وكان الهدف استثمار الوقت في المراجعة للذكر الحكيم . وقد وجهت المراجعة باتجاه التأمل وليس إعادة الاستظهار على الطريقة القديمة، فقد بدت الطريقة القديمة غير ذات جدوى بعد أن أصبحت المسجلات بين أيدى الناس يمكنهم الرجوع إليها أنى وجدوا، فليكن الجهد الذي يبذل باتجاه جودة القراءة وتدبر المعنى، غير أن هذا التصور يتعذر الجهر به للجميع ، فللنص قدسيته، وللفهم قدرته على التأثير، وحتى إثارة الأسئلة الصعبة .

كانت هناك بعض اللقاءات التي رؤى عدم البوح بها لكن مقابلة يوسف لم تدخل في ذات السياق، وإنما وقع التصريح بها فوراً، ولأن كل من يوجد في مثل هذه الظروف يشبه إلى حد كبير حالة الغريق الذي يتشبث بقشة البحر، فقد اعتقد البعض أن للزيارة معنى يتصل بسير القضية، ولم يكن هناك مجال لتعميق هذا الإحساس، إلا أن الذي لا شك فيه أن للمجيء علاقة ببساطة الأمر، إذ لو وجدت مخاطر حقيقية لما بادر مطلقاً بالمجيء، وإن كان للإلحاح الذي دأب عليه ابن الخالة أثره في القيام بالمبادرة، كما أن تزامن ذلك مع إخلاء سبيل طالب وحسن من بنغازى ونصر الدين وعبد الهادى وعبد الله من طرابلس كان أيضاً له دلالته.

إن مرور الساعات في ثقله يفوق الجبال الرواسى، والأحزان كذلك أكبر من المدى والليل دائماً يعقبه النهار، وكل مغرب شمس يؤدى إلى ارتفاع صرير الأقفال في الآذان وصرير الأقلام عند من بيده مصير الكون . ومن بين من في الكون هذا الرهط من الناس، فتقضي أمور وتعلق أخرى، وتفرض الأقلام واقعها، وتملى الظروف العامة شروطها وتهيء للنواميس الثابتة كى تسود، وقد بدا واضحاً أن قطار السير قد تحرك، وأن التوقف لم يعد هو السمة العامة .

حتى مجيء ابو قرين من الحدود الغربية، والعابد من بعض المراكز المهمة، وهما اللذان قد تخرجا من الجامعة في وقت قريب، ورشح أحدهما للعمل في مكان رفيع المستوى، ودفع بأحدهما لستلمي موقع في التجربة الوليدة، حتى هذا الحدث الذي حصل

حديثاً، وأثار ما أثار بالنسبة لبعض المتشائمين، لم يكن له أثر على العقول التي تعاملت مع الحدث من منطلق أبعد، وعقلية أوعى، فقد انعقد الإجماع على أن هذا الحضور من الأمور الاستثنائية ولا يتصل أبداً بالمسار العام، وذلك بعد أن شرح كلاهما خلفية الإجراء المتصل به، فقد جاء العابد نتيجة تمكن أحد منافسيه من الإيقاع به لدى الدوائر المسؤولة، في حين أوقع " بأبي قرين " صراع القبائل، إذ لم يحن الوقت كي يتمكن العربان من أخذ حقوقهم وإن ارتفع الحديث عن الجانب العربي الذي كثيراً ما واجه بعض الإجحاف.

هناك بطبيعة الحال من تستريح نفوسهم لزيادة العدد، بل البعض لا يرون غضاضة في التساؤل عن سر عدم مجيء هذا الشخص وذاك، فالضيق بطبيعته يدعو لمثل هذا التساؤل، وقد يدفع للاستغراب المشوب بسوء الظن، تجاه كل من تعذر حضوره لهذا السبب أو ذاك، فيكون الغائب عرضة للأقاويل، على اعتبار أن الاستثناء دليل على وجود المحاباة، ومن تمت محاباته فلابد أن يكون قد دفع ثمناً ما، خاصة عندما بدأ الاستجواب وجرت مناداة الجميع الواحد تلو الآخر، وصار من الأمور المألوفة أن يأتي الحراس ليأخذوا معهم من يأخذون ليقضي الوقت الطويل ثم يعود لأخذ بقية أشيائه ويذهب إلى القسم الآخر.

لقد تأكد أن المجموعة كلها تنتقل بين قسمين لا ثالث لهما، وذلك عندما عاد محمد العارف وعبد الحكيم ليقيما مع المجموعة بعد فترة في القسم الثالث، وبضعة أيام بشكل فردى، وكان هذا الوضع مقلقاً بعض الشيء إلا أنه من ناحية أخرى أكد المعلومة المتصلة

بالعدد الإجمالى للموجودين والذى قدر بأقل من مائتى شخص جمعوا بين الموظف والطالب والتاجر، وشيخ العلم والمدرس والصحفى والأديب والمحامى ورجل القضاء .

إنهم الذين مارسوا النشاط العام طوال العقدين اللذين سبقا العهد وعرفت عنهم بعض المواقف الرافضة والتوجهات الفكرية الدالة عليها، سواء وهم يتبنون المفاهيم الدينية ويتعصبون لها، أو المناقضة لها والمنفصلة عنها، أو التي كانت بين ذلك قواما، ويجرى الآن استجوابهم والوقوف على توجهاتهم وسبر أغوارهم البعيدة .

كل حسب ما وجد عنه من البيانات، وربما ما ينتظره من الأدوار وكذلك ما يتوفر لديه من الإمكانيات . كل ذلك وفق وتيرة تنخفض مرة وتعلو مرة أخرى . . نأخذ مع البعض مساراً شكلياً، وننحى مع البعض الآخر منحى أكثر تشدداً أو أشد تركيزاً، على أنها في جميع مراحلها تثير التفكير وتبعث على الاهتمام، وتدعو إلى التأمل والاستنباط .

* * *

قبل أن يأذن بالإجابة على الأسئلة التي شرع في إملاء مقدمتها على مساعده المكلف بكتابة المحضر، حاولت أن أتبين ملامحه التي رسمت في الذاكرة ذات يوم في قلب مدينة طرابلس، وفى إحدى مناسباتها الكثيرة وهو يرتدى ملابس السلك الرسمية في صائفة من الصائفات البعيدة، وقد غلب عليه في ذلك الزمن لقب الصاروخ، بحكم القامة الفارهة والبنية القوية، كنت بين الواثق من صحة هذه

المعلومة أو الحادثة، وبين المتشكك في صحة ما لدى فللموقف رهبته وللحظة وقعها، بالرغم من الاستقبال الطيب والمكان المطمئن.

من الملاحظ أن الأسئلة كانت معدة سلفاً ومرقونة على ورق خاص، وهي إلى الاستبيان أقرب منها إلى الحالة الخاصة، إذ لم يتجاوز في مجموعها ذكر عدد من الزملاء الموجودين، وزمن العلاقة بهم، والكتب التي ضبطت واعتبرت ضمن المستمسكات بصدد الاتجاه السياسي، واعتبار ما يتصل بهذا الاتجاه من قبيل الإشاعة . إلى غير ذلك من العموميات التي من الممكن الحصول عليها بيسر ودون محادثة المعنيين بها مباشرة، ما بالك لحجزهم في ذات المكان، ولم يتفرع منها بعد ذلك أي جديد .

كان ثمة شئ غريب في شخصية من كلف بتدوين الإجابات، لم أستطع تبينه من اللحظة الأولى، ولكن سرعان ما حصل الانتباه بعد ذلك، هو أن عملية التدوين كانت تتم باليد اليسرى وفى شئ من التلقائية والانطلاق . هذه هى المرة الثانية التي ألتقى فيها من يكتب بهذه الطريقة، فقد سبق أن وقفت على هذه الحالة لدى شكرى عشية انتقاله إلى وكالة الأنباء الليبية قبل سنوات مضت، حين أسست تلك المؤسسة وأعلنت عن شغل بعض وظائفها بواسطة الامتحان ووجد شكرى فرصة في تحقيق قفزة جيدة في مجال الوظيفة، لنقضي بعد ذلك أمسيات طيبة ولقاءات جميلة وسارة، ما أبعد المسافة بينها وبين الموقف الآن .

كانت الصورة، على ما يبدو، واضحة لديه. ربما لأن الذين سبقوا قد أعطوا ما فيه الكفاية، وربما لأنها بالأساس لم تكن غامضة، ولا مجال فيها للبس، فخمسة عشرة سنة في النشاط العام وفى ميدان الكتابة على وجه التحديد، وعبر واقع صغير لواقعنا، لا يوجد شئ يحتاج إلى التوضيح، ومن كان في العقد الرابع من العمر، وله في السلك الإداري مكانه المعروف يعتبر الآن من جميع جوانبه واضح المعالم، ولا يحتاج إلى معلومة إضافية.

لهذا، ربما، لم تطل الجلسة كثيرة، ولم تحصل بصددها أي مفارقات، حتى أن دعوة الحرس بضرورة النقل إلى حيث يوجد الذين انتهى استجوابهم بدت في اللحظة الأولى شبه مفاجأة، رغم أن الذين سبقوا قد رجعوا بنفس السرعة، لكن اللحظة الخاصة كثيراً ما تتجاوز في المشاعر ما عداها. على أن الذي جعل الفرحة لم تكتمل هو أن السجاير لم تكن متوفرة لديهم، فكانت العودة مخالفة لبعض السابقين، حيث اعتادوا أن يأتوا محملين بشيء منها، فتكون العودة سارة، فلم تتجاوز الحصيلة ثلاث سجاير التقطت في المدخل من أول الموجودين، مع أن الأمور بصدد هذه الجريمة، قد أخذت في الانفراج لكثرة الذاهبين والعائدين لهذا السبب أو ذاك، وما هى إلا لحظات حتى جرى أخذ الأشياء، وما أقلها ليتم الانتقال إلى هناك ومن ثم الالتحاق مع بقية المجموعات، التي نؤدى بها الواحد تلو الآخر، واتبع بصدد ندائها فيما يبدو تاريخ الحضور الأول، وكلما تأخر المجيء من البداية فمن الضرورى أن يتأخر الاستنطاق وربما سيكون

ذلك أيضاً بصدد الخروج حين يأزف موعده، ولكن لا بأس فكل الأمور الطبيعية لابد أن تقبل. والالتحاق بالمجموعة يعتبر في وقعه على النفس عند الإذن به، مثل الالتحاق بالأهل.

يوجد في نهاية القسم، وشأن بقية الأقسام مكان يطلق عليه "الباقامينتو" هو عبارة عن شقة صغيرة تتألف من ثلاث غرف وحمام كانت في القديم تخصص بمقابل يدفعه كل من يحل نزيلاً هناك، حين يكون هذا النزيل ضابطاً من ضباط الفاشست أو سياسيهم أو صاحب مكانة جديرة بالفصل عن الآخرين، وهو أسلوب له مبرراته قديماً ولم يجر العمل به بعد ذلك من حيث المقابل، إلا أنه ظل باقياً لاعتبارات قدرتها الجهات المختصة، وقد أمكن الحصول على مكان مع المجموعة، فالفضل صاحب حظوة طيبة وكذلك رجب، وقد تمكن الطاهر من اللحاق بنا سريعاً بحكم علاقاته الطيبة، حينما تبين له أن بقاءه سيطول ولن يكون كما خمن من البداية. وصار عليه أن يشهد بداية المرحلة الجديدة، مرحلة الترقب لما ستأتي به الأيام، وما ستأتي به لن يكون بالضرورة وفق الحسابات العادية وإن كان جوهر الأمر قد بدا سليماً، فقد صار في حكم المؤكد أن مبدأ التلفيق من الأمور المستبعدة، وأن كل شئ سيتم حسب المعطيات الموجودة والمعلومات المتوفرة والواقع الحقيقى لكل الناس. بمعنى أن طول البقاء لن يؤدى إلى الإكراه على الاعتراف بما ليس ثابتاً، وكان ذلك مطمئناً إلى حد كبير، فحين يجرى التصرف وفقاً للموجود وفى حدود المتوفر فلا ضرر ولا ضرار، ومسألة المدة على أي حال ليست

ذات بال ما دام السير الحقيقي سيكون ملائماً لواقع الحال .

إن مثل هذا الوضع يؤدى بالضرورة إلى شئ من المفارقات إذ ليس من ظهرت له ملامح المرحلة المقبلة، كمن لم تظهر له بعد، وليس من لم يقدم في حياته على خوض تجربة العمل المؤطر، وليس لدى الأجهزة اية أدلة عنه، كمن خاض مثل هذه التجربة ولو لفترة قصيرة في زمن مضى، أو من ظل مداوماً على خياره، وعاملاً على نشره، فالحد الأدنى هو المطلوب والتصرف مع الجميع سيكون وفق هذه القاعدة، لكن هذا الحد الأدنى يختلف بين فريق وآخر، وأسعد الناس حالاً الآن هم الذين لم يخطوا أي خطوة في مجال التأطير في القديم والحديث على السواء .

سيكون من المنطقي أن يحجم من لا توجد عنه أي معلومات ولم يمارس أي ممارسات ولم تضبط عنه أي مستمسكات، عن مبدأ مخاطبة الجهات المختصة، مع بقية الفرقاء، من حيث معالجة القضية، إذ إن اللغة لابد أن تكون مختلفة، فمن أنس في نفسه السلامة من أي دليل سيكون خطابه إن قرر تقديمه ـ أكثر حزماً، وأكثر ميلاً باتجاه الاحتجاج أما من جوبه بشيء من الأدلة فلا بد أن تكون لغته أكثر ليونة، وقد كانت هذه الوضعية من الأمور المحرجة أثناء النقاش، عندما أخذ البعض يتبنون فكرة التقدم بملتمس باسم المجموعة، ففى مثل هذه الظروف من المفيد أن يقتصر الحديث على المسائل العامة والشئون المتصلة بالحياة اليومية، أما عدا ذلك فلا بد أن تكون لكل حالة ظروفها الخاصة ولغتها الدالة عليها، وكان الدفع بهذا المنطق من الأمور الثقيلة على النفس، وبالذات حين يكون

الطرح من بعض العناصر التي تخلط بين الطيابة والسذاجة.

وقد احتاج الأمر، في هذا الصدد، إلى قدر كبير من المراوغة ومن الدقة في التعبير، والحرص على تفادي أي قول من شأنه أن يجرح العواطف، وان كان بعض الموجودين كان على علم كامل بهذه الإشكالية ولا يجد غضاضة من التصريح بهذه الحقيقة.

على أن البعض الآخر، كان لا يرى حرجاً في المكابرة، لدرجة إرجاع الأمر إلى فارق المعاملة، والزعم بوجود شيء من العطف أو التعاطف . وهذا الوضع أيضاً يستوجب من كل عاقل أن يقدر الظروف المؤدية إليه، فيترفع من ثَمَّ عن أي شكل من أشكال الاحتكاك اليومي، وما يدفع إليه عادة ضيق المشاعر وخطأ التقدير وسوء التعبير أيضاً في نهاية المطاف، وستكون المحصلة كدراً على كدر، ما لم يكن زاد الفطنة أكبر قدر، ومبدأ التحمل أوفر حظاً .

* * *

لا أحد يعلم كيف تسرب الأخبار خارج المكان، بالنسبة لأمور تتصل بسير القضية، وفي أحيان كثيرة يكون للأحلام دورها في حياة الناس، كما أن المناسبات الوطنية من جهتها تنذر بقرب تحرك ما .

فمع نهاية الثلث الأول من الشهر السادس، حلت الذكرى الثالثة لإجلاء القوات الأمريكية ذلك المنجز الوطني الذي أمكن للعهد أن يحققه بسرعة مذهلة، وكان له تأثيره القوى في ترسيخ القاعدة الشعبية، وتوكيد الهوية السياسية، وإن لم يحل دون طرح الأسئلة

وبعض الإشكاليات، بالنسبة لكل من يتعامل مع الأحداث بمسؤولية ووعى، كما أنه بالنسبة لمن هم دون ذلك لا يتجاوزا المعنى المظهرى.

لقد مضى من الزمن حتى الآن أكثر من تسعين يوماً أو نحو ذلك، وغدا واضحاً أن الصورة قد اكتملت عن الموجودين جميعاً، وأن الأمور في مجملها ليست ذات بال، كما أنها بالنسبة للبعض ليست سوى زوبعة في فنجان كما يقول المثل المعروف، ولكن الحجم الإعلامي الذي أعطى له دوره الذي لا يغفل، والمستهدف البعيد ليس خافياً على أحد .

وسواء كانت الأمور قد رتبت مسبقاً، أو أنها قد جاءت على شكل تلقائي، فقد ظهرت بعض الآمال في أن إجراء شمولياً سيتخذ، وقد اختلفت الآراء حول هذه الإخبارية، فالحل الشمولى ـ بحسب البعض ـ يعنى أن الإشكالية ستبقى حيث هى، وإن إعادة اللعبة يمكن أن يلجأ إليها في أي لحظة، مما جعل رغبة البعض في إحالة الأمر إلى العدالة تبدو أكثر إلحاحاً . إذ لاشيء يمكن أن يتم بواسطته طي الملف نهائياً مثل هذا الإجراء، غير أن مثل هذا التوجه يصعب الجهر به بالنسبة لمن كانت الاستدلالات حولهم أكثر توفراً، فكل اقتراب من القانون قد يعنى تحقق إدانة ما، مهما كانت المخالفات في الشكل . على أن يونيو ما لبث أن طوى صفحته دون أن يحصل شيء في الخصوص، اللهم إلا بعض الأخبار التي كانت تذاع وتنشر في الصحف، بيد أن بعض الزيارات أخذت في التسلل وفى شئ من السرية، وكان الذين طالهم قسط منها يتذرعون بادعاء استكمال التحقيق، لكن هذه اللعبة لم تعد تنطلي، ومن جهتهم فإن بعض

الرفاق لم يلتزموا بها، بل إنهم عمدوا إلى توضيح الحقيقة وأن بشكل محدود، ولعل بعضهم كان يدرك أن عدم التوضيح سيؤدى إلى إثارة بعض الهواجس، ولما كانت الأخبار تتناقل من والى الخارج، فقد توالى استدعاء الموجودين من فترة إلى فترة، كما أن الملابس صارت تصل بشكل مستمر وتوزع في أكثر من مرة في اليوم، وذلك عندما تناهى الخبر بأن الإدارة لا تمانع في ذلك، وفي أي وقت يجاء بها، وكلما دعى أحد إلى الخارج أو جيء بعدد من الاشياء، ظهرت أخبار جديدة وولدت معانى أجد !

عندما خرجنا معاً خلف الحرس المدجج بسلاحه، أدرك كلانا أن الأمر يتصل بالزيارة، إذ ليس هناك ما يمكن أن يتوقع غير ذلك، في تلك الضحوية التي صفا ضوءها ولم يكدرها أي ارتفاع في درجة الحرارة، رغم أن يونيو في الغالب، له بعض الموجات الحرارية، لكن ذلك الحرس لم يكن إنساناً بما فيه الكفاية عندما التفت نحونا، مشيراً بضرورة أن نمشى الواحد تلو الآخر، وكذلك إصراره ونحن نستقبل الأسر أن يكون الحديث بصوت مرتفع، فقد أفسد بحركته تلك الكثير من روعة اللقاء الأول، لولا أن أصر كلانا على التمتع بهذه اللحظات على نحو كامل . إذ إن الاختصاص الموكول له ليس مطلقاً، بل إن مهمته لا تتجاوز الحراسة، وما عدا ذلك فقد غدا واضحاً أنه من اختصاص جهاز آخر، كلف أولاً بالحجز وطلب إليه بعد ذلك أن يستجوب، ولديه التصور الكامل عن احتمالات المستقبل .

فى اللحظة الأولى يهتز الجميع أمام أوامر الحرس بضرورة

ارتداء الملابس المدنية ، لأن الإقامة العادية بملابس النوم التي تسلم عادة فور الوصول، وتكون بعد ذلك هي الزى الدائم . والمستهدف بطبيعة الحال البقاء بشكل مريح، أما الدلالة النفسية فقد تشير إلى أن البقاء سيطول كثيراً .

تبين عند شد الحزام، أن الجسد يحتاج إلى ثلاثة ثقوب إضافية، حتى يمكن شده كما يجب، وأن البنطال قد أصبح من الاتساع حتى أنه قد لا يكون لائقاً، وكان هذا الوضع باعثاً على المسرة، فقد أمكن تخفيض الوزن إلى حد كبير، فصارت الحركة خفيفة للغاية، وكان هذا الأمر قد لوحظ من القدرة غير المعتادة على العدو والقفز ناهيك عن حركات الرياضة .

بيد أن هذه الوضعية لم تكن مريحة لها أبداً وهى تجيء مرفوقة بأطفالها الأربع، فقد قدرت أن الأمر يتصل بسوء التغذية أو المعاملة أو الراحة، أو هذه مجتمعة، وعبثاً حاولت أن أقنعها بأن للأمر علاقة باختيار شخصى، قوامه التخفيف الدائم من كل النشويات وكذلك المشى طيلة ساعات اليوم، لقد ذهلت غاية الذهول أمام ما جرى، على حين كنت شديد الفرح بما أمكننى التحقق منه، وهكذا وجدتنى وجهاً لوجه أمام قول كثيراً ما ردده ذلك الذي اشتاقه بما لا يقل عن هؤلاء الأفراد (زينة قوم شينة آخرين) فما خرجت به فرحاً مرتاح الضمير، غدا بالنسبة لها مخيفاً وباعثاً على الحسرة في لقاء بعد فراق غير مسبوق، وتجربة لا يعرف متى وكيف ستنتهى، تجربة تواجهها مع عدد من النسوة والأطفال والأسر، وإضعافهم من الأقارب

والمتعاطفين ومن هم دون ذلك، ممن صار وجود من حواهم القسم مادة اهتمامهم اليومي وموضع أحاديثهم وتعليقاتهم، بطريقة أو أخرى ولهذا السبب أو ذاك، فالوجود والحالة هذه ليس عبثاً، وليس خالياً من المرجعية وبعض الخلفيات أيضاً.

لم يكن نحول الجسد هو اللافت لهم فحسب، وهم يقلبون النظر في كل الأطراف، ويمسحون الجسد من كل الجوانب، فالأجواء كلها توحى بشيء ما كما أن حركة الحرس وسلاحهم المدجج يثير شيئاً من الذعر، كما أن الرأس المحلوق جعل من الهيئة شكلاً لم يألفوه أبداً، خاصة وأن الدقن ما زال طويلاً.

كانت الفتاتان أكثر وعياً بما جرى، أما الصبيان فكلاهما إلى الغفلة أقرب من أخيه وكنت من جانبي أسأل عن كل شئ بأقصى ما يمكن من التفاصيل، مجهد النفس في آهة لا أريد لها أن تظهر فتنال من الروح المعنوية.. كان أكثر ما يبعث على الحسرة المطالبة الدائمة من الحرس كى يكون الحديث بصوت مرتفع، إذ لم تكن هناك أسرار، ولم نكن نملك أي قول يمكن أن يخل براحة أي طرف أو يهدد مصلحته أو ينال من أمنه، لولا أنها العادة التي اعتادها والأمر الدائم الوجود لديه والذى لا يعرف اختلاف الأحوال. إن مهمة الرجل لا تتجاوز هذا المكان إذ بعد ذلك سيذهب لحاله ويتم الدخول حيث لا سلطة له هناك البتة، ولكن الانطباع الذي تبادر إلى ذهنها أن الحياة بهذه الكيفية، ولم يتيسر في التو، توضيح الأمر بما فيه الكفاية.

تبين أن إقامة الجد الذي حضر في الأسبوع الأول قد استغرقت شهرين كاملين، دون أن يتكلف أي التزام مالي، فقد أبقت السلطات على صرف المرتبات لكل مستخدم في ملاكها، وكان ذلك عملاً عظيماً وموقفاً مشرفاً للغاية، وإن يكن الأصدقاء من جهتهم وكذلك الأقارب لم يتأخروا عن المبادرة ببذل كل ما في وسعهم وأكثر، ولا سيما فيما يتصل بالكماليات، رغم أنهم على علم بصرف المرتبات، فكان هذا البر مصدر ضيق بالنسبة لها إذ لم تكن تريد من المناسبة أن تتحول إلى وسيلة للتكسب فكل له مطالبه، والأكثرية تعمل في السلك الوظيفي، بمعنى أن المستوى المعيشي متقارب، لولا أن الجميع يصر على التخفيف من المحنة بما لديه من الود .

مثل هذا الموقف كان ، في حقيقة الأمر، مقدراً أو منتظراً، وبالتالى فلم يشكل أي مفاجأة عند العلم به في أول لقاء، يكفى أن الرد على أحد الرفاق حين سأل عن أول زائر من الأصدقاء يتوقع حضوره كان بالحرف الواحد :

ـ الذي أنا متأكد منه أن الأسرة ستكون محل عناية الجميع .

أما الزيارات وغير الزيارات، فلها ظروفها، وليست مهمة على كل حال .

وددت لو استمرت حياتهم كما هى، فكل الظروف الطارئة إلى زوال ، ولكن هذا الأمر ليس متيسراً بالنسبة لهم، باستثناء الدراسة، إذ أكملت الفتاتان السنة الرابعة بشيء من التفوق، وقد اعتبرت هذه

السنة لأول مرة هى سنة الامتحان، فكل السنوات التي سبقتها طبق عليها نظام الترحيل، وما بعدها مدد إلى خمس سنوات، فقد دمج الابتدائى مع الإعدادى وأطلق عليه مصطلح التعليم الأساسي، والمستهدف من ذلك أمران، أولهما تربوى محض ومعمول به في البلدان الشقيقة، أما العامل الثاني فمن المرجح أن يكون سياسياً وعلى حساب التجربة السابقة، التي اعتبرت التعليم الإلزامي في حدود الشهادة الابتدائية، كحق يفرضه القانون، ويطال المقصر فيه عقوبة من العقوبات، فإذا به يرفع الآن إلى المرحلة الاعدادية. الصغير من جهته نجح هو الآخر، أما بقية الأشياء، فقد ظلت حيث هى، فلم تواصل أم طارق علاج أحد الضروس ولم يتم تعويض الجسر الذي حضر لتقويم أسنان الصغير فيصل، ولم يكن هذا الأمر مريحاً بالنسبة لى، ولكن لا مهرب منه، فلها العذر فيما فعلت، وقد حلت الآن العطلة الصيفية، ولم يعد هناك أي التزام، ولا أحد يعرف ماذا يحمل المستقبل، وهم كذلك يحملون الكثير من الأسئلة، لكن سؤالهم الأساسي متى تحصل العودة والعيشة معهم، وهو سؤال لا مجال للإجابة عنه الآن.

إن القول باستحالة إدراك جمال الصورة لا تظهر حقيقته إلا لمن هو خارج الإطار، لا يمكن الوقوف عليها بقوة إلا حين يجد المرء نفسه في هذا المكان، فكل ما تراه العين محبب، وكل شئ يشتهى: معاكسة الصغير فيصل وهو يختار الثاء المثلثة بديلاً للسين والشين، مداعبة شقيقه طارق الذي يسأل في المنازلة معه، وأسئلة أخرى

كثيرة طالما أرسلها وتستدعيها الذاكرة الآن، ويصعب الإدلاء بها . . الأم التي كلفتها ما لا يطاق، وأكاد أهم بطلب ما لا يمكن .

ألعن من الأعماق ذلك الأسلوب التربوى الذي زرع الوقار، أسس للحشمة، وجعل التحية الليبية في الغالب تتم بالأيدى اللهم إلا الذين غزتهم ثقافة الأفلام، كما يؤلمنى الآن إلا أجد سبيلاً لذلك . وما أسوأ أن تحسب الأشياء متساوية، وما أسوأ أن توضع مشاعر الصدق إلى جانب مشاعر التصنع .

كان وابل من الأسئلة لا يتوقف، والنظرات تكاد تلتهم الأجساد ، كل بطريقته، ومن الزاوية التي ينظر بها، للأطفال عالمهم الخاص، وللأم عالمها ، ولي عالم يسع الكل، وشوق أحرص على عدم البوح به خشية إثارة المشاعر وتأجيج العواطف ومن ثم الشجو، فالدمع في هذا المقام ليس مثل ذلك الذي يذرفه المرء في مجال آخر، والحظ بدون شك هو سيد الموقف حين أمكن التحكم بعض الشيء، والمدة الزمنية مهما طالت قصيرة، رغم أن المعاملة الخاصة موجودة فلم تنظم الزيارة بعد، والذين أمكنهم الحصول على الإذن هم الذين لهم قنواتهم نحو الجهاز المسؤول، على أنهم كانوا جميعاً حريصين على إحاطة الجميع بالعلم، كى يطلبوا الإذن اللازم، وقد أصبحت الملابس والحاجيات تدخل في كل وقت، ولم يعد هناك ما هو ممنوع سوى السجاير لكن بعض المعلومات تشير إلى أن أمرها سيحسم خلال أيام قريبة وربما أقرب مما يتصور البعض، وفى النهاية تعينت العودة من حيث المجىء وذلك أن طلب للأسرة أن تغادر، لانتهاء الوقت المحدد،

وإذا لم تكن لنا خبرة بالأمكنة فقد كانت العودة مرتبكة وكان أن بادرنا الحرس بكلماته

ـ ما عرفتوش حتى الباب .

فأجيب بأن لحظة لقاء الأهل ليست بسيطة فلم يجد غضاضة في القول

ـ اللي ما يدير شئ ما يجيه شئ .

عند ذلك لم يجد كلانا بداً من الرد عليه بكل حزم

ـ عاد هذى فيه ناس مسؤولين عليها !

كان القسم على بعد أمتار محدودة، وإذا بنا نقف أمام الباب الذي خرجنا منه منذ قليل، حيث لا يزال الرفاق منهمكين في الحديث عن هذا الخروج المفاجيء بوصفه أحدث جديد حصل هذا الضحى ، ولا مناص من أن يكون الشاغل والمستحوذ الأساسي على اهتمام الموجودين والمثير لتحليلاتهم التي لا تخلو من المنطق، في مستوى من مستوياتها، وتجنح إلى الخيال الواسع في الغالب الأعم .

ومع أن الجميع قد علموا أن هذا الخروج لا يعدو كون الأسرة قد حصلت على زيارة سريعة، فإن ذلك لم يمنع من الحرص على الاستماع والمبادرة بالأسئلة أيضاً . فكل شئ يحدث الآن له تأثيره على الموجودين وقدرته على توليد الأفكار واستنباط الدلالات، فكل الأشياء قابلة للتحليل، وهى كذلك مهمة وضرورية ومن الممكن أن

تجلب لمن يسمعها شيئاً من السعادة، حتى إذا كانت غير سارة، فثمة من يهمه أن يزيد من رصيده الموغل في التشاؤم، وانتظار كل ما من شأنه أن يضاعف من مشاعر الحزن، فكل ما هو خلف الجدران ـ بحسب هذا الفهم ـ لا يمكن أن يبعث على الراحة، وما دامت الأبواب موصدة، والحراب مشدودة بأيدى المكلفين بالحراسة، فلا شئ يمكن أن يدعو لمجرد الابتسامة .

فالانقباض والتوتر، والمحافظة على عبوس الوجه ووجوم النظرة في مقدمة ما يجب التمسك به، وكل حديث لا تكسوه مثل هذه المشاعر لا تعلوه مثل هذه النبرة هو حديث باطل وغير متوازن مع هذه النفوس التي سيطر عليها القنوط واستسلمت له، ربما حتى من رحمة اللّه، رغم أن ذكر الله يتكرر على معظم الألسن وبلا استثناء .

* * *

تتداعى، عقب عودتهم من حيث أتوا، ورغم ضجيج الرفاق وأسئلتهم ، صور أولئك الذين واجهوا محنة الفقد عشرات السنين، فخلدت أسماؤهم في سجلات النضال، وتحولوا مع الزمن إلى رموز عظيمة في وجدان الشعوب ملء الأرض، وتسابق الذين سلكوا الدرب من بعدهم نحو الإبقاء على الصورة الباقية .

كثيرة وأكبر من أن تحصى تلك الأسماء التي حفظها سجل التاريخ الذي لا يرحم ظالماً طغى واستكبر، ولا يحتقر ضعيفاً مهما صغر، من الذين امتحنوا في لقمة العيش ونسمة الحرية من جميع

الملل والنحل، رددت مواقفهم قصائد الشعراء وجسدتها كذلك تماثيل الفنانين ولوحات الرسامين وربما ألحان المطربين أيضاً .

لكن السؤال الذي يثب الآن بقوة، وما من سبيل للانفكاك من هيمنته، هو مدى تخلي هؤلاء عن أشواقهم وساعات ضيقهم إزاء لحظات الألم الناتج من محنة السجن وهو يئد بأسواره العالية كل من وقع داخل أصفاده الصدئة. فالحديث عن الصمود وقوة الاحتمال هو ما يصل عادة لكل من تنقل إليه التجربة، أما حقيقة الواقع، فهو ما نعيشه الآن، وربما لا نبوح به بعد ذلك أبداً .

فكان الشاعر الشعبي صادقاً في تعبيره بليغاً في لغته عندما قال ذات يوم :

"يا قلب شن يبريك من لوجاعي"

"عيطة طويلة في الخلا فزاعي"

فلا شيء يمكن أن يزيل عن النفس ما تستشعره من المرارة والحزن مثل تلك الآهة التي يطلقها المرء بلا تحفظ، مثل صوت يرتفع بكل ما لدى الإنسان من القوة ليشق عنان السماء، فهو والحق يقال ما يحتاج إليه المرء حين يخرج الأهل مكرهين خارج الأسوار، ويعود عائلهم مكرهاً للبقاء هنا والحديث مع هوس الذين يشاركونه ذات المحنة ويتجرعون معه نفس الكأس.

نزلت أخبار التعاطف والمساندة التي بادر بها الأصدقاء طوال

الفترة التي مضت على الغياب برداً وسلاماً على القلب المعذب، فقد كانت عميقة الدلالة قوية التأثير، حتى ليشعر المرء وكأنه قد أخرج من قاع سحيق، بل إن التجربة في مرارتها تبدو وكأنها قد صارت غير ذلك تماماً، إذ ليس أجمل وألذ من أن يحس المرء أنه مساند من كل الذين حوله بل والبعيدين أيضاً . لقد تأكد أن الرهان على الأحبة لم يكن خاسراً أبداً وأن ما كان معلقاً من أمل عريض لم يكن هشيماً تذروه الرياح وإنما هو نبات شامخ في ارتفاعه من أساسه وقواعده . لم يقصر أحد في بره، ولم يتخاذل أحد في موقفه، ولم تتأخر قرينة من قريناته عن الزيارة، حتى كان البيت في كل يوم ملتقى لزوجات الكل، وكذلك فعل الأقارب وأبناء عمهم، وزملاء العمل أيضاً ، فلم تواجه الأسرة ثقل الوحشة، ولم ترهب من فراغ الأب، كل يجود بما لديه وأكثر، ويبادر بما يتطلبه الموقف ويضاعف من ذلك، فلم يمسهم أي أذى ولم يطالهم أي نقص، بل إن ما درج عليه القوم من المبادرة بالبركان في أحيان كثيرة مثيراً للقلق المبلغة في الرعاية من الآخرين تعني أن ذلك قد تم على حساب وقتهم وحاجتهم والنفس الحرة لا تقبل التحول إلى عبء ثقيل .

لفترات طويلة ـ ونحن كقادمين من القرى ـ نخوض معارك كثيرة مع العديد من أقاربنا حول سكان المدينة، إذ معظم أولئك الأقارب يعتقدون أن العلاقة مع هؤلاء لا تصل إلى العمق وإنما تظل دائماً في السطح . وكنا نرفض هذا المنطق ونضيق به، وندرك أن المدينة أعمق من هذه الصورة الفوقية التي يصر أولئك الطارئون على

التمسك بها، حتى كانت التجربة، فصدقت النبوة التي أصرت على رفض هذه الصورة السطحية، وتبنت باستمرار الموقف النقيض الذي يرى أن الحضارة لا تخيب، وأن انعكاسها لابد أن يظهر في الوقت المناسب على أجمل الصورة وأكملها.

ربما خالجت النفس بعض الشكوك في لحظة من لحظات الضيق، فعالم الوحدة قات والتجربة مريرة، وشيء من التسرع لا يمكن لأحد أن يتنزه عنه أو يدعى العصمة منه، وبالذات فيما يتصل بالجيران، إذ لم تمض على الإقامة بالحى من الزمن ما يكفى، فكلها سنة وبعض السنة، كما أن عالم الفلل يقوم على الانفصال ويختلف إلى حد كبير عن البيوت الشعبية حيث يوفر الالتصاق أجواء من الحميمية التي يحتاج إليها كل من تحل به نازلة من النوازل، ولكن الجيران في الحى الجديد أثبتوا أنهم لا يقلون عن غيرهم فكان تكاتفهم وما غمروا به الأسرة المكلومة أكبر من المتوقع أضعافاً مضاعفة . بل إنه لم يكن متوقعاً بالأصل إذا ما احتكمنا إلى حداثة الجيرة، وعدم وجود العلاقة، ولكون التجربة تعتبر الأول من نوعها في العهد الجديد .

طبيعى أن الأمر لا يخلو من بعض المفارقات وكذلك خيبات الأمل لكن ما ترمى به الأقدار خلف تلك الأسوار العالية والأسلاك الشائكة التي يؤكد أكثر من طرف أنها مكهربة، لا يملك إلا أن يلتمس العذر لأى كان، بل إنه يرفض كل سبيل يؤدى إلى إلقاء الملامة على الآخرين أو الحديث عنهم بشيء من العتب، فجميعهم في نظره أعزاء

وجميعهم مهمون وكل وجه تتخيله الذاكرة أو يهتف به القلب فلا بد أن تخفق له كل الجوانح وتطوف به جميع الحفايا، فالشوق والشفافية وكل ما هو إنساني له عبقه الخاص وطعمه الذي تشتهيه النفس وربما تحسسته جسداً يمشي ومذاقاً على طرف اللسان . ما جعل الصور تتداعى أكثر فأكثر، ووجوه الغائبين تطل حتى ليكاد اللسان أن يناديهم جميعاً ويخاطبهم واحداً واحداً وقد يحضنهم ـ لو أمكن ذلك ـ دفعة واحدة فليس هناك بعيد وقريب بل إنهم جميعاً أقرب من القريب .

غير أن لحظة الشوق إلى مكان قصي، تستطيع النفس أن تعبر عن كوامنها العميقة ولواعجها الحارقة، تظل تتجاوز ما عداها من الرغبات، فالتماسك الذي يحتفظ به الإنسان في بعض اللحظات والإصرار على تجاوز المحنة في ساعة وقوعها، ومحاولات الرفع من معنويات الآخرين، كل ذلك يؤدى في نهاية الوقت إلى شئ من الضعف أمام الحدث في تجلياته، فتكون كلمة الأولين قديماً جديرة بأن تردد :

" يا قلب شن يبريك من لوجاعي
عيطة طويلة في الخلا فزاعى"

لقد أعيدت ذات يوم منسوبة إلى الشيخ منصور، وقد كان يومئذ في ريعان شبابه حيث لا يستطيع أحد أن يقف أمامه في لعبة الصراع، وهو ينتصر على العشرات من أقرانه السنة تلو الأخرى، وكانت لافتة لعدد من لاؤلئك الأقران الذين لم يصلوا إلى جوهر المأساة، حين لن تجد النفس مخرجاً من سطوة الضيق سوى تلك

الآهة الطويلة أو الصرخة المدوية التي تشق الفناء كله ألماً وشكوى، فتهون بهذه كل مصيبة مهما عظمت وكل الم مهما اشتد .

ولأن الخلاء الذي يتسع لهذه العيطة الطويلة فقد كان المهرب الوحيد هو المرحاض حيث لا يعرف أحد ما تذرف العيون من الدموع، كما يقول أبو فراس الحمداني في رائيته الشهيرة .

إذا الليل أضوائي بسطت يدا الهوى

وإذللت دمعا من خلائقه الكبر

هكذا ينصح عبد الكريم ونحن نتبادل الشكوى في ذلك الفناء، حين يترك هوايته المفضلة في لعبة الشطرنج، وفى أحيان كثيرة "الدمينو". فتكون نصيحته نعم العون، عند العجز أمام اللحظة القاتلة، وكذلك فعل حين اختار المنشف ليفضل عليه بأسنانه وهو يواجه لحظات الألم في الأيام الأولى من التجربة التي أمكن النجاة من محنتها.

وذات مرة أفلح عبد اللطيف في الحصول على سيجارة حاول أن يستاثر بها لنفسه دون أي مشاركة، فاختار أن يخرج بها إلى الفناء وسحب أنفاسها المتتالية، مستبعداً أن يتبادر إلى ذهن أي كان أنه ينعم الآن بهذه النعمة، إذ اعتاد الرفاق أن يفعلوا ذلك داخل الغرف وفى شئ من التكتم وليس على هذا المستوى العلنى، وقد استعنت بالفضل كى يحول دون اكمال السيجارة من أجل أن يشاركه في ذلك حسن وعللت هذا الطلب بناحية جهوية صرفة باعتبار الحسن من ذات الأرومة، وقد أمكن تحقيق هذا المسعى،

وتمتع الحسن بنفس عميق من تلك السيجارة. أحسست والفضل بسعادة عميقة عند تحقيق ذلك، لكن الغريب أن عبد الكريم وقبل إن يصل الحسن إلى مكانه حيث نلتقى في الممر فاجأني قائلاً :

ـ انشم في ريحة دخان يا ولد

كدت أن أصعق فالسيجارة مشعولة بالفعل ولكن على بعد لا بأس به من المكان، فتأكد حينئذ قول قديم أن كل من يتعاطى نوعاً من أنواع الكيف ثم ينقطع عنه لسبب أو آخر فإن رائحة الشم لديه تبلغ أقصى درجاتها ، وقد تتحول إلى شيء من الحساسية، أما عبد الكريم فقد كانت لديه باتجاه زيادة الرغبة، وربما شاركته ذلك، مما جعلنى استشعر الإحراج هو معرفتي لصحة المعلومة المتصلة بالسيجارة وكتمان ذلك عنه، نجد أن الحرص على حضور حسن وإن يكن بدر بمسألة القربى، فإن الحقيقة ما كان يتميز به من ثبات وتسام غير مفتعل عن سفاسف الأمور وما تفضى إليه التجربة من تنقية للكثير من الأشياء والناس أيضاً ، حيث لا يسلم من ذلك إلا من رحم ربك.

* * *

خاب ظن الكثيرين مرة أخرى وسأدت حالة من الحزن غير العادى، حين لم يحدث في الثالث والعشرين من يوليو ما كان منتظراً من عفو، فلقد مر ذلك اليوم ككل الأيام، وكما مر قبله عيد الجلاء الأمريكي الذي كان أول مناسبة تلت الحملة، ولم تشهد الحياة سوى المزيد من البرامج الإذاعية القائمة على الإشادة بذلك المنجز إلى

جانب التكرار لخطب الرئيس عبد الناصر، والإشادة المتتالية بدوره العربي والعالمي، كانت معظم البرامج موغلة في السذاجة والسطحية، غير أن بعضها كان يتحدث عن ضرورة الاعتزاز بالملبس الخاص والمقومات الشخصية، وكان ذلك يبدو غريباً، فما دامت مثل هذه الدعوة ستعلن فلماذا يبقى الذين عرفوا بالحماس لها في مثل هذه الأماكن، ولكنها المفارقات التي لا يخلو منها واقع عربي فيما يبدو. على أن التوتر النفسي قد شهد المزيد من الارتفاع، فهذه هي المرة الثانية التي يخيب فيها الأمل، وإذا كان عيد الجلاء الامريكي قد جاء في وقت مبكر فإن الثالث والعشرين من يوليو أو عيد الثورة الأم هو المصطلح الذي أدخل، فيعتبر قد جاء في وقت معقول أي بعد ثلاثة أشهر، وكان هناك الكثير من الكلام عن وحدة ثنائية وشيكة الوقوع شكل لها عدد كبير من اللجان وقيل إن السادات سيحضر وسيعلن العفو المرتقب، وقد حصل حديث حول هذه المسألة لم يخل من اختلافات لا بأس بها، حتى أن هناك من جاهر بأنه مستعد للبقاء لأكثر من سنة على إلا يؤول أمر البلد إلى السادات، وقد استغرب هذا القول من استغرب، لكن ذلك هو ما حدث ، والمهم أن الثالث والعشرين من يوليو قد مر دون أن يحدث أي شئ وكان لذلك أثره السيء على نفوس الجميع، اللهم إلا الذين كانت لهم قراءة مختلفة ورهانهم على أسوأ الاحتمالات، فهؤلاء لم تظهر عليهم أي علامة من علامات الشعور بالإحباط، فقد كان مستوى توازنهم في غاية الجودة وتقديرهم أن الأمر يحتاج إلى وقت طويل .

لم يكن قد مضى على الوقت إلا القليل، بعد تناول وجبة الغذاء، وقد كانت مكوناتها من اللحم والبطاطس إلى جانب الخبز وبعض الغلال، إذ إنها تصرف ضمن المخصص للجنود، باعتبار الإدارة من اختصاص الانضباط، فالموجودون في حكم المذنبين، لكن المعاملة أخذت في اتجاه الأفضل . المهم أن المنزك قد دخل وطلب من الموجودين أن يدخلوا إلى غرفهم لأخذ بعض البيانات وكان هذا التوضيح غريباً، فالمعتاد أن تصدر التعليمات دون أن تذكر الأسباب، بعكس هذه المرة التي حدد فيها السبب من البداية، ولم يكن أمام الجميع سوى التوجه إلى العنابر، لانتظار ما سيحدث، والمنتظر دائماً غير سار، لكن الملاحظ أن الأبواب لم تقفل وأن الحديث عن البيانات قد تكرر مرة أخرى، وبعد قليل دخل جمعة الذي ما زال يصر على عدم ارتداء أي رتبة على كتفه أو ذراعه وإن تكن حركاته تدل على أن الرتبة قد تكون فوق الكتف ، وهم هكذا يعاملونه، كان يحمل في يده جملة من الأوراق، وشرع سيل الموجودين كل حسب الغرفة التي هو فيها، ويقارن الأسماء بما هو موجود لديه، لكنه لم يستمر في عمله هذا منفرداً فسرعان ما دخل آخرون، بطريقة تشير إلى أن الأمر يتصل بأكثر من جهة، وكان كل شئ يتم بشكل انسيابي ودون أي تعليمات جديدة، ولكن في لهجة مخالفة لكل اللهجات السابقة، فلم تظهر على الجميع سوى الابتسامة، ولا يسمع إلا التعابير اللائقة . كانوا يتنقلون من مكان إلى آخر تاركين للجميع بأن يعودوا إلى حيث كانوا قبل دعوتهم للتسجيل ودون أي أوامر.

جميعاً صرنا داخل الفناء، نتحرك يميناً وشمالاً، في حالة من الابتهاج العارم، نمضى بسرعة عجيبة ذات اليمين وذات الشمال لا فرق بين الحارس والمحروس، من يحمل رتبة ومن لا يحمل ، من ثبتت تهمته ومن لم تثبت، كل يريد أن يسأل الآخر، وإذ لا مجال للسر فقد وصلت المعلومة خلاصتها أن مسؤولية الإشراف قد نقلت من الانضباط إلى الشرطة، وأن ما يتخذ الآن من أخذ البيانات وإحصاء الموجودين يعنى هذه المسألة على وجه التحديد، وان تنفيذ هذا التوجيه لا يستغرق سوى القليل من الوقت .

اختلطت المشاعر إزاء هذه المعلومة، أسف عن فراق المنزك ونورى، خوف من سوء التغذية الناتجة عن إمكانيات الشرطة، خور من المضى تجاه الإجراءات القانونية بحكم الاعتقاد بوجود مسؤولية ما .. صعب أن تبقى المسألة في إطارها التجريدي، حتى لتحصر في الجانب الإنساني دون غيره، على أنها بالمقابل لابد أن ترصد . كانت الزيارات قد شاعت وبادر أكثر من طرف بمجاملة من يعنيهم أمره، وتوجب العلاقات مجاملته، وكان المبادرون بالزيارة من العاملين في القوات المسلحة، وكان الشاغل في هذا الصدد السنوسي، إذ لابد أن يقوم بمثل هذا الواجب، ولم نرد له أن يفعل ذلك حين ينتقل الإشراف إلى الشرطة لما في ذلك من بعض الإحراج، وقد تؤدى إلى شئ من الضرر، فقد كان أول الذين دفعنا بهم نحو تلك المؤسسة عندما كان حبيب الحادب الأول عليه عشية رحيل الوالد في السنوات الأولى من الخمسينات، بحيث وصل المرحلة الثانوية في أواخر الستينات،

وأمكن الدفع نحو القوات المسلحة، باعتبارها الجهة التي سيكون لها المستقبل، ومن الممكن أن تقدم على تغيير النظام، فلابد والحالة هذه، أن يكون للأهل مكانهم في هذه المؤسسة . وبالتالى فمن المهم الآن أن يظل بمنأى عن أي حساسية من الحساسيات وألا يحصل منه أي تصرف من شأنه أن يوفر الفرصة لمن لمن عساه يرمى إلى إعاقة مستقبله . أو التشكيك في صدق ولائه للعهد .

كانت الملابس وبقية الأشياء قد كرست بالكامل، نودى باسم الفضل واسمي للتوجه إلى الإدارة ولم يطلب الحرس ما كان قد طلبه في الماضى بشأن الخروج الواحد خلف الآخر، فكل شئ على ما يبدو تغير، ومن البداية ضمنا أن يكون السنوسي هو الذي يكون صاحب الدعوة، وبالفعل وجدناه مرفوقاً بحبيب، ولدى إحاطته بأن التفكير فيه قد حصل اليوم بقوة، أعتقد أن الأمر يتصل بشىء من الملام مما جعله يعتذر عن التأخير ولكن سرعان ما جرى إفهامه أن الأمر يتصل بالانتقال إلى الشرطة ، كان الحماية بحضور فرج بوصفه الآمر وصاحب المكتب، فتساءل ونحن نتحدث عن الانتقال وما إذا كانت الشرطة أحسن من الانضباط فكان الرد بسرعة، إن الأكل بالتأكيد سيكون أفضل عند الانضباط، ومضينا في بقية الحديث الذي كان عادياً للغاية وفى حدود الأسرة ، إذ لا يوجد جديد في الموضوع، وقد كان على علم بزيارة يوسف من البداية، كانت الفرصة مناسبة لتوصية حبيب بالتأكيد على الوالد إلا يشغل نفسه بالقضية، على اعتبار أن الحلول الفردية مستبعدة ولا محيص من العلاج الجماعي فطبيعة الأمر بهذه الكيفية .

حبيب واحد من أبناء العشيرة الذين رسخت بهم العلاقة منذ آماد بعيدة، وبقيت بعد الاستقرار في المدينة صامدة وشديدة الصفاء، فالموقف داخل الأرومة البعيدة كان باستمرار قائماً على الثقة المتبادلة والنقاش الدائم، وذلك منذ أن تلاشى فارق السن بيننا، جراء اضطلاعه بمسؤولية الأسرة في وقت مبكر منذ أن توفى الوالد عبد الله في مطلع الخمسينات، واضطر هو في وقت مبكر للغاية أن يلتحق بالعمل في ولاية فزان كمدرس حين لم يكن هناك أي باب آخر للعيش، ويومها ذهب إلى أقاصى الجنوب، ومن هذا الواقع قبل غيره أمكن الحديث معه في مسألة إلحاقه السنوسي بالكلية، عندما وجدت الفرصة المناسبة لقبول من كانوا في نفس السن والمستوى الدراسي، وكنا من جهتنا حريصين على قصر مثل هذه الفرص على من هم في منزلة السنوسي من حيث المقدرة والثقة انطلاقاً على الإدراك بأن المستقبل سيكون للقوات المسلحة في مسألة التغيير المنتظر والذى كانت كل علاماته ظاهرة في منتصف الستينات، وقد تبنى الفكرة يومئذ حبيب بكل وعى واستجاب لها السنوسي بالضرورة، كانت الفرصة يومئذ متاحة لأكثر من عنصر بحكم الصلة القوية مع الأصدقاء العاملين في سلاح الاستخبارات، لكن الحد من ذلك أملته عدة عوامل منها أن الذين بلغوا المرحلة الثانوية لم يكونوا متوفرين بكثرة ومنها أن الذين يمكن الركون إليهم ليكونوا ضباطاً في المستقبل ومن الممكن أن يكونوا شركاء في أي تحرك منتظر يترتب عليهم إمساكهم ببعض المسؤوليات وبمنأى عن الإضرار بمصالح الناس، كانوا قادرين أكثر من غيرهم . وقد

أدى ذلك كله إلى اختلاط المشاعر بين الفرح بالزائرين وبين التحمس من أي نتائج قد لا تكون سارة وإن كانت تبدو بعيدة .

كانت اللحظات جميلة وممتعة، فالفضل سبق أن درس السنوسي ذات يوم عندما كان في المنطقة وله مع الأهل جميعاً أجمل الذكريات إذ ارتبط وجوده بعديد الأنشطة، والعلاقة معه تفوق كل العلاقات، فصرنا عندئذ وكأننا خارج الأسوار، طبيعى نحن لم نسأل عن أي شئ بصدد القضية فليس لدى الآخرين أي رأى في الخصوص، لأن العلاج يرتبط بالناحية السياسية وليس القانونية، والقرار في هذه الأمور مركزى للغاية فقد أخذت جميع البيانات واتضح أن حدود القضية واضحة للغاية ما كان صعباً على بقية الزملاء عند العودة إليهم هو عدم وجود أي جديد، فقد اعتادوا أن يعلقوا الأمل على كل زائر، ولكننا لم نكن نشاطر مثل هذه الأفكار لأن الرؤية أمام الجميع ليست خافية، بل لعلها شديدة الوضوح .

* * *

طلب من الجميع أن يأخذوا أمتعتهم الشخصية بأيديهم، فقد تقرر الانتقال ، لكن المكان قريب من هنا، وقد حدد من قبل الحراس بالقسم الخامس، وعندئذ بادر رجب بالقول، إن المكان خلف القسم الحالى مباشرة، مشيراً إلى أنه أواهم سنة 67،، ومضيفاً في الوقت نفسه أنه أكبر من مكاننا هذا، لكن لا يتسع للمجموعتين، أي إن القسم الآخر سيبقى، وهو بحكم قلة العدد وضيق المساحة يعتبر مخيفاً لكل من يمكن أن يطوح

به سوء حظه للإقامة هناك، فالعدد الإجمالى بموجب كل التأكيدات أقل من المائتين، والموجودون هنا يتجاوز المائة والستين، فالأمر لم يعد سراً من الأساس، كما أن نقل الاختصاص جعل الجميع يبوحون بما لديهم، وليس لهم على أي حال ما يبوحون به أكثر من هذه المعلومة .

اصطف الجميع في الباحة في انتظار الإذن بالتوجه، وجرى في لمح البصر ما يشبه الاستلام والتسليم، فاتضح من البداية أن الذين حضروا لمرافقة المجموعة من أفراد الشرطة، ليسوا مجهولين لدى أصحاب التجارب القديمة، أو السوابق كما هو المصطلح، وكذلك الذين لم يتأخروا عن القيام بواجب الزيارة لكل من واجه محنة 67، فقد كان عدد من المجايلين يبادرون كثيراً بمثل هذا الواجب الجميل، كالطاهر والفضل وأبو حسام وعبد الرحمن وغيرهم، لكن المدة طالت، لكن الذين تقدموا للحراسة كانوا معروفين من ذلك الزمن، كرئيس العرفاء شهوب، وقد بدا من اللحظات الأولى ما يتميز به من القدرة على الحديث، بأكثر من أسلوب، وقد علمته الخبرة فيما يبدو ضرورة معرفة أسماء الجميع، سواء مباشرة أو عن طريق السمع . وهو لا يسأم الترحيب والحديث في مختلف الشئون . ومثل هذا الخلق من الأمور المطلوبة لدى كل من يتعرض لهذا النوع من المحن المخيفة .

على العكس من ذلك كان مرافقة العريف سالم، الذي كان ينتهج سبيلاً آخر، قوامه التعاطف غير المتكلف مع الموجودين جميعاً، من عرف ومن لم يعرف، وقد علمته التجربة أن كل حضور إلى فراق، وأن الشدة يتبعها بالضرورة الفرج وتنتج عنها متغيرات أكثر مسرة

وهناء لكل من ابتلوا بالمجيء إلى المكان .

لم تكن ملامحه لافتة، فقد ملأت وجهه التجاعيد، وبدت عيونه غائرة، وإن كانت تشير إلى بقايا نفاذ قديم . بيد أن الحيوية كانت ظاهرة وباعثة على الطمأنينة، فلم تظهر عليه أي علامة من علامات الحراسة ولم يكن متباهياً مع دوره الرسمي، كما لو لم يكن قد قضى فيه أزهى أيام عمره، فبدا وكأنه قد حضر للقيام بزيارة للموجودين جميعاً، مما جعله يشرع في مصافحتهم فرداً فرداً من عرف ومن لم يعرف، ماضياً إلى أكثر من ذلك بمحاولة التخفيف على الجميع والعمل على شد أزرهم وإثارة هممهم وطمأنتهم مؤكداً أن الإقامة ـ حين نكتب لا يمكن أن تطول ولو قدر لها العبد غير ذلك، فالأمر دائماً بيد الله، مستعيناً على حديثه بسيل من الأمثال الشعبية، وكذلك الأحداث التي حصلت، وأكدت وما زالت تؤكد أن من يحل بالمكان قد يخرج إلى مكان أفضل، مستدعياً قائمة من الأسماء التي أحضرت، ثم خرجت لتتبوأ أرفع المواقع، وقد كانت جميع الأسماء معروفة ومعاصرة، وكل كلمة تنزل برداً وسلاماً على كل من يستمع إلى الكلمات النابعة من القلب الطيب .

لم يترك رجب حالة الانشداه التي كادت أن تسيطر، فبادر بالحديث عن نائب العريف، ومن المفارقة أن اسم الرجل (سالم لبز) وكلمة لبز في اللهجة العامية تعني الرجل المدمن للخطأ أو المصر عليه، بعض الأزمات التي استوجبت وجود بعض الضحايا، وأن كلاماً آخر يمكن أن يدفع به كل من ترمى به الأقدار في مثل هذه

الأماكن القاتلة للحياة، فما يهم الرجل غير مشغول بأى اعتبار، سوى أنه واثق على ما يبدو بأى حضور بمثل هذه الكيفية يحمل معنى من معاني الرجولة، وهو على هذه البديهة لا يفكر في مصطلح الخيانة مثلاً، فمثل هذه المصطلحات تعنى آخرين لهم مواقفهم وانتماءاتهم، مبادراتهم أيضاً ، في حين لا يشغل الرجل سوى التخفيف عن كل من تأتى به الأقدار، والسعى إلى تخفيف المصيبة عليه، وإشعاره بحقيقة أن الخروج آت لا ريب فيه .

تبين أن عمل الرجل يعود إلى أزمنة بعيدة، ربما منذ انخراطه في سلك الشرطة البريطانية، فقد كان طبقاً لما قال به بعض الذين عرفوه قديماً، كثير الحديث عن بعض رجال الانجليز العاملين في سلك القضاء وآرائهم القائلة بأن مهمة الشرطى تقوم على الحيلولة دون وقوع الجريمة قبل ملاحقة المجرم ، ومن ثم معاقبته، وفى جميع الأحوال فلابد من الحرص على إنسانية المجرم، كان الرجل محروماً من الطفولة، كما يقال، بيد أنه لم يكن من أولئك المعقدين الذين يعكسون أزماتهم على الآخرين . وإنما اختار طريقاً آخر، تمثل في الحرص على الإحسان لكل من حوته هذه الجدران وذلك منذ هجرته من مسقط رأسه مصراته، ولهذا اختار السكن في مقر العمل، وتحدد عمله في مهمة عدد الموجودين في كل عنبر من العنابر، أما من يكون مع من، فتلك مهمة الموجودين قبل غيرهم، ولأن المكان أوسع من سابقه، فقد حصل من البداية شئ من التراضى،، على أن الذي حدث أن الأمر لم يعد كما كان في الماضى متروكاً للصدف أو الحضور، وإنما

سمح بإعادة ترتيب الإقامة وفقاً للعلاقات والأمزجة وكذلك الأهواء . مع أن الرغبة في الحفاظ على الجو الذي هيأته التجربة الأولى كانت موجودة لدى الأغلبية، إلا أن ذلك لم يمنع من إدخال بعض التعديلات، إذ رأى الجميع أن يكون للشيخ عليَّ مكان مفرد عن الآخرين، فقد كان يعانى آلاماً شديدة من الربو المزمن، فهو لا يتضايق من التدخين وحسب، بل كذلك من كثرة العدد، فضلاً عن ذلك ، فقد كان من الضروري أن يترك له شئ من البراح الذي يسمح له بإعطاء المشورة التي كثيراً ما تطلب إليه، بين الفينة والفينة، من مجموعة الأقارب الذين جيء بهم معه، فقد كان الدافع إزاءهم واحداً، فضلاً عن أن صلات القربى توجب على الموجودين مراعاة ذلك .

كنا قبل هذه الفترة ومنذ الخروج من القسم (1) نقيم مع بعض، بواقع ثلاثة أسرة في كل غرفة من الغرف الصغيرة، وقد كان رجب هو الضحية، باعتباره من المدخنين بشراهة، ويمنعه حياؤه من التدخين في ذات المكان، فيضطر بالتالى إلى الخروج في كل لحظة، وذلك لمجرد أن وقع شئ من التساهل بشأن التدخين . وبما أن هذه الإشكالية قد حلت الآن نهائياً، فصار الأمر أكثر صعوبة، ولهذا بادر لحسم هذه الإشكالية، إشكالية السكن نهائياً، وذلك بتبنى مبدأ تخصيص اصغر الحجرات للشيخ على.

والواقع أن ميزة الإقامة في الجناح الصغير، أو "الباقامينتو" كما التسمية الإيطالية، قد زالت نهائياً، إذ استبعدت الشرطة فكرة قفل العنابر لمجرد استلامها مسؤولية الإشراف، إذ فتحت أبواب

العنابر مجتمعة، وكذلك الباحة، بحيث لم يعد مقفلاً سوى الباب المؤدى إلى بقية الأقسام، بمعنى أن العنابر والباحة أو اللاّريا فإنها لم تعد تقفل أبداً، على أن الحجرات أعيد تقسيمها من قبل الموجودين وفقاً لما اقتضته صلات القربة أو الجيرة، وكان ذلك بقصد توحيد مواقيت الزيارة بما يوفر للأقارب رؤية بعضهم البعض في دفعة واحدة ولأكبر عدد ممكن، فلم تعد الزيارة تتم على هيئة منة ولكنها صارت حقاً من الحقوق، وصارت في الفترة الأولى متاحة كل يوم، مما جعل الأهل والأقارب يقومون بها بلا انقطاع . إذ كل يريد التعويض عن الفترات السابقة، عندما منعت بالكامل، ثم حصرت في البداية في أقرب الأقارب، أما الآن فقد اتيحت للجميع، وليست ثمة من شرط سوى إبراز البطاقة الشخصية وطلب الشخص المرغوب.

لقد كانت الفرحة بنقل اختصاص الإشراف إلى الشرطة تقارب في وقعها على النفس، مغادرة الأسوار بشكل نهائي والعودة إلى الأهل والعشيرة وغدا الجميع يشعرون أن الحراسة قد وجدت من أجلهم وليست لأجلهم، صار الزمان غير الزمان والمكان غير المكان، وصار الجميع يعبرون بطريقتهم الخاصة حتى أن عددا لا بأس به منهم صاروا يهنئون بعضهم بعضا، وكأنهم لم يعودوا خلف الأسوار، وما ذلك إلا لأن وجود من يحسن أداء الواجب يستطيع أن ينسى الضحية، حقيقة المأساة ولنا أن نقول وببساطة شديدة إن الأبواب ما زالت هى الأبواب، والزرد هى هى الزرد لكن الذين يغلقون الأبواب ويقفلون الزرد لا يفعلون ذلك فرحين، لا ينهون الوقت المحدد بأوامر تبدو منها

رائحة السلطة القمعية، لا يفقدون أبداً نزعتهم الإنسانية لا يؤدون واجبهم الثقيل في غياب التنويه عن مثل هذا الثقل وذلك قبل غيره في مقدمة ما يخفف على الإحساس بثقل المأساة، بل وما يدفع بالمرء أن يستبعد من خاطره أي إحساس بالتواطؤ، فمع العلم أن البقاء في مثل هذه الأماكن يفترض ألا يتعدى الأسابيع المعدودة ألا ويصدر بذلك حكم من الأحكام، إلا أن وجود أمثال هؤلاء من شأنه أن يخفف من الإحساس بأى شعور سيء، فصارت بالتالى كل الأشياء عادية وصار أي تحرش بهؤلاء المكلفين بمثل هذه المهمة الثقيلة من قبيل المزايدة التي لا مسوغ لها ولا داعي لحدوثها .

* * *

تمثل الإذاعة في الغالب أقوى المؤشرات إزاء ما يمكن أن تأتى به الأيام من القرارات التي تمس المجتمع في مجمله، وهى بالنسبة لمن تحجبهم الأسوار العالية وتوصد عليهم الزرد المخيفة تمثل ذلك أكثر فأكثر. وما من مرة علت فيها نبرة الإعلام وشاعت لغة الوعد والوعيد إلا وكان وكان توتر الإعلام نذير شؤم وطالع شر لكل من واجه مثل هذه المحن، فالإذاعة إذن وبواسطة برامجها في مقدمة المؤشرات نحو ما يحمله الغد.

ولهذا كانت الفرحة غامرة عندما بدأ تغير البرامج في ظهر ذلك اليوم عندما شرع المذيع يقدم باقة من الأغنيات العاطفية التي دشنها أحمد سامى عبر الشاشة الصغيرة التي كانت ترسل في عز النهار وهو يترنم بأغنيته الجميلة" ساعات يزهى خاطرى ودليلي وساعات يا دنيا

علـى تمـبلي" . . إلى أن يقـول شـن داسـة لـياترى قولـي لـي ! وإذ ذاك طـارت النفس المكلومـة وحلقـت بعيداً إلى ليـالى شـارع ابـن عاشـور مـع هذا الفنـان الجميل، تحليقة لم يحصل الرجوع منها إلا عـندمـا جـاء دور وصلة أغـاني فـزان التـي شبه عبرها الشـاعر ضد الحبيب أو الشيء كمـا يدعونه (خده كما بارقة في قرارة) ليأتـي بعد ذلك برنـامج الطاهر أو " البسباس " كمـا هى التسمية الفنية فـيكرس حلقـته يومـئذ للإشـارة بضرورة عـودة الموجودين هنـا إلى أهلهم قبل حلول رمضـان، في أسلوب يجمـع بين الطلب والرجاء، فيتكفل بإمكانية تحقق المطلوب، وهو نفس الموقـف الذي تبنـته صحيفة الرأى التـي صدرت في تلك الأيام وكتبت تدعو إلى ضرورة النظر بعين العطف لأن الموجودين أو أغلبهم قد تـابوا وأنـابوا ومـا جـزاء مـن تـاب وأنـاب إلا العفـو والعـودة مـن حيـث أتـى . فكـان ذلك كلـه من بشائر الخير ودواعـى الأمل مـع حـلول سبتمبر الذي كـان يومـئذ قـد حـل، وجـاء الخطـاب فـيه مـتجهاً نحـو التقليل مـن أي مخاطر حصل الحديث عنها سلفاً .

لقد تـأكد أن كل مـا هو مطلوب قد أمكن التوصل إليه بـالنسبة للجهـات المسؤولة وصـار كـل الفـرقاء محددين وفقـاً للتصـنيف الـذي وضـع بصـددهم، ومـن الممكن اعتبـارهم جميعاً يمثلون اتجاهـات فكرية أو شبـه سيـاسـية . بعضـهـم وصـل إلى القـناعة التـامة بمـا لديـه، وربمـا وصـل إلى حـد التـحرك فـي يـوم مـن الأيـام، وبعضـهم الآخـر مـا زال فـي البداية، فـي ذات الوقـت الـذي وجـد فـيه مـن حـام حـول الحمـى كمـا يقـول السـابقون، ثـم عـاد إلى شـرنقته، بيد أنـه ظـل فـي نظـر الأطـراف

المسؤولة موضع شبهة، على أن جميع التصنيفات وجد بين صفوفها من اتخذ بعض المواقف العملية من حيث محاولة النشاط المنظم، مما وفر الصدقية لما حمله الخطاب الرسمي من إعلان عن ضبط بعض الجماعات المنظمة ذات نشاط سياسي، الأمر الذي صارت التشريعات النافذة ترفضه وترى في الإقدام عليه جريمة ترتفع إلى مستوى الخيانة . وإذا كان كل شئ قد انتهى فقد صار من المتيسر على الموجودين أن يختاروا الأشخاص الذين يتلاءمون معهم في السكن، مما جعل العنابر تتحول إلى ما يشبه الحلقات الفكرية من حيث التناول الخاص بمختلف الشئون، كما أدى انتساب بعض المجموعات إلى أرومة واحدة إلى الحوار حول هذه الأرومة من حيث العادات والفنون الشعبية، فالوقت طويل ولا مناص من العمل على شغله، ولا سيما حول هذه المسائل، بوصفها لا تثير الخلاف، ولا تعمل على تأجج أي شكل من أشكال الحساسية، ذلك أن وتيرة التوتر مرتفعة نسبياً، وما من سبيل للحيلولة دون استفحالها، مثل الحذر من كثرة النقاش والإصرار على فرض وجهة النظر الخاصة، ومن طبيعة المجموعات التي تعرف هوية بعضها أن يشتد لديها الحذر من تسرب وجهة نظر الأطراف إلى بعضها البعض، حتى إن هناك من لم يعد يرى غضاضة في رصد من يعنيهم الأمر كلما شوهدوا مع بعض الذين يفترض أن يكون الخلاف معهم غير قابل للتغير.

ومع أن المعايشة قد قامت على محاولة الاقتراب من كل الموجودين والحرص على عدم الظهور بمظهر المتقوقع أو الشللي، سواء

بواسطة الحديث بما تيسر، أو عن طريق الإنصات لجميع الموجودين، وخلق سبيل للحوار معهم كافة، ومحاولة الاستفادة بما لديهم في جميع المجالات . على أن الشبهة اليسارية، تبدو في أحيان كثيرة شديدة التعقيد، فهى رسمياً تعنى الخروج عن الالتزام باعتبار الفكرة قد بلورت في شكلها النهائي من قبل الفيلسوف المادى كارل ماركس إليهودى الأصل وصاحب الرأى المتطرف إزاء الدين ورجال الدين أيضاً . ورغم أن بواعث هذا الموقف تعزى إلى حد كبير لما عرفه ذلك الفيلسوف عن رجال الدين لدى قومه مباشرة، أي هم بطبيعة الحال رجال الدين المسيحى أولئك الذين كانت لهم السطوة الروحية في أوربا، إلا أن عدداً كبيراً من المهتمين بشئون المسلمين قد اعتبروا أنفسهم معنيين بما تبناه ماركس من آراء فكرية قامت على الموقف غير الودى من الأديان كافة، فلم يدخروا جهداً في التصدى لهذا الاتجاه الفكري واعتباره ادعى إلى المحاربة مما سواه، والنظر إليه دائماً كمصدر للأخطار التي ما لم توقف ستنال من الإسلام ، ولهذا فإن كل من تكون شبهته السياسية منصرفة إلى مثل هذا التصنيف، لابد أن تكون صعوباته جمة، وربما يتعذر عليه في لحظات كثيرة الحصول على أي قسط من الراحة ما دام الموجودون إلى جانبه سينظرون إليه بمثل هذه النظرة المليئة بالريبة، بل ولا تجد غضاضة في المجاهرة بالعداء حتى وهى تعيش مثل هذه المحنة وعلى قدر غير قليل من الحدة، ولأن الرؤى مختلفة إزاء أمور كثيرة، والالتزام الدينى يتفاوت بين شخص وآخر، فإن إمكانية الاحتكاك تبدو فى أحيان

كثيرة أوفر حظاً من عداها مع الكثير من المتساكنين .

صار مؤكداً أن المرتبات لم تقطع عن أي أسرة من أسر الموجودين رغم مضى عدد من الأشهر وصلت السنة، وكان الاستمرار في صرف المرتبات باعثاً لاستشعار الاطمئنان، داعياً للتذرع بالصبر لكى تفرغ الجهات المسؤولة من اتخاذ ما يترآى لها مستقبلاً، لكن أكثر الموجودين ، إن لم نقل جميعهم ، كانوا في عجلة من أمرهم، وكثير منهم لا يدرك طبيعة مثل هذه المستجدات مما جعل فكرة التقدم بشيء مكتوب إلى الجهات المسؤولة ضرورياً في نظر البعض، فوضع تبعاً لذلك مشروع كتاب وطلب من ثم إبداء الرأى المناسب في الصياغة تمهيداً للتوقيع من كل الموجودين .

إن إعطاء الرأى في مثل هذه الإشكاليات على أساس الرفض من الأمور الصعبة على الإنسان، إذ ليس من المصلحة أن يبادر من يتعرض لمثل هذه المحنة بالكتابة، سواء من حيث المبدأ، أو من حيث الكيفية، وليس ضرورياً بحكم الوضعية أن يكون هناك أي خطاب، فالطبيعي أن يؤذن لكل من لم تثبت إدانته بالعودة الفورية، دون أي حاجة للكتابة في الخصوص، ولا سيما إذا كان المقصود بالكتابة هو تقديم الملتمس . وقد كان الواقع الخاص يدعو لاتباع مثل هذا الأسلوب وما دامت الأدلة غير موجودة فلا داعي لإراقة ماء الوجه في الكتابة اللهم إلا إذا كانت على هيئة احتجاج، لكن الآخرين وضعهم يختلف فكان تبنيهم لفكرة الكتابة ومن منطلق طلب الرحمة ! فكيف يكون المخرج ؟

بدا أن الحذر من الكتابة الجماعية، وتوجيه الموجودين نحوه من أيسر الأساليب للتخلص من ورطة الكتابة، فوقع الدفع باتجاه المعالجة الفردية، بحجة أن كل فرد من الموجودين جيء به وحده، فأولى به والحالة هذه أن يكتب ما يعن له أن يكتب، إذا ما رأى أن هناك ضرورة لهذه الكتابة ولا داعي إذن لإقحام الآخرين، فكان هذا المخرج كفيلاً بتفادي الإحراج .

إن أصعب اللحظات على النفس هى تلك التي يفاتح فيها المرء حول هذه الأمور وبالذات من قبل الذين لهم هوية محددة، فقد جيء بهم لهذا السبب أو ذاك، فهؤلاء كثيرا ما يكون إحساسهم بالقلق يزيد عن غيرهم، بل إن إحساسهم هذا وجد من البداية، وقناعتهم بجدوى الإسراع بالكتابة تفوق غيرهم كثيراً، فغدو وفقاً لذلك لا يسأمون الحديث في مثل هذا الأمر، كما أنهم خلطوا بين حسن المعاشرة والحرص على التعاون في المشترك اليومى، وبين ما يمكن وصفه بالموقف الذي يختلف تقديره من شخص لآخر، وبقدر ما يكون عشمهم في إمكانية إقناع كل من يفاتحونه في مثل هذه الأمور بقدر ما يكون إحساسهم بالإحباط شديد الوقع على النفوس المكلومة، إذ لم يكن هناك من التجارب ما يسمح بالتفريق بين العلاقات الشخصية ومسائل الرأى . وما دام الود قد وجد فمن الضرورى حسب هذا المنطق أن يتم التفاهم في كل شئ بما في ذلك الأمور المصيرية .

سعيد، ذلك الإنسان المهيب الطيب، أكثر الموجودين إلحاحاً في هذا الجانب، وأشدهم حماسة إلى ضرورة الكتابة، فهو يدرك تمام

الإدراك مدى بعده عن المواصفات التي وضعت لمن جيء بهم إلى هنا، فلم يكن في أي يوم من الأيام صاحب اتجاه سياسي، يميناً كان أم يساراً، وهو أيضاً لم يعوق المسيرة بل تعاون معها، وهو كذلك لم يكن من أصحاب المعالم القديمة ولا من ذوى النفوذ القديم، كل ما في الأمر أنه قال قولاً ربما لم يعجب، غير أن باعثه لقوله هذا هو الصدق، ولذلك فهو لا يجد غضاضة في طرح المسألة . ولا يمل من الدعوة إلى تقديم شئ مكتوب يتضمن شرحاً لكل هذه الملابسات، إنه لا يتكلم وحسب بل إنه يحضر مشاريع المذكرات ويأخذ في عرضها على كل من يختلي به هنا أو هناك. هو لا يستطيع أن يفرق بين وضعه ووضع الآخرين، وما إلى إفهامه مثل هذه الإشكالية من سبيل، فلا مناص إذن من الاستماع إليه والأخذ بخاطره ولكن دون الإخلال بالثوابت، مثل مراعاة الحقيقة وما تتوق إليه النفس في معالجة الأمور، لكنه لا يمل من الجدل ومن التعبير عن عشمه في إمكانية الاستجابة لأى ورقة تكتب، ومن العبث أن يقول له أحد إن أي ورقة لا يمكن أن تذهب من المكان ما لم يطلب ارسالها، فإذا ما حاول أحد أن يثنيه عن رغبة كان أبسط الردود وأكثرها جاهزية على المرء أن " يتسبب " ويترك الأمر للرب، وويل لمن لا يقبل مثل هذا القول إذ يعني ببساطة شديدة ضعف الإيمان والعياذ بالله !

تلك هى المحنة التي تأتى في مثل هذه الظروف، إما أن تقبل بما يطرح من مقترحات غير منطقية ومعالجات لا تتفق وطبيعة الظروف وما يقتضيه العام، وإما أن تحسب ضمن الذين ضعف إيمانهم وقل

اتكالهم على الله في مثل هذه الظروف الصعبة .. إن الرجل لا يقول مثل هذا الكلام لكن بعض الوجوه تبدو موحية به ويشير إليه في كل حركة .

الصيد أيضاً من الذين يدخلون ضمن هذه الدائرة، وإن يكن يعزو سبب حضوره إلى مبادرة من المسؤول الأمني، وهو تفسير يصعب القبول به من الناحية العملية، لأن الإجراء لابد أن يكون نتاج خطة كاملة لكنه يصر على هذه القراءة، وقد كان من حسن حظه وجود عدد لا بأس به يعزو مسؤوليتهم إلى ذات المسؤول، وكان ذلك مريحاً للرجل في المدى البعيد بقدر ما كان مثيراً لسخطه ومجاهرته بالتعبير عن الحسرة والألم والأنين أيضاً ، وكان ذلك كله باعثاً على الإقبال عليه والارتياح إليه، فكل لحظاته وكل تصرفاته يحتاج إليها الإنسان عبر ساعات النهار والليل على تواليها يحتاج المرء أن يصرخ، ويحتاج أن يضحك ملء شدقيه ويحتاج أيضاً أن يخرج عن طوره فكل الأشياء كما يأتيها الصيد مباحة، بما في ذلك الأسئلة الساذجة والمحرجة أيضاً ، حتى وهو يؤكد ثقة قاطعة وجود نشاط ما في بلد ما في يوم ما ويدخل مستمعه الدائرة المسؤولة، فإن ذلك يبدو جميلاً، حتى ليبدو الفضل ذكياً للغاية وهو يتخذ من الحديث مع الصيد ، أو رأس الحصان كما كان يدعوه ، نوعاً من ممارسة اليوغا، فكل حديث عن أمنية من الأماني أو شهوة من الشهوات أو حزن من الأحزان إنما هو في حقيقة الحال بمثابة الخروج من أهوال المكان، فما لدى الصيد من تفاصيل عن حياته المثيرة وجلسات أصدقائه ومعارفه كالبراق الذي يجعل مستمعه يشعر

أنه قد صعد إلى السماء أو المسؤول النافذ الذي يخرج من تربطه به أوثق العلاقات إلى جبال غريان الجميلة حين تكسوها الأعشاب والأشجار من الحلل ما لا يوجد أو حين توفر ذات الجبال إلى جانب البيوت لمقاومة الصيف ما لا يوصف . ذلك أن تفاصيل حياة عبد الرزاق ونقاء شخصيته وبساطة احاديثه وحرارة الصدق في كل كلمة يقولها توفر إغراء يفوق كل ما عداه .

غير أن الحديث عن الكتابة والدعوة إلى مخاطبة الإدارة تبدو بمثابة ما يؤرق المرء ويضاعف من ضيقه وهو يتحرك وسط الحشد الكبير من الناس، خاصة بعد أن صار كل شئ متاحاً بدءاً من الزيارة التي فتحت أبوابها للجميع أو الدخان الذي رفعت عنه كل القيود، وبالأحرى كل الاحتياجات اليومية التي صارت تأخذ طريقها إلى الجميع لمجرد أن توضع في مكان الأمانات .

اتضح أن من بين التحسينات التي أدخلت على القسم، بحكم التبعية بالطبع، مكتبته، يتم الذهاب إليها وفق توقيت محدد، شأنها شأن العيادة وبعض المرافق الخدمية الأخرى . وقد زودت هذه المكتبة بعدد من الكتب الأدبية والسياسية والتفاسير والسير والتاريخ . وهناك أكثر من سبيل للحصول على الكتب المطلوبة، فضلاً عن الوقت المحدد للذهاب إلى المكتبة، ثمة من كلف تصميم قوائم الكتب الموجودة، وما على من يرغب في الاطلاع سوى أن يحدد اسم الكتاب، وقد يحدث البديل من خلال العينات التي يتم التطواف بها بين الموجودين بحكم نظام التسليم والاستلام . إلى جانب الكتب فإن المجلات والصحف أيضاً

صارت توزع، ولم يعد من العسير الحصول على الكتب من الخارج .

إن بعض الذين أواهم القسم ذات يوم تركوا الكثير من الكتب والمجلات، ولم يقم المكلفون بالإشراف بسحب هذه الموجودات، فصارت بالتالى مشاعة من البداية، وقد شكل وجودها في اليوم الأول بادرة جميلة أثارت الكثير من مشاعر التفاؤل، وزأدت من حجم التحليلات لما يمكن أن تأتي به الأيام كما هى عادة كل الذين تجيء بهم الأقدار إلى داخل هذه الجدران، يحدث ذلك رغم أن تاريخ هذه المطبوعات يعود إلى ما قبل السنتين، فالزمن هنا لا يمر أبداً وليس هناك شئ بدون معنى .

* * *

كان أهم الموجودات عدد من مجلة الحوادث البيروتية، لصاحبها سليم اللوزى، وهى مجلة كانت قبل هذه الأيام تصدر على هيئة صحفية، وكانت قد أخفت نزعتها اليمينية تحت عباءة الموقف القومى، عندما اشتد الخلاف بين الناصرية وبعض الفصائل اليسارية المصرية والعربية، عقب ثورة العراق، وخلاف عارف وقاسم الذي انعكس يومئذ على الشارع وهيأت مناخاً مناسباً لليمين كى يشن حربه على القوى التقدمية بحجة الانتصار للتيارات القومية .

كان العدد الموجود من الحوادث يحتوى على تشطير لقصيدة ابى فراس الحمداني الشهيرة التي مطلعها :

أراك عصي الدمع شيمتك الصبر   أما للهوى نهي عليك ولا أمر

وهى قصيدة لم تكسب شهرتها من الإبداع الحمداني وحسب، وإنما بتأثير الأداء الجيد الذي كثيراً ما قامت به كوكب الشرق أم كلثوم.

لقد صور أبو فراس الحمداني ملامح شخصيته بقدرة فائقة وأفلح في التميز عن مجايليه من الرجال جميعاً، والشعراء خاصة، باذكاء روح المكابرة والحرص على إظهار التجلد والترفع عن الشكوى إزاء حروف الدهر وغائلات الأيام ابتداء من ضيق ذات اليد إلى توالى ظلم السلاطين وهجر الأحبة وتخلي الأقارب ولا سيما حين يكون الدهر في مجمله بيد أولئك الذين يقترفون المظالم ويكون هؤلاء كذلك هم الأقارب وهم القادرون على الإبناء بغير ما أتوا مخالفين بذلك أكبر وأنبل توجيه إلهى، كثيراً ما رأى أهل ذلك الزمان أن يختموا به خطبهم الجمعية، بصدد العدل وإيتاء ذى القربى .

هى قصيدة وجدت صداها لدى الكثير من نبلاء القوم وسادتهم قديماً، وتضاعف الاهتمام بها خلال حفلات كوكب الشرق التي كانت تقام بشكل ثابت في مطلع كل شهر، وتنقل بإذاعة القاهرة وصوت العرب، ويحرص الجميع على متابعة وصلاتها التي تدوم إلى ساعات متأخرة من أول جمعة في مطلع كل شهر، عندما كانت أم كلثوم في مقدمة من ينقل أحاسيس النخبة وهى تغنى قصائد كبار الشعراء حتى أن هناك من يذهب به الخيال إلى حد القول إن الفنانة الكبيرة كانت تومىء بمنديلها وهى تردد مقاطع أشهر قصائدها القائلة :

آه من قيدك أدمى معصمى
لم أبقيه وما أبقى عليَّ

* * *

أعطنى حريتى أطلق يديَّ
إننى أعطيت ما استبقيت شئ

إنها الأحاديث التي يختلط فيها التمنى بالواقع، وتغلب عليها الشائعة والمتخيل، فلا السيدة أم كلثوم بالمرأة الخالية من الذوق حتى ترتكب مثل هذه التصرفات غير المسؤولة، فتستفز من يحضر حفلاتها، وهو حضور يعبر بشكل ما عن احترام هذه الفنانة، ولا الذي يحضر حفلاتها من كبار المسؤولين والزعماء بالعاجز عن التعبير بموقف ما تجاه مثل هذا التصرف غير المسؤول سواء باللجوء إلى القرار أو الخروج من حفلاتها على الأقل حين يصل الأمر إلى هذا المستوى من الإغاظة، لولا أن القوم قد تعودوا في بعض مواقفهم على النكتة وعلى كلمات الأغنية التي ترسل عفواً الخاطر وتعبر عن لحظات الخاصة بالعلاقة بين الأحبة. فإذا ما جاءت ظروف جديدة وقدر للأغنية أن تذاع في لحظة مناسبة لما يجرى في الشارع صار اللجوء إلى كلمات الأغنية وكأنه التعبير الخاص بما يجرى في الحياة من أنواع المظالم.

كان التشطير المشار إليه بقلم اسم لم تعرفه الساحة الأدبية كشاعر، اللهم إلا في أول كتاب صدر عن الشعر والشعراء في مطلع الخمسينات وما عدا ذلك فقد تمثلت شهرة الرجل في الصحافة، عندما أصدر صحيفة

الليبي مرتين، وكذلك عمله في ميدان المحاماة، إلى جانب رئاسة المجلس التشريعي لولاية طرابلس والمجلس التنفيذى أيضاً ، وكلا المعنيين بدرجة وزير، وكان ذلك في النصف الأول من الستينات، ومنذ تلك الأيام انصرف الرجل لشئونه الخاصة، ولكن في السبعينات، كان ضمن الذين شملهم الإيقاف السياسي، وإن لم تقدم إليه تهمة محددة بقدر ما عول عليه ضمن الشهود وبالذات في انتخابات 64 التي لم يسمح له بخوضها ربما لمبادرة وزير الداخلية المعادى له لحسابات قبلية، مما جعل المناكفة بين الاثنين لافتة، وقد اختلفت الآراء بصدد هذه المفارقة إذ لم يستسغ الكثير موقف الشاعر، إذ كان العشم أن يتسامح وأن يكف عما ساقه عن بعض التعبيرات، التي أتاحت لوزير الداخلية أن يذكر من جهته بعض المعلومات المتعلقة بإجراءات الرجل داخل ولاية طرابلس ذات يوم، فكان الحوار بين الاثنين موظفاً لغير مصلحتهما، كأبناء جيل واحد وينحدرون كذلك من أرومة واحدة .

لم يعرف عن الرجل أنه من المنحازين للشعر، إذ لم ينشر اية نصوص وإنما اكتفى بكتابة المقالة الأدبية في الفترات التي كان فيها معنياً بالأدب، ربما لأنه لم يكن راضياً عن قصائده، وربما لإدراكه أن كتابة الشعر ستكلفه نشر ما لا يريد أن يكتب، فقد تدفعه بعض الظروف لمدح من لا يستحق المدح ورثاء من ليس جديراً بالرثاء، فالشعر يومئذ وبالقياس إلى جيل الرجل لابد أن يعالج مثل هذه الأغراض وثمة من يرجع انصراف الرجل عن شئون الأدب بالكامل إنما يعود إلى انشغاله بأمور دنيوية لا صلة لها بالشعر .

على أن التشطير الذي حواه العدد كان على قدر كبير من الإتقان، وكان كذلك شديد المطابقة للحالة الموجودة، فقد كانت تجربة الحمداني تتفق في عمومها مع تجربة المجموعة، كل حسب ظروفه، ذلك أن الخطوط العامة للتجربة إنما تنحصر في استشعار المرارة إزاء غائلات الزمن، ومحاولة الوقوف إزاءها في شئ من العبر والاحتمال، ولا شك أن المكابرة والترفع عن الشكوى وإظهار الجلادة من الأمور التي تطرب لها النفس، حتى وإن لم تكن قادرة على التمسك بها بالفعل، إذ يكفى المرء أن ينحاز دوماً إلى الموقف الجميل حتى وإن لم يستطع اتخاذ هذا الموقف في دنيا الواقع .

لكن التشطير من ناحية أخرى يطرح الأمر من حيث المبدأ، فينفى ما تبادر إلى البعض من حيث الفارق بين الأصل والتشطير، ومبالغة الموجودين القائلة بأن التشطير يفوق الأصل، إذ إن باعث الذين قالوا بذلك هو أن التشطير كتب بقلم أحد الليبيين ولا بد للنزعة الوطنية من أن تفعل فعلتها، والتشطير مهما أتقن وتحقق له من الإجادة، فإنه لا يعدو أن يكون ضرباً من ضروب التأثر بالنص الأصلى، وإن كان الأمر يتصل بطبيعة التجربة أكثر من اتصاله بالنص والتجربة المعاشة سواء كانت بالنسبة للموجودين أو بالنسبة لصاحب التشطير أقرب إلى الوجدان من تجربة الحمداني والتى تعود إلى الف سنة وأكثر من التاريخ الموجود . ولأن عدداً غير قليل من الموجودين تعود أصولهم إلى المنطقة الغربية حيث مولد الأستاذ عليّ ونشأته وإختلاف الناس حول مواقفه والكثير من قراراته كان من الضروري أن تدخل أطراف كثيرة

في النقاش وأن يبدأ ذلك النقاش من موقف الشيخ عليّ المبكر من السيد البشير السعداوى عندما انفردت صحيفة الليبي بموقف خاص تجاه شخصية البشير السعداوى الذي أسس يومئذ المؤتمر الوطنى، الحزب الذي توحدت داخله مجموعة من التشكيلات السياسية التي حملت الدعوة إلى الوحدة الليبية لكل من طرابلس برقة فزان ، ولكن تحت النظام الملكى، وهو اتجاه التقت داخله الإدارة الوطنية والسياسة الدولية، كصيغة يمكن أن تقبل بها الأطراف مجتمعة، لولا أن الأمر قد نحى منحى آخر حين رؤى تأجيل الوحدة والاكتفاء بالدولة الاتحادية مع النظام الملكى، فكانت الليبي ممثلة في شخص صاحبها الأستاذ عليّ في مقدمة من تصدى للسعداوى وكذلك رميه بأبشع النعوت، الأمر الذي شكل صدمة لمعظم الأطراف الشعبية التي انضوت تحت لواء السعداوى وتسابقت نحو تاييده وكيل المديح لشعاراته وتوجهاته، فإذا ما علمنا أن السعداوى كان قبل مجيئه إلى الوطن قد عاش فترة في القاهرة والتقى بعض الشخصيات التي كان لها تحفظ نحو شخصية الأمير الذي سيصبح ملكاً فيما بعد ومن بين هؤلاء الشيخ الطاهر الزاوى الذي ربطته بالشيخ صلات القربى والأستاذية كان من نتيجتها الإلمام بالكثير من أسرار اللعبة السياسية ومن بينها بطبيعة الحال ما طرأ على شخصية السعداوى من تحول في المواقف أدركنا خلفية الموقف العدائي الصلب الذي انفرد به الشيخ عليُّ (ابن أخت الزاوى) تجاه السعدلوى وبقية الرموز التي انضوت تحت لوائه من ذلك الدكتور محمد فؤاد شكرى أستاذ التاريخ بالجامعة المصرية، والمستشار السياسي للزعيم السعداوى

والذى انفرد فيما بعد بتأليف كتاب بعنوان ليبيا الدولة العربية الثامنة، حوى الكثير من المعلومات والوثائق عن تلك الحقبة التاريخية المتشابكة.

ولدى وجود العدد القديم من مجلة الحوادث المتضمن لتشطير الخاص بقصيدة أبى فراس الحمداني وكذلك عدد غير قليل من الموجودين من ذوى الصلة بالرجل والدراية بالحقبة صار من الضرورى أن يكون ذلك كله مثار نقاش ومبعث أخذ ورد من الحضور ولكن ليس من قبيل الموافقة على إدانة الرجل على تلك الفترة كما هو الحال بالنسبة للذين طالما استسهلوا الأمر، وما زالوا يرددون الكلام عن شخصية السعداوى من خلال منطق العوام الذين لم يكن أي منهم يدرك أسرار المرحلة، بقدر ما كان يردد كلاماً شاركت أطراف معينة في ترديده واستغلاله في خدمة مخطط معين ما لبث يومئذ أن آتى أكله قبل تقرير المصير البلاد على النحو الذي آل إليه، ثم ما لبث أن أسدل عليه الستار بشكل كامل، ولم يعد أحد يتعرض إلى ذلك الزمن، كما أن الدراسات التاريخية الجادة لم تلتفت بعدئذ إلى تلك الحقبة وتسعى إلى فحص الغث من السمين منها، وتبين ملامح الضعف والقوة فيها، لكن الحديث أيضاً كان من الذاكرة ولم تكن ثمة من وثائق موجودة إلى جانب الرغبة الصادقة في الحفاظ على المشترك والابتعاد عن كل ما يصدع الجماعات ومن بين ذلك ما صار لدى الكثير في حكم الثوابت.

* * *

مع انتقال جهة الإشراف بشكل كامل إلى الإدارة المختصة،

صارت الزيارة متاحة لكل من يرغب في ذلك قريباً كان أم صديقاً، وما على من يعتزم القيام بمثل هذه المهمة سوى الحضور إلى الباب ويذكر اسم من يريد من الموجودين، دون أن يتلكأ أي من الموجودين، وإن كانت الأولوية بالطبع للأقارب حسب الدرجات، كما أنها في الفترات الأولى لم تحصر في يوم محدد بل إنها طوال أسبوعين ظلت تجرى بشكل يومى، والهدف من ذلك على ما يبدو إنهاء كل شكل من أشكال اللبس أو سوء الفهم جراء عدم السماح بها من البداية وهى ، كما يعرف الجميع ، من الحقوق الأساسية لكل من تفرض بعض الأحوال حجزه لأى سبب من الأسباب، فتكفل فتحها بهذه الكيفية بإزالة كل ما أثاره الحجز من ذاكرة الجميع سواء من شملتهم المحنة أو أولئك الذين شغلهم الأمر من الأقارب والأصدقاء أو الناشطين في مجال الشأن العام مما حدا بأعداد غير قليلة من الناس تبادر بالحضور وتجعل الساحة الواسعة تتحول إلى ما يشبه المهرجان الذي تمثل فيه جميع المناطق والهويات، من الرجال والنساء والشيوخ والشباب والتجار والموظفين، وكان ذلك طبيعياً ولا غبار عليه، فالموجودون هنا يمثلون هذه المستويات مجتمعة، هم آباء لهم أبناؤهم وأزواجهم وأصهارهم . وهم أعيان لهم حضورهم وما يدعو الناس إلى مجاملتهم، وهم موظفون بقطاعات مختلفة لهم زملاؤهم ورؤساؤهم ومرؤوسوهم، وهم تجار لهم علاقات واسعة مع الوكلاء والمستوردين . وهم طلبة لهم زملاؤهم . وهم في إدراكهم للمسؤولية وإحساسهم بالشوق الغامر للحياة لا يفرقون في التعامل وفى واجب المجاملة لا

يفرقون بين القريب والبعيد، وكل من تحويه الدائرة فلابد أن يجيء الجميع ويسأل أخاه ويحضنه ويظهر إزاءه كل ما تدخر النفس الإنسانية الكريمة من الود والتعاطف .

كان الزائر من هؤلاء لا يدرك قسوة المحنة على الموجودين، فلا يظهر إلا بما يحتوى كل من تقع عليه عينه دون توقف أمام وجود العلاقة من عدمها ، وكان الموجودون من جهتهم لا يترددون في المبادرة بتثمين هذا الصنيع واعتبار الحضور يخص الجميع وإن يكن دافعه أو عنوانه شخصاً بعينه أو جماعة بعينها فيتحقق بفضل هذا المستوى الرفيع من المسؤولية والمشاعر الإنسانية. جو مفعم من الثقة بالنفس والقدرة على الخروج من ثقل الحجز، سيما وأن الأحاديث صارت متاحة وتقديم الهدايا أيضاً ، لقد استطاع موظفو القسم المختص والإدارة المختصة بالأصح أن يضربوا المثل الأكبر في القدرة على إشعار الجميع بأنهم موضع كل التقدير وإن كانوا شديدى الحرص على التفريق بين حسن المعاملة وحجم المسؤولية، ولهذا لم يجد كثير منهم غضاضة في القيام بواجب الزيارة باستمرار وقضاء وقت لا بأس به في مشاهدة الموجودين وهم يلعبون الورق أو الشطرنج وربما عهد إلى المشاركة أيضاً ، فضاعف ذلك كله من الاطمئنان والثقة بأن الأمور لن تكون مدبرة أو كما هو المصطلح أن أحداً لن يلبس لبوساً يلبسه ذات يوم، وربما صار من اليقين أن فترة البقاء لن تكون طويلة، بيد أن البعض ممن يخلطون بين الجد والهزل وقد نقول من لديهم ميل باتجاه التشاؤم كثيراً ما يحذرون من أن يكون ما يجرى من حسن المعاملة إنما

* * *

هو دليل على إمكانية طول البقاء إذ لولا إدراك هؤلاء المسؤولين بأن المصير لن يكون على ما يرام لما كلفوا نفوسهم مثل هذه الجهود التي تتجاوز واجباتهم كمسؤولين أمنيين، وربما ذهب البعض إلى القول بأن ليس كل الظواهر تدل على البواطن، وهكذا فلا مجال للمضى في الراحة أبدا لمن يتعرض لمثل هذه التجارب، ولا شئ أسهل من استدعاء ما لا يقدر من لحظات التوتر والتوجس، فما دامت الجدران تحتوى الناس والأبواب توصد عند مغادرة الزائرين، فالخوف دائماً سيد الموقف مثل كل الموجودين يأخذ المرء في تأمل الأشياء باستمرار وقد يبدأ من المكان الذي هو القسم من حيث التخطيط وطريقة الهندسة المتمثلة في ذلك الممر الطويل الذي تطل عليه مجموعة من العنابر أو الحجرات الكبيرة التي تتسع لثمانية أسرة متكونة من دورين إلى جانب غرفة صغيرة معدة كحمام، لتبقى بعد ذلك مساحة تتوسط الأسرة يستغلها الموجودون لتناول وجبات الغذاء ظهراً أو ليلاً، في حين تكون الشقة الصغيرة المتكونة من غرفتين وحمام منفصل إلى جانب الممر الصغير، تكون هذه الشقة علامة مميزة على الخصوصية، فهى الباقامينتو، أو المكان المدفوع الثمن كما هو التقليد الايطالى الذي لم تختف مصطلحاته هنا وكذلك بالمستشفى القديم وتعليل ذلك ان الباقامينتو هو المكان الذي يلتزم كل من يرتكب ما يقتضى حجزه ومن ثم الحكم عليه في جريمة ما بتسديد ثمنه، ومن ثم يمكن حجزه عن بقية النزلاء، ويكون من ثم مثل هذه الخصوصية، لكن الذين تهيأ لهم أن يقيموا فقد كان الحظ الغالب سيد الموقف اللهم إلا ما يتعلق بالشيخ

عليّ فلا شك أن هيبته الظاهرة وربما وجود من يدرك مقامه عند الاستدعاء قد تكفل بتوفير مثل هذه الميزة بيد أن معظم الذين أسعفهم الحظ بمثل هذه المعاملة صاروا يستشعرون الراحة النسبية، بقطع النظر عمن يجرأ على التعبير بذلك أو من لم يعبر استحياء أو فهماً للحقيقة التي تعني أن الحجز هو الحجز ولا أهمية مطلقاً للأماكن، وان تكن الاحتياجات البشرية الملاحقة مباشرة تبدو في وقتها أدعى إلى التخفيف على النفس ولو لبعض اللحظات، فليس من يقضي حاجته إلى جانب أكله كمن يملك الابتعاد القليل، وليس من يمكنه أن يغسل جسده بواسطة الدش كمن لا يجد سبيلاً لذلك، فهنا عوالم القياس بالأسوأ والأقل سوءاً وليس أكثر من ذلك .

غير أن الباقامينتو هذا قد صار الآن مثل غيره، فلقد أدت الترتيبات الجديدة إلى اعتبار القسم وحدة لا تتجزأ، فلم تعد أبواب العنابر تقفل عن الممر الطويل، وأصبح بالإمكان تزويد كل عنبر بسخانة ماء إلى جانب دش تيسر إمداده، بالرغم من أن الفعل لم يعد يستدعي مثل هذه الوضعية من حيث سخونة الماء إذ ما زال الزمن هو الخريف المبكر، ففي أغسطس يكون الجو أميل إلى الرطوبة العالية وما يترتب على وجودها من إنشداد في الحرارة نحو الحرارة، لكن من يحويه المكان سيفكر في كل لحظة من لحظات عمره ولا يسأم من مراجعة كل شئ ومن العسير عليه أن يفرط في أي دقيقة .

ومع توالي حضور الزوار وتعدد طبقاتهم ودرجات قربهم من أشياء كثيرة ومواطن أكثر يزداد حجم الإحساس بالطمأنينة والأمل

فــي قــرب الخــروج، وكــلما كــثرت أعدادهــم وزأدت هدايــاهم يقــل الإحساس بالمصيبة وتتضاءل أيضاً ملامح الغبن .

بيد أن العودة إلى الذات وعوالمها، وما تصر عليه من استشعار الأمل والركون إلى التفاؤل حتى في أشد اللحظات ضيقاً، ما يلبث أن يجــر علــيها حــين يــأوى كــل إلى فراشــه أثقــالاً مضــاعفة مــن الحــزن واستشعار المرارة وأشواقاً متتالية مبعثها ما تحمله الذاكرة إزاء كل زائر.

عــلى أن وجودهــم مــع ذلــك تــبقى مــلء القلــب والعقــل، عــبد الرحمن الشويخ الذي لم يمض على دخوله وظائف الفئة الأولى سوى وقــت قصــير، ومــن المفــترض أن يدفعــه وضــعه المؤقــت نحــو المــزيد مــن الحذر، فإذا به في مقدمة من يبادر بالحضور ويدأب على ذلك أكثر من مرة مطمئناً ان كل الأمور ما زالت كما هى، ومجسداً كيف يتوفر عدداً من الناس على أرفع مستويات الوفاء . السنوسي الخير الذي يعيد المرء إلى سنوات الصبا ورفقة الشباب.

القاضى الذي صار في مقدمة اللجنة المسيرة لمكان العمل يقدم هو الآخر ما لديه في ذات السياق . سعيد الذي صار ابن أخيه مسؤولاً أساسياً فــي مجــال القضــاء يشير إلى أنــه قــد وصل مصــحوباً بفاطمــة والأبناء، وأنه استطاع أن يستقى من الشيخ محمد أن الأمور هينة للغاية ولن يكون موعد انتهائها مفتتح 1 ـ 9، وبمناسبة العيد الرابع تحديداً، فيما تتكفل زيارات الغرياني وشرية بإحالة النفس وبالأحرى انتشالها خــارج الأســوار وفــوق الأســلاك الشــائكة الــتي تطل عــلى اســوار اللائــذة

لتمضى بعيداً إلى هناك، إلى ربوع الجامع الصغير والشارع الغربي، حين كان الغرياني ملء السمع والبصر يبدع عن أم شناف أرق الأشعار الشعبية ويعدد مراحل حبه المتكافىء العفيف عشية انتهاء الحرب الكونية وما نتج عنها من فراغ موحش لكل المناطق فظل الغرياني وجيله ينقلبون عليه فالفن ولا شئ غير الفن . أما مداومة العربي على المجيء بالأسرة إلى جانب محمد البشير حين لم تسطع أم المؤمنين أن تثقل على صفاء بالمرافقة فإن ذلك من الأمور التي تتكفل لكل من يتطلع للإبقاء على كبريائه أن يسعى إليها عند مثل هذا النفر من الناس الذين يحسنون تقدير الأمور حق قدرها ولا تفوتهم أبداً بعض الملابسات الخاصة وما ينتج عن الظروف غير الطبيعية .

فإذا ما خلا كل إلى خله أو آب إلى فريقه وصار لزاماً أن يبوح أينا للآخر بما استجد، كانت مثل هذه الأحاسيس محور حديث متصل الحلقات ربما كانت رحلة شربة المثيرة من أقاصى هون إلى مصراته في بداية الخروج وصولاً إلى طرابلس فتونس في نهاية المطاف حيث لم يعد ابن العم الأبعد عشرين سنة من القرية كان من نتاجها عدد من الأطفال بدو جميعاً وكأنهم جزء لا يتجزأ من تونس بكل تقاليدها وطرائق حياتها، حتى لكان شربة لم يقلق يوماً بالبلد ولا عجب ، فأحمد مازن ابن العم يحمل هذا اللقب وكأنه لم يسم بغيره ذات يوم فهو القدرة على التأقلم التي تمثل قصة من قصص البشر الصالحة للرواية.

ليس للرجل ما يوحى بما يتوفر عليه من القدرات، فثمة بطء في حديثه على نحو يجعله غير جذاب، لكن من حديث الحركة ومن حيث

القدرة على العمل العام يظهر دائماً منعدم النظير، فحين بدأت مشاريع العمل التطوعي باشر بإعادة بناء النادى الذي ظل إلى وقت قريب يتكون من مبنى لا تزيد حجراته على الثلاثة فإذا به بفعل الرجل يمثل مبنى من أحدث المباني وأوسعها، وكذلك فعل بالنسبة لإعادة أعمار المساجد بل ولم يقصر في المبادرة بإعادة بنائها في المخطط الجديد حين تعذر الإبقاء على المخططات القديمة، كما أن فطنته إلى ضرورة المزاوجة بين مسجد العيساوية كمكان للعبادة ومرفق يقدم أجمل الخدمات في مختلف مناسباتهم تعتبر في مقدمة المشاريع العامة إن لم تكن أولها على الإطلاق، ومع أنه الآن بين الذين جرى اختيارهم في اللجان المصعدة وسط جو يقوم على مبدأ الإدانة للموجودين هنا، فإنه لا يتخلف عن الحضور والإصرار على المجاملة غير متهيب من أي أثر قد يجره عليه هذا الحضور من قبل المنافسين له والمختلفين معه من داخل العشيرة وجيرانها مثل هذا الوجود يمثل الكثير لمن تأتى به الأقدار إلى مثل هذه الأماكن ومثل هذا الموقف الذي يبادر به الغرياني يبدو متميزاً أكثر فأكثر، والغرياني على كل حال لا تعني أن الرجل من أبناء غريان، وإنما هو لقب منفرد به هناك عندما عاش حياته يتيماً من الأب والجد اللذين ماتا وهو في بداية الحياة فكانت عيشته في الغالب مع الأخوال، ومع الجدة التي ورث فيها أسلوبه في النطق بالذات، كان هو أيضاً من المراهنين على أن كل شئ سينتهى في مطلع الشهر وفى الاحتفال بالعيد الرابع تحديداً، فكان من الضروري أن تزداد مشاعر التفاؤل بالغد القريب .

* * *

تداخلت الفصول مثلما تداخلت المشاعر واختلطت المشاعر مثلما اختلطت الأحوال، وذلك عندما تزامن ما بقى من سبتمبر مع أوائل رمضان لتأتى حرب أكتوبر رمضان في ذات الزمان، فكان لذلك كله أثره وتأثيره . . والأثر والتأثير كلاهما لابد أن يكونا ثقيلين مهما جرت من محاولات للتقليل من قسوة الواقع .

وبعد أن جاء خطاب الاحتفال بالعيد الرابع للفاتح مطمئناً للبعض، وذلك لما تضمن من التقليل من خطورة الموصوفين باليسار، إذ حصر وجودهم في الطلبة الذين درسوا بمصر في الخمسينات وصاروا في زمن الخطاب كباراً في السن، ومن لا يزالون شباباً حددوا في عائلة واحدة، الأمر الذي زاد من الأمل في قرب تصفية القضية إن لم يكن للجميع فلمن نعتوا بهذا النعت على الأقل، فإذا بسبتمبر ينتهى دون أن تتم أي خطوة في الخصوص، وإذا برمضان يقبل هو الآخر ويشرع الجميع في صومه وهم داخل الجدران، ورمضان شهر اعتاد الجميع صومه مع أهلهم وذويهم والكل له ذكرياته وعاداته الخاصة وبالذات من حيث اجتماع الأسرة ، الأب مع ابنائه، والابن مع أهله وما يتبع ذلك من ولائم معروفة وأكلات يتفق عليها وزيارات لا تحصل إلا في مثل هذا الشهر، مما جعل بقاء الجميع هنا ثقيلاً كل الثقل، ولا سيما الأيام الأولى التي تكون عادة صعبة حتى في الأحوال العادية .

لقد جرت محاولة قصم الصمت بإقامة صلاة القيام وبواسطة طوال السور جرياً على العادة المتبعة في مدن وقرى البلاد . كما أن الأسر من جهتها لم تدخر جهداً في محاولة التخفيف من مشاعر الحزن

بما بادر به من إحضار الأكل الجاهز مساء كل يوم وقبل موعد الإفطار بدقائق محدودة مما جعل الأكل يقدم في درجة حرارة جيدة، حتى إن العنابر صارت وكأنها مطاعم كاملة تحوى كل ما لذ وطاب ، كما أن الإدارة من جهتها زأدت من تحسين هذا الطعام، فبدا وكأن الجميع في موسم من مواسم الأكل، لولا أن حرب العاشر من رمضان أو السادس من أكتوبر قد خلق أوضاعاً جديدة، فهذه الحرب التي بدأت بعبور الجيش المصرى لقناة السويس بطريقة هى إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة، وأجمعت كل وسائل الإعلام وإذاعات العالم التي كان الاستماع إليها متاحاً للجميع عبر الأجهزة التي امتلأ بها القسم . إلا أن الخطاب الذي القاه السادات في الأيام الأولى وضمنه الكلام عن جولدا مايير بطريقة لم تألفها الإذن العربية من قبل أشار إلى أن المنطقة مقبلة على متغيرات جديدة إذ تأكد أن الحرب الجارية هى حرب هدفها التحريك وليس التحرير بمعنى أنها تعنى ذلك المشروع القديم الذي عرض من الطرف العربي أثناء مفاوضات روجرز وربما قبلها أيضاً ولم ينل القبول من الغرب، إنه الاحتمال الذي رجحت بعض الدوائر إمكانية الأخذ به عقب سبتمبر مباشرة، عندما نشبت الحرب وجرى الحديث عنها بالطريقة التي تحدث بها السادات، كان الجميع يتحدثون في سخرية شبه واضحة عن إمكانية التفاوض من مصدر القوة وذلك عندما تحدث السادات بطريقته التي تحدث بها .

الى جانب ذلك كان هناك تشكيك لا متناهٍ في موقف الاتحاد السوفيتى هو تشكيك يصدر عن نظرة همها الأول تسويق الشركل

الشر نحو هذا المعسكر، وأخرى تصر على تبنى مثل هذا الموقف في محاولة لإبعاد تهمة اليسار عسى أن يكون في ذلك ما يعجل لها مغادرة الأسوار العالية والأبواب الموصدة .

كلا الموقفين كانا يستفزان المستمع، فيتعين التعبير عن ذلك بالسخرية مرة وبإظهار الامتعاض مرة أخرى، بل لعل الاكتفاء بالنظرة ذات المعنى يكون أيضاً من قبيل الرد على مثل هذه المواقف المتهافتة، ولا سيما تلك المتصلة بالذين يبتغون من وراء الحديث عن الموقف الروسي نفى تهمة من التهم، إذ من الذي ستنطلي عليه مثل هذه المواقف، من الذي يمكنه أن يبلغ بمثل هذه المواقف لمن بيدهم القرار، وهل كان المسكون بالأمر في حاجة إلى مثل هذه المواقف التي لا يخفى على كل ذى بصيرة مضمونها الانتهازي الذي يكشف عنه بكل يسر التبرع بإعلانها دونما طلب من أحد، وهكذا لم يكد يعلن عن وقف إطلاق النار حتى كان الإحساس بالإحباط يتجاوز لدى معظم الموجودين كل ما عداه من الأحاسيس، غير أن الحياة لا تعرف التوقف ولا مناص من معايشة كل لحظة من لحظاتها ومن ثم استدعاء كل ما توحى به ماضياً وحاضراً وكذلك ما يمكن أن تؤشر إليه مستقبلاً .

مع فض المغلف الفضى المحكم الإغلاق وتذوق الدجاج المحمر تحلق النفس عبر شارع الوادى الجميل، لتقف على الناحية التي تحمل لافتة الطاحونة الحمراء، ذلك المشروع الصغير الذي بدأ به الزوى في تلمس طريقه نحو النشاط الخاص والخروج من قيد الوظيفة القاهر، ذلك القيد الذي تلقفت النفس كراهيته من أشعار رفيق في سنوات التكوين الأولى

حيث كانت جميع الخطوات التأسيسية قد حصلت بل وشرع في فتحه منذ أشهر ولكنه الآن على ما يبدو صار أكثر استقراراً وأوفر دخلاً بدليل أن عطاءه يأتى في شئ من التوالى إذ لو لم يكن الأمر كذلك لتعذرت المداومة . لقد عانى محمد الكثير من المتاعب وهو يقطع خطوات التأسيس، ليس فقط على مستوى رأس المال وعلى مستوى التسيير أيضاً إذ لم يكن قد حسم أمره بشأن البقاء داخل السلك الوظيفى والخروج منه، وكان من المتعذر قانوناً أن يتم الجمع بين الوظيفة والرخصة العامة، وخاصة أن الرجل لم يكن مجهولاً كما أن نشاطه الوظيفى ليس من ذلك الشكل العادى الذي يمكن إضفاؤه فقد كان إعلامياً شديد البروز وكاتباً واسع الحضور، فلا مناص من أن يكون ترخيص الطاحونة باسم أحد الأصدقاء، ولم يكن لديه مانع من ذلك لكن الأهل لهم حساباتهم الأخرى، ولهذا كثيراً ما كان يقول وقبل إن يفتتح الطاحونة " الواحد قد عود وقيد ويشعل فيها النار حال إعدادها للعمل " اما وإن دجاجها قد جاء إلى هنا تباعاً، فذلك يعنى أن كل الأمور على ما يرام .

كنت على علم أن مجموعة من الإعلاميين قد توجهت إلى عدد من البلاد الآسيوية وأن محمداً كان من بين أولئك الذين سافروا في تلك الرحلة الطويلة مما جعلنى أشفق عليه من مثل هذه الرحلة التي اعتاد أن يكتب عنها في سفراته المماثلة وبالذات عندما كان قبل سنوات بلندن، عندما كانت رسائله الجميلة تترى من هناك ولا سيما عندما كان خالد في عالم الغيب حين بقيت الزوجة الطيبة تنتظر لحظة الولادة ولم تكن أساليب الكشف التي تبين جنس الجنين قد

دخلت البلاد، والكل منتظرون الولد بفارغ الصبر إذ سبقته في عالم البنات كفنان، لكنه الآن لم يكتب لى رسالة من هناك إذ يدرك أن مثل هذه الرسالة لن تصل، صحيح أن البشير ويوسف يمكنهما أن يستلما مثل هذه الرسائل ولابد أنهما قد توصلا بمثلها فعلاً، لكن لكل نصيبه من الرسائل وما اعتاد أن يكتبه لى يختلف كل الاختلاف عن الآخرين، ترى لو أستطيع الآن أن أطير إلى البيت وأعيد قراءة آخر رسالة وصلت من لندن وكانت قبل سبتمبر بشهر واحد، حين كانت الأحوال على غير ما يرام وفى مجال الوظيفة بالذات، فقد كانت هذه الرسالة وثيقة من أنفس الوثائق وبالتالى جديرة بما أوليته لها من العناية والحفظ .

على أن انتظار المغرب وتأخر الآذان بالرغم من دخول الليل يثير دائماً ذلك الجدل الذي يجيء، كلما جاء رمضان والمتصل بالتوقيت الذي وضعه ذات يوم الشيخ على الساعاتى وسلك فيه طريقاً متشدداً للغاية، بحيث تجاوزت فترة الشك ما يقرب من العشر دقائق، حتى أن الكثير من العلماء كانوا في السنوات التي يتزامن منها مجيء رمضان مع فصل الصيف يعمدون إلى البقاء أمام شاطىء البحر وفوق برج بوليلة تحديداً ليتسنى لهم الإفطار عند الغروب مباشرة وليس حسب ذلك التوقيت المتأخر الذي اعتمده الشيخ ساعات . ولا شك أن الشيخ فاتح كان في موقفه من هذا التوقيت منسجماً مع أولئك الرعيل من العلماء، فكان يصر على أن يبادر الجميع بالإفطار ودونما انتظار لذلك التوقيت المخالف للواقع والموغل في الاحتياط إفطاراً أو إمساكاً على السواء.

مع لحظة الإفطار وعلى مائدته التي لم تخل يوماً واحداً من أجل صنوف الطعام تنهال الذكريات عبر ما انصرم من سنوات العمر الذي تجاوز نصف العقد الرابع وكانت حصيلته أطفالاً أربع كانوا جميعاً في عمر الورود، فيما كانت أمهم المعذبة بالغربة والمثقلة بهموم الرعاية تئن بثقل حملها الخامس وقد عانته هذه المرة من شهره الأول فلم تنعم بما نعمت به من عطف واهتمام في فترة الوحم، ولم تتيسر مرافقتها في زيارة الطبيب عند مطلع كل شهر. لتتوالى ذكريات الإفطار بدءاً من السنين الخوالى وحتى هذه الأيام ، فقد جاء رمضان في فصول كثيرة، وأمكن الحفاظ على صومه باستمرار، بحيث لم يحدث أن انتهكت حرمته في أي مرحلة من مراحل العمر، فكانت لحظة الإفطار دوماً صادقة وليست كما عاشها البعض غير صادقين حين لم يخفوا حقيقة ما عانوه من عذاب الكذب في حضرة الوالدين، وكان آخر ما ينتظره المرء أن يقضى شهر رمضان في مثل هذه الظروف وعلى هذا النحو، تتوالى بعد ذلك صورهم الواحد تلو الآخر، الأهل في الأرومة البعيدة أصدقاء الطفولة ورفاق القراءة سهرات الشباب وسنوات العزوبية ولائم الأقارب التي طالما أقاموها لنا ونحن نعيش بدون أهل ، الموائد التي اقمناها بعد ذلك لمن جاء بعدنا طعم أكلات الأقارب وزوجات الأصدقاء، وأخيراً ما ألفته النفس في البيت ولم تعد تقبل بغيره في أي بيت آخر، كل شئ في الحقيقة يحيل إلى ذكريات أخرى حتى لتبدو الحياة كلها جملة من الذكريات . يضاعف ذلك من استشعار المزيد من الخوف الذي لا يكل من التنبيه به دائماً بعض المتشائمين، وقد دخلت التجربة شهرها

الثامن، فصارت حسب طريقتهم في العدد توشك أن تبلغ سنة كاملة انطلاقاً من الفرضية القائلة بأن السنة هنا تتكون من تسعة أشهر فقط، باعتبار إسقاط الربع الربع من كل مدة زمنية تحددها الإدانة.

مع ترتيل الشيخ كريدان وهو يؤم الذين اختاروا إحياء شعيرة صلاة القيام بطوال السور تتحقق جملة من الفوائد، إن يكن مبدأ المراجعة في مقدمتها فلا شك أن استدعاء ما تحمل الذاكرة ليس بعيداً عنها، فالتلاوة أكثر من غيرها تدفع المتلقى باتجاه التأمل، لأن العلاقة بالنص رفيقة العمر، كان حجم التأمل ووقع القراء أدعى إلى استنفار كل ما يحمل الوجدان، في سنوات العمر الأولى كنا ننصت إلى تلاوة الشيخ محمد الخير، ذلك الناسك الذي لا يعرف له أنيس أقرب من كتاب الله يداوم على قراءته مساء، وتلقينه لمن يرتادون كتابه صباحاً، تمر الشهور والسنين ولا يعرف لذلك الرجل مكان سوى الجامع الكبير الذي اضطلع بإمامته قبيل الحرب الكونية عندما أعيد تشييده وبقى الرجل رهينة لا يغادره أبداً اللهم إلا ما يفرضه حق التزود بالطعام نهارا والمبيت مع الأهل ليلاً، وما عدا ذلك فإن الرجل لا يعرف في حياته سوى المسجد الذي يدخله منذ ظهور الفجر الصادق وأداء صلاة الفجر ومن ثم قراءة نصف جزء من القرآن عقب كل صلاة فجر وآخر عقب صلاة المغرب، كما هى عادة الزاوية المجاورة للمسجد، في حين يكون عليه بعد ذلك قراءة الجزء الخاص بصلاة العشاء، وهكذا يضطلع الشيخ بختم الكتاب الشريف مرتين على الأقل، إضافة إلى ما يدأب عليه من الترتيل غير المحدد حتى

ليشعر المرء أن الشيخ لم يخلق إلا لهذه المهمة، لقد وهبه الله نعمة الصوت الجميل فحمد الله على نعمته، بإنفاق صوته هذا في كتاب الله، لم نكن في ذلك العمر ندرك أهمية الموقف الذي كان يحرص على التمسك به فهو مثابر على الترتيل والتعليم أيضاً ، إذ كان الاهتمام بالحفظ يفوق ما سواه، لكن الإنصات إلى الشيخ كريدان يتيح المراجعة أكثر فأكثر وتبدو فسحة التأمل وبالأحرى التدبر أدعى إلى الوقوف على كنوز المعجز، والمعجز لمن يحسن تذوق ما تزخر به اللغة من المعانى ومن الإعراب تحديداً يأسر النفس، يسيطر اللسان ويملأ الوجدان بكل ما هو ساحر وجميل .

إن كل الحوادث التي يجرى تبادلها بين الموجودين تجمع بين الرغبة في الاستعانة على الوقت والخروج من ضغط اللحظات الصعبة، كما أنها تمثل في جانب من جوانبها شكلاً من أشكال تبادل المعرفة إزاء جملة القضايا المطروحة، غير أن بعض القضايا يتعذر الحديث عنها خشية سوء الفهم وسوء التقدير لعل أبرزها ما هو متعلق بمفهوم الشعر عند العرب الذي وثب الخاطر به عند تناول ما جاء في القرآن الكريم من تنزيه للنص عن أن ينعت بالشعر أو قول الكاهن، لما في مثل هذه الإشارات عن أن مفهوم الشعر عند العرب لم يكن على ما يبدو عند فجر الدعوة الإسلامية وما قبلها يعنى ما قيل عن أنه، أي الشعر، الكلام الموزون المقفى، وإنما كان من الاتساع بحيث يشمل أنواعاً من التعبير، ليس خارجها النثر، إلا أن الكثير من الموجودين قد لا يستريحون لمثل هذا الفهم، بل لعلهم يرون

فيه شيئاً من الخروج عن المألوف، مما اقتضى العدول عن أي حديث في مثل هذه الأمور والقبول باقتصار الكلام في أسباب النزول التي طالما عني بها الشيخ كريدان بما في ذلك ما قيل عن أولئك الذين أقسموا ليصرمنها مصبحين كما جاء في سورة "نون" وهى التي حوت ما حوت عن مفهوم الشعر وإن جاء من باب النفى لا التوكيد، فيكون السهر الرمضاني عقب التراويح مباشرة وأداء حصة المشى بالساحة مسخراً لتأمل بعض النصوص ولكن في كثير من الصمت والانطواء غير المتكلف حول الذات ودون أن يلفت نظر أي من الرفاق الأعزاء، ولكن يحيط صاحبه بأشكال المشاعر النبيلة والعواطف الفياضة التي يمكن أن تكفى الكون كله .

* * *

تحولت العنابر المتشكل منها القسم، ومنذ أن آل الإشراف رسميا إلى الشرطة، تحولت العنابر إلى فضاءات، كل منها يمثل خصوصية من الخصوصيات، ويقضى الجلوس مع القاطنين في كل عنبر إلى أشكال من الحوار الممتع ،الذى يساعد من يشترك فيه إلى الخروج من عوالم المحنة وضغوطها القوية، ويتيسر لكل مجموعة أن تختار جلسائها في الغالب .

كانت أعداد كبيرة من الموجودين هنا تنحدر أصولها من المنطقة الغربية وكثير منها كان من مدينة الزاوية تحديداً، فوجد تبعاً لذلك أكثر من فضاء تتشكل مجموعته من هناك، لكن فضاء من اصطلح على تسميتهم بالعبادلة كان أكثر خصوصية، وأدعى إلى توفير الفضاء

الأرحب والأقرب إلى النفس بل والأغنى بالجو الحميمي لأى كان، وقد اشتقت التسمية هذه لأن في المجموعة، عبد الحكيم وعبد الحميد وعبد المنعم وعبد الحليم وعبد العزيز وعبد الفتاح عبد الرحمن، وعبد العظيم، فهم ثمانية من أصل اثنى عشر رجلاً، كل الأشياء توحد بينهم، ذلك فلكل منهم فاعليته وتجربته المكتسبة من مجال عمله .

كانت لدى الكثير منهم قناعة أن فترة البقاء لله تكون موحدة، وقناعة أخرى بأن ما عساهم قد وقعوا فيه أو بعضهم على الأقل، من سوء تقدير الأمور كان في مقدمة ما يمهد السبيل لإمكانية التخفيف على غيرهم ممن سلكوا نفس الدرب من حيث التفكير وإن لم يخطوا خطوة واحدة في مجال الفعل، وكان في منطقهم هذا قدر كبير من الصحة فمثل هذه التجمعات التي كثيراً ما تفرضها ظروف خاصة كما هو الحال الآن يكون التصرف حول الموجودين في الغالب قائماً على مبدأ التسوية وضرورات الموازنة بين الموجودين، بحيث لا يمكن أن تقصر الإجراءات في شريحة واحدة بقدر ما يعمد إلى محاولة أن تشمل أكثر من طرف وإن لم يكن الجرم متساوياً .

لقد قللت هذه القناعة من حجم القلق عندهم حول المراهنة على الخروج بالسرعة التي تصورها غيرهم من الرفاق بعكس الآخرين يأخذون باحتمال قضاء فترة تزيد على نظرائهم، غير أن هذه الرؤية لا تصدر عن يأس بقدر ما هى نتاج الإدراك الواعى لواقع الحال والذى يستوجب مبدأ التفاوت في البقاء، فكانت نسبة القلق تبعاً لذلك أقل من الآخرين بمراحل وكان الحديث في عنبرهم ينصرف إلى مناقشات

أكثر اتساعاً، وفى مقدمة ذلك الخوض في وقائع التاريخ وفى سير المناضلين ولا سيما الذين ملأت أسماؤهم التاريخ الحديث وعلى وجه التحديد التجربة الناصرية التي ذهب ضحيتها في مطلع الخمسينات عدد غير قليل من النقابيين والمهنيين والمثقفين والطلائعيين الذين ملئت بهم السجون المصرية، إما لأنهم استعجلوا ذلك العهد بضرورة تقنين السلطة وإلغاء حالة الطوارىء التي اقتضاها التغيير ثم وقع تمديدها لمبررات لم تكن، بالنسبة لأمثال أولئك النقابيين ، مقنعة، فكان من الضرورى إيداعهم السجون، أو لأن العهد خشى من أن يتهم من قبل الدوائر الغربية بما كان سائداً من الهوية اليسارية، فاختار المبادرة باعتقال هؤلاء أملاً في أن يكون ذلك الصنيع مطمئناً لتلك الدوائر، ذلك أن السجن الذي لم يعقد أولئك الطلائعيين ولم يمنعهم من المبادرة بإصدار بيانات التأييد من داخل السجون إلى قادة يوليو كلما اتخذوا خطوة في اتجاه تحديد الملكية الزراعية أو تحقيق مكسب من المكاسب الوطنية أو إجراء حاسم بصدد إخراج القوات البريطانية من قناة السويس، وهى القوات التي كان الشعب المصرى يتطلع لخروجها منذ أن ألغيت معاهدة سنة 36 من جانب واحد، ولم يعد لبقائها مبرر.

وكانت حجة أولئك المناضلين وهم يبعثون بتأييدهم من خلف القضبان أن المهم لمصلحة مصر هو تنفيذ البرنامج الوطنى وليس الوضع الشخصى لهم كمناضلين، وهى مبادرات كان لها أطيب الأثر في مسيرة الأحداث لما جسدته من بعد النظر والحرص على كسب رهان المستقبل وحسن التقدير للأولويات، وكذلك ما قوبلت به من

طرف الذين وجه إليهم الخطاب، حين لم يعتبروا مثل هذه المبادرات من قبيل الانتهازية السياسية ولم يضعها داخل شبهة الملق أو الحرص على النفاذ من عقوبة من العقوبات. فكان نتاج ذلك ما عرف في التاريخ المصرى بفترة ما بعد باندونج، عندما انصهرت كافة الطلائع السياسية والتيارات الفكرية في جبهة موحدة حملت المشروع الناصرى القائم على مقاومة النفوذ الأجنبي وما يندرج تحت مظلته من مقاومة مشاريع الأحلاف غير المتكافئة واقتصاد استهلاكي وعدم اهتمام بانسياب الكتاب وأخذ بيد المبدعين في شتى المجالات، وهى من سياسات عزف عنها المشروع الناصري المتمثل في دعم الكتاب والأخذ بيد الفنان ودعوة مستمرة للاقتصاد الموجه، وحضور واضح في المحافل الدولية وبالذات ما عرف يومئذ بمعسكر عدم الانحياز، فكان ذلك الازدهار البين في فنون الأدب الجديد من قصة قصيرة متميزة وقصيدة جديدة ذات نزعة إنسانية عالية، وشكل فنى كبير الدلالة، وقد زاد من تأثير هذا التيار الأدبى ما رافقه من لوحة فنية ضاهت أعمال أشهر الفنانين العالميين وألحان موسيقية استخلفت من أعماق الشعب ومخزوناته التراثية وقصائد شعبية إن تكن قد اختارت العامية لغة فما ذلك إلا لما حفلت به هذه العامية من قدرة على حمل الشحنة العاطفية والقدرة الفائقة على التبليغ ولا سيما عند شاعر مثل نجم وملحن كالشيخ إمام، وأعمال خالدة للفنانة العظيمة فيروز.

كانوا جميعاً كثيري الحديث المفعم بالتقدير لمواقف أولئك المناضلين الذين لم تتملكهم الأنانية الضيقة عن الرهان على القضايا

الأكبر والانتصارات الأعظم التي كثيراً ما أنجزت في فجر الثورة العربية الحديثة كما يحلو لهم نعتها وكلهم اقتناع بتلك المبادرات واستعداد على ما يبدو لإعادتها مرة أخرى ، فتأثيرهم في بعض البعض من الأمور غير الختامية وحتى إذا ما وجد شئ من الخلاف البسيط فإن من أسهل الأشياء التغلب عليه والخروج بموقف واحد، وحتى إذا ما وجد غير المقتنع فلا أحد يقبل إن يكون شاذاً بين الآخرين، وعلى كل حال فإن الأمور بسيطة للغاية والأمر أولاً وأخيراً لا يتجاوز النقاش، إذ لم تتخذ خطوات في الخصوص .

لكن هذه الرؤية القائمة على حسن النية لم تكن باعثة على الاطمئنان فيما يتصل بالمستقبل فكل الدلائل تشير إلى أن من يمكن أن يختار مثل هذا الموقف لن يجد في هذا الواقع من سيقابل بالموقف المناسب، فما يسود الأوساط الإعلامية من حديث مكرور عن المندسين من شأنه أن يجعل كل أصحاب النوايا الحسنة فيما إذا عن لهم أن يتبنوا مثل تلك المواقف وبالأحرى إعادة إنتاجها فإن ما ينتظرهم ليس كذلك، ولا مناص من أن ينعتوا بالمفسدين الذين يجب الحذر منهم أو المسارعة باقتلاعهم من الصفوف، ومن ثم فإن أي محاولة طيبة لن تجد من الطرف المقابل سوى الصدود وسوء التقدير، ومن ثم سوء العاقبة، والقوم على كل حال لا يحبذون المضى في مناقشة المسائل الفردية إلى إثارة الخلاف، وهم لا يجدون غضاضة في التنبيه إلى القول بأن لكل ظروفه الموضوعية، ومبدأ مراعاة الظروف عند التهيؤ لأى خطوة من الخطوات العملية، يبدو من أول

الأمور الجديرة بالتقدير، واللجوء إلى استظهار الشعر الحديث عامياً كان أو فصيحاً ومناقشة الموجود من الكتب والمجلات وترنيم العديد من الألحان القديمة والجديدة في الليالى الطويلة تحديداً أكثر قدرة على حمل النفوس المكلومة باتجاه المدى .

بعضهم كان قد أعلن خطوبته على فتاة الأحلام التي وجد فيها ضالته، مثل حميد وعبد الحليم، وكلا المخطوبتين بادرتا بالزيارة لمجرد أن أتيحت لمن يريدها، وشرعتا تؤكدان أكثر من أي وقت مضى على البقاء على العهد والاستعداد للانتظار مهما طالت المدة، وكان حضورهما مع بقية الأهل من الأمور التي تثير الإعجاب وتدفع نحو الثقة بالآخرين حين يحسن اختيارهم فلا تؤثر فيهم أية دعاية مقصودة، وقضى المجموعة لحظات من الحبور جراء استرجاع الذكريات وكذلك التزود من عبق الأسر وما يشيعه حضورها عادة من مشاعر إنسانية كاملة الجمال، مما يجعل من اللجوء إلى الفن ومحاولة الخروج من دائرة الألم النفسي بواسطة الغناء ضرورة من الضرورات التي لا مناص من الاستعانة بها في الليالى الطويلة، وقد صار الليل أطول من النهار تبعاً لتغير الفصول .

والحق أن عنبر العبادلة ، أو العيلة كما يحلو للبعض أن يدعوه ، يمثل أغنى العنابر بالأجواء الإنسانية الرقيقة والمعايشة الدائمة لقضاء الحياة في ثوب من الفن الرفيع، فمعظمهم يستظهرون أشعار نجم الجميلة، ويتغنون كذلك ألحان شيخ إمام، كما أنهم إلى جانب هذه القصائد لا يسأمون الإصغاء لأشرطة الفنانة القديرة فيروز وثمة

من يحسن أداء أشهر مسرحياتها عن ظهر قلب . وفوق هذا وذاك فلدى المجموعة رصيد وافر من الأغاني الشعبية ولا سيما تلك التي تكون قصائد كاملة، فإذا ما اتضح أن لأى من الموجودين ما يفصح عن إضافة جديدة كان الإصرار على ضرورة الإصغاء إلى هذا الجديد، حتى يتحقق اختزانه في ذاكرة أي من افراد العيلة .

إن من أشهر الأغانى الشعبية التي يدأب على ترديدها والتسلي بها عدد من المنحدرين من شرق الوطن أغنية يقول مطلعها:

"زاعل علينا اليوم ريدى كنا حاضر نبو نرضوه كان هو لنا"

لقد كتبت هذه الأهزوجة بأكثر من رواية وزاد على مكانتها الذين سبقونا إلى الحياة عندما ملأت أصواتهم ليالى المدينة الصغيرة كل يغنى على حبيبه التي لا تملك إلا أن تصغى له في تلك الليالى التي كانت فارغة من كل شئ بحكم سوء الأحوال الاقتصادية وصعوبة الحياة في عالم الريف، مما يجعل اللجوء إلى الفن في مقدمة ما يساعد على تكلف شروط الحياة، وظلت وغيرها في تلافيف الذاكرة ويساعد على تذكرها والحيلولة دون ضياعها توالى الرواية انسجاماً مع محدودية الحياة ، فإذا ما جمعتنا الأيام وحلت بحياتنا الجميلة هذه المحنة وصار ضرورياً أن نستعين على قسوة العيش بالعودة إلى كل شئ قديم ، كانت أهزوجة " زاعل علينا اليوم " ضمن ما أمكن العودة إليه . ولعل عبد الرحمن أن يكون أكثر الموجودين سعادة بذاكرة (الشيخ) حين أمكن مسايرته وهو يترنم بالأغنية عبر

بيتين لا ثالث لهما، فإذا الموجود هنا كثير وكثير للغاية بحيث لم يقتصر الاحتفاء على اللحظة ذاتها في تلك الليلة وإنما غدا حديث الموجودين جميعاً في الصباحات الطويلة أيضاً ، كان من المهم ونحن نعيد الكلمات أن يتمكن الشرع من استظهار المقطوعة بيتاً بعد بيت، فلا شك أن الحاجة ربما تكون ماسة إليها في المستقبل وربما كانت تجربة الانفرادي التي قاسوها في البداية والتى هيأت لهم الحديث مع عدد من التقليدين وتبادل الأحاديث معهم والوقوف على مشاعرهم تجاه بعضنا كان ذلك كافياً لتشجيع كل ذى ذاكرة أن يتزود من مثل هذه الفنون ما وسعه التزود ، فكثيراً ما تكون خير معين على مواجهة محن الحياة وأهوالها التي لا تعرف التوقف وقد لا يوجد ما يصلح لمواجهة حادثاتها مثل الذاكرة كأقوى سلاح تستطيع النفس أن تجد فيه المعين والمساعد والزاد الذي لا يعرف النضوب .

* * *

شغلت الحرب التي أعلنت يومئذ فجأة، وتوقف إطلاق نيرانها أيضاً فجأة من ضمتهم الجدران، وشملت حالة الإحباط كافة الموجودين، فمن طبيعة الأحداث الكبيرة حين أنها تشغل الناس جميعاً، وتجعلهم قريبين منها أياماً كانت أحوالهم وأماكن إقامتهم، وكانت ثغرة الدفرسوار التي ظهرت أخبارها في مقدمة مفارقات هذه الحرب، وكل حروب العرب في الحقيقة لم تخل من المفارقات، ومن الممكن القول إن مسيرة الحرب قد أظهرت جلياً أنها بالنسبة لأهم الأطراف العربية لم تكن سوى حرب تحريك، وأن الهدف من ورائها هو الدفع بالقضية نحو

الدخول في المفاوضات والوصول إلى الحل السلمي المنتظر، وقد جرى ذلك عبر تحرك إعلامي كان في مقدمة أهدافه إلقاء التبعة على الاتحاد السوفيتي، وهو الذي كان قبل ذلك قد أخرج خبراءه بطريقة أظهرت العرب بمظهر لا يحفظ الود نحو كل من يقف إلى جانبهم . وهو هدف عملت الدوائر الاستعمارية الكثير من أجل ترسيخه، وفقاً لما خططت الموساد الصهيونية، وهى التي يدرك الجميع مقدار تأثيرها في الإعلام الغربي . لقد صار حديث القيادات العربية هذه المرة مسموعاً أكثر من أي وقت مضى، بالنظر لما كشفت عنه الحرب من تكافؤ بين القوتين، ولما اتسمت به البيانات المتصلة بالحرب من الموضوعية ومراعاة للصدق في الحديث عن الخسائر، لكن طبيعة الخطة الموجودة لم تكن لتسمح بالخوض في مثل هذه الأمور بشكل موضوعي ، وبالقدر الذي تإذن به السوابق والقرائن ، فقد كان هناك شعور بأن مبدأ متابعة الآراء التي تقال ومن ثم توظيفها من الأمور التي لا يمكن أن تكون غائبة عن مثل هذا التجمع، وأن أحداث الحرب وما نتج عنها من استنفار للأفكار في مقدمة ما يصلح لتوفير مثل هذا المناخ، أي الوقوف على تصور الموجودين للوصول من وراء ذلك إلى ما هو أبعد، وبصدد الهوية السياسية بالذات، على اعتبار أن ما يستقى أهم من الأقوال المباشرة.

إن الأمر في هذا الصدد دقيق إلى حد كبير، فقد عرف عن أولئك الموصوفين باليسار أنهم في الغالب يتبنون الموقف المنحاز إلى المعسكر اليساري، فصار من السهل على كل قول يحاول التوضيح فقط أن ينعت بالتبعية ، فالصمت والحالة هذه ربما يكون الأقرب إلى

الصواب، رغم أن الأثر القديم قد وصف الساكت عن الحق بالشيطان الأخرس وما ذلك إلا لأن هناك قولاً آخر يحفظه الأثر أيضاً وهو أن من يعجز عن تغيير المنكر بيده أو لسانه فلا أقل من أن يغيره بقلبه وهو أضعف الإيمان، وإن يك الصمت في مثل هذه الظروف مؤلم هو الآخر.

وفضلاً عن أن العلاقات الثنائية لا تفرض بالضرورة أن يدفع أحد الاثنين بأبنائه إلى ساحات الوغى من أجل هذه العلاقة، إذ إن أقصى ما بلغته العلاقات الثنائية بين أي من الدول العربية والاتحاد السوفيتى قد تمثلت في توقيع بعض معاهدات الصداقة، وهى معاهدات لا تستوجب أكثر من تقديم المعونة عسكرية كانت أو مدنية، ووفق التزامات لا مناص للطرف المقابل من الإيفاء بها، وما من حق يعطى للعرب أن ينتظروا أكثر من مثل هذا الالتزام، الذي تؤكد جميع القرائن أنه أدى يومئذ كاملاً غير منقوص، وكل حديث عن التقصير المزعوم إنما هو من قبيل طرح الأمور في غير واقعها الصحيح .

والأمر هنا لا يتجاوز أبداً ما هو معمول به في جميع بقاع العالم، لولا أن العقلية العربية جبلت على التعبئة الإعلامية التي هيأت للمواطن العربي أن وقف عدوان 56 الثلاثى ، إلى ما عرف بالإنذار السوفيتى الذي جاء فيه على لسان رئيس وزراء روسيا إن المعتدين يمكن أن يكونوا عرضة للهجوم من دولة تستطيع أن تهاجمهم بالصواريخ العابرة للقارات، وهو إنذار كما تؤكد أطراف كثيرة مثل مهارة فائقة في الاستفادة من الظروف الدولية ومن الصراع الخفى بين بريطانيا وفرنسا من جانب والولايات المتحدة الامريكية من جانب آخر، وهى الدول التي

كانت تمثل المعسكر المعادى للشيوعية عقب الحرب الكونية الثانية، وسادته معادلة جديدة قوامها انسحاب الامبراطوريتين القديمتين لصالح القوى الجديدة هى الولايات المتحدة الامريكية التي اعتمدت سياسة الأحلاف وعولت على الاحتكارات المالية غير المحدودة فصار من الشائع تماماً أن تنسحب بريطانيا وكذلك فرنسا من مواقع كثيرة في العالم لصالح تلك القوى الصاعدة انطلاقاً من الشرق الأقصى ومروراً بالشرق الأوسط ، ليتسنى من ثم الوصول إلى أفريقيا، بحيث من المستحيل على أي طرف آخر أن يجيء بديلاً للدولتين اللهم إلا لفترة قصيرة للغاية كما حدث للاتحاد السوفيتى الذي أفلح في تسويق بعض أسلحته وفى مدى لا يسمح لحضور السلاح أن يشكل أي خطورة على حلفاء الغرب الحقيقيين، مما يؤكد أن التبعية الإعلامية التي حصلت حول الموقف الروسي إنما كانت من ضرورات اللعبة، بدليل مبادرة الولايات المتحدة بالإعلان عن مشروع ايزنهاور الذي أعلن عنه في منتصف سنة 57 أي بعد أشهر محدودة من حرب السويس، ولم يكن في حقيقته سوى محاولة للحد من النفوذ السوفيتى وأفساح المجال أمام الوريث الشرعى لنجم الامبراطوريتين الأخذ في الأفول .

غير أن الظروف لم تكن مناسبةً للجهر بمثل هذه الآراء وسط عقليات يسودها التشويش من كل جانب ، وليس من المستبعد أن يكون هناك من يرصد كل قول يعلن داخلها ويكون مخالفاً للسائد . عقليات لا يرى بعض أصحابها غضاضة من ترجيح كفة أهل الكتاب على أى كفة أخرى . عقليات لا هم لها سوى ما ينطوى عليه القطاع

العام من كل أنواع الفساد ولو كان ذلك في الخدمات التي يتفق العالم أجمع على ضرورة النهوض بها من قبل الدولة، ولا سيما بعد أن وزعت الإدارة المختصة ذلك البيان المشبوه الذي ظهر باسم إليهودى زخاروف وكله تنديد بالممارسات السوفيتية، ودعوة الموجودين إلى إعطاء رأى فيه، كما لو كانوا معنيين بما يجرى في الاتحاد السوفيتى أو متاحاً أمامهم متابعة أخباره وما وراء ذلك من الأسرار.

لم يكن ما جاء في تينك الورقتين سوى جملة من الشتائم التي سطرها زخاروف على هيئة نقد لما كان يجرى في الاتحاد السوفيتى ، ومن غير المستبعد أن يكون كل ما جاء صحيحاً، لكن الباعث له لن يكون أبداً لصالح الصهيونية التي كانت تبذل الجهد تلو الجهد من أجل تسهيل هجرة آلاف إليهود السوفيت الذين كان الموقف الروسي الرسمي يحول دون تمكينهم من ذلك، والعائد من وراء مثل هذا الموقف في مصلحة العرب، إذ سيمنع على الأقل من الاستيلاء على الأملاك الفلسطينية التي شاعت في ذلك الزمن، فمن أين للمواطن العربي أن يتجاوب مع ما حواه ذلك البيان، لكن أنى للمرء أن يقول ذلك فمن الذي يضمن ألا يكون الهدف من وراء الإجابة الوصول إلى نتائج أخرى، خاصة عندما نضع في الاعتبار ما ذكر منذ أشهر عن أحداث تشيلي على لسان وسائل الإعلام عشية انقلاب بونوشيه على اللندي وقد تزامن ذلك كله مع هذه الظروف الاستثنائية . كان كل شئ يبعث على الحيرة والقلق ويدعو إلى التفكير في مجريات الأمور وفى شئ من عدم التفاؤل إن لم نقل التشاؤم أيضاً ، ولكن دون إشراك أي من الرفاق في إعداد

الجواب، وبعيداً عما درج عليه بعضهم من التجمع والتشاور قبل تسليم الأوراق، فالخشية كل الخشية من أن يكون المستهدف هو هذه المشاورات على الأقل بالنسبة لبعض الموجودين من حيث الوصول إلى معرفة ما عساه أن يكون مفترضاً من احتمال وجود شئ من التنظيم فيما بينهم، وقد يكون ما يكتب وما يقع من تبادل للرأى حول ما يدل على وجوده، ولهذا كان الحذر من الحديث مع أي كان في كتابة الرد، إذ لم يكن ثمة مجال لعدم الرد، وفى هذا الصدد اتجه الرد إلى مناقشة الحالة مباشرة أي حول عدم الإسراع بالبت في الوجود وليس في أقوال زخاروف، باعتبار أن من وجد هنا لا تهمه إلا حالته الخاصة وليس مثل هذه الحالة التي تحتاج إلى المراجعة والى الاطلاع، وهكذا سلمت الورقة في الموعد الذي سلمت فيه الأوراق واتضح بعد ذلك أن الأمر لا يعدو أن يكون نوعاً من شغل الوقت رغم أن المسألة تكررت للمرة الثانية .

كانت الأحوال الخاصة من جهتها ليست على ما يرام، فقد دخلت أم طارق الاسابيع الأخيرة من الحمل، فصارت الزيارة متعذرة أو ما يشبه ذلك، وقد أدى ذلك إلى عدم مجىء الأسرة في الموعد المحدد في الزيارة الماضية، مما استوجب مطالبة المسؤول عن المجموعة ليإذن بالاتصال الهاتفى، نظراً لأن الإدارة المسؤولة كانت قد أكدت في وقت سابق أن مثل هذا الاتصال ليس من الأمور المحظورة عند اللزوم، لكن رئيس القسم حاول التملص من تقديم هذه الخدمة، فكان من الضرورى أن يقدم له طلب تحريرى، فاضطر بالتالى إلى أن يأمر بالحضور إلى الإدارة ومن ثم الإذن بالاتصال، وقد تبين أن الحماة الكبيرة قد حضرت

من هناك جرياً على العادة المتبعة وأن الغياب عن الزيارة سيعوض إذ إن الجار الطيب إبراهيم قد طلب منهم ابلاغه بأى يوم يريدون فيه ترتيب الزيارة الخاصة وذلك بعد أن تعهد العربي باحضارهم في أي وقت يريدون ذلك إذ كان في هذه الفترة قد أقام في المدينة ملتحقاً بدورة من الدورات التدريبية، وكذلك قام الدكتور المنتصر بإعلان استعداده للإشراف على حالة الولادة في المستشفى بدلاً من العيادة الخاصة التي ليس فيها شئ سوى زيادة التكلفة إذ سيحضر شخصياً لمجرد إخطاره بقرب الوضع وقد حمله كذلك تحياته ووعده ببذل كل جهد، لكن النفس لا يمكن أن تستريح وما إن تأخر حضورهم هذه المرة حتى كان ذلك ثقيلاً ومحزناً وباعثاً على القلق ، لقد تداخلت الأحوال من خاص وعام فضاعفت بالتالى من هذه المشاعر غير المريحة لكنها لابد أن تكتم ولا بد أن يتم التغلب عليها فالخروج من سيطرة الحالة في مقدمة ما يحتاج إليه كل من ترمى به المقادير خلف الجدران ولو من خلال الانزواء الثنائي ومحاولة الخروج بعيداً عن الواقع وضيقه .

على أن أشد ما يضاعف من التفكير في الأمور الأكبر التي تفرض نفسها رغم الواقع الشخصى الضيق هو ما كان ينشر في بعض الصحف والمجلات العربية، بعد أن صار بعضها يصدر في أوربا انطلاقاً من قبرص، فتجيء حافلة ببعض المعلومات التي كانت في زمنها ليست واضحة فإذا بها في الزمن الجديد تحمل الكثير من الدلالات وربما تؤشر إلى مراحل قادمة، ومن المستبعد أن يفلح القادرون الآن على النفاذ إلى أسرارها ومن الاستفادة مما جاء فيها .

لقد أصبح دخول هذه الصحف والمجلات من الأمور المتاحة مما جعلها تتناقل بين الأيدى وتشكل بعد ذلك مادة للنقاش، وكان من أهم ما نشر إن لم يكن الأهم ذلك المقال الذي نشرته مجلة الحوادث حول مشاريع الوحدة المطروحة من قبل الليبيين على أكثر من قطر عربي، وعلى نحو فيه الكثير من السرعة بل التضارب، فمن مشروع مع مصر والسودان إلى آخر مع سوريا ومصر، إلى وحدة اندماجية مع مصر تشكل لها اللجان المختصة وتتوالى اجتماعاتها في مصر، ويتولى الإشراف عليها مجلس قيادة الثورة تجسيداً لمبدأ الأهمية والحرص على سرعة الانجاز، وإذ بالمقال المشار إليه يقول إن المثقفين الليبيين أكثر الناس معاداة للوحدة وأن باعثهم لذلك ادراكهم لما تزخر به بلادهم من الخيرات فهم بالتالى يحرصون على أن تكون لشعبهم قبل غيره من العرب، وفى هذا الصدد ساق الكاتب معلومة من أخطر المعلومات إذ أكد ما معناه أن بعض الأطراف العربية عرضت سنة 63 على الرئيس عبد الناصر عشية انخراطه في حرب اليمن أن ينصرف غرباً باتجاه ليبيا، ولكن الأمريكان - ودون أن يجزم الكاتب بمدى قبول ناصر للرأى - حذروه من أن أي اقتراب من منابع النفط، فلم يتبين بعد ما إذا كان ما ساقه الكاتب يرمى فقط إلى مجرد التذكير بمعلومة من المعلومات التاريخية أم أنه هدف من وراء ذلك تذكير من خلف ناصر في حكم مصر، وكان يقول باستمرار إنه على خط عبد الناصر، لكن السؤال الأكبر هل كان السادات في حاجة إلى من يذكره بما يحذر منه الأمريكان، وبالتالى سيصعب على هؤلاء أن

يسربوا ما لديهم، أم أن هذا هو التسريب بعينه . لقد قيل قديماً : للبيت رب يحميه، وربما يمكن القول مرة أخرى : للبترول رب يحميه .

يدفع المرء باتجاه التفاؤل، تعويلاً على أن ذلك أدعى إلى مواجهة المحنة . وثمة في الظروف الموضوعية، والشروط القائمة ما يعزز مثل هذا الخيار. لكن بعض وقائع التاريخ وتجارب الشعوب كثيراً ما تفضى إلى غير هذا الذي نحب، وسجل التاريخ العربي الذي لا مناص من الاحتكام إليه في مثل هذه الظرف، هو سجل التجربة المصرية، ولسوء الحظ فقد اشتهرت هذه التجربة بمعاداة من يفترض أن يكونوا أقرب الناس إليها، كما أن حيرة الثوار الجدد، وعدم استقرار أكثرهم على موقف محدد بصدد مسألة اليمين واليسار تشعر هى الأخرى بالكثير في المكتبة العربية الكثير من المراجع التي تحدثت عن هذا الواقع، ومن غير المستغرب والقوم لا يسأمون من ترديد خطب الرئيس عبد الناصر أن يستعيروا تجربته جملة وتفصيلاً، وهى تجربة قامت من البداية على المفارقات فضلاً عن أنها قد اشتهرت بالقدرة على فرض كل ما تريد وأن يكون واقع الحال ليس كذلك، وكثيراً ما كانت وسائلها لبلوغ ذلك قاسية ومثيرة . وما دام الكثير من خبرائها قد وصلوا إلى البلد من البداية وأسندت إليهم مسؤوليات عدة، فليس من المستبعد أن يكون الأمر هكذا بالنسبة لنا أيضاً ، خاصة وان الذين أخذوا البيانات كان بعضهم يتكلم بلهجة أحد الأقطار الشقيقة (مصر تحديداً) .

غير أن ما جرى هناك بذكر أيضاً أشياء أخرى ويشير إلى متغيرات مختلفة من ذلك على سبيل المثال أن عدداً غير قليل من

المثقفين الذين جرى حجزهم عقب تفجر الموقف بين مصر الناصرية والعراق الفاشية، عشية اختلاف قاسم وعارف ووقوف الاتحاد السوفيتى إلى جانب العراق وما نتج عنها من تطورات لم تحل في نهاية المطاف دون خروج هؤلاء، وقد كانوا موسومين بميسم اليسار ولم تصدر بشأنهم أي أحكام، ومع أن بعضهم قد أسندت إليه بعض المواقع القيادية إلا أن ذلك إنما جرى بعد قضاء سنوات طويلة في الإيقاف بل والإبعاد فى الواحات مما يعنى أن ذات الأسلوب قد يطبق أي ربما لا توقع عقوبة من العقوبات ولكن لا يخرج أحد من هنا في وقت مبكر، وربما ينتج عن التوقيف الأخذ بأسلوب الانتقاء، كل ذلك بعد أن تجرى عملية من العمليات الرامية إلى الإكراه، والى انتزاع بعض الاعترافات ولو على لا شئ .

عبد اللطيف الذي يخلط في أحيان كثيرة بين الجد والهزل، بل والذى يعمل في أحيان كثيرة إلى تمرير جده في هزله، لا يسأم التلميح بمثل هذا الاحتمال وكثيراً ما يحدد أسماء بعينها من الذين التقاهم في رحلة العمل النقابي في أواخر الخمسينات مرجحاً أنهم من قد يكلف مكرهاً بمثل هذه المهام فإن الاعتراف بالنشاط المزعوم، مضيفاً إلى آرائه شيئاً من خياله الحصب، أو تشاؤمه الذي يفلح في إخفائه، ولديه في هذا الصدد قدرة على الاقتناع بما يتصوره .

أبو حسام الذي يتعامل مع مثل هذه التصورات في شئ من الجدية يأخذ في سرد الأسئلة المتصلة بما صار ـ بتأثير تخوفات عبد اللطيف ـ مرجحاً للدور المتوقع، فيبادر بإلقاء السؤال تلو السؤال حول

بعـض الأحـداث المتصـلة بالعنـاصـر موضـع الشـبهة، مـن حيـث تواريـخ العلاقـة بهـم مكـان اللقـاء زمـن الاخـتلاف، القـرارات التـي اتخـذت بصـدد بعضهم وعلى الأخص في نادى الشباب الليبي الذي كان أبرز الفضاءات التي طالما تحرك فيها نشاط أبو حسام، وقد تم إقصاء بعض العناصر من عضويته عندما بدرت منهم بعض الممارسات غير المسؤولة التي وضعت في زمنها بين أمرين أحلاهما مر : فإما أن يكون القول بالشروع في التفجير دليلاً على التهور وعدم استشعار المسؤولية، وإما أن يكون القائل بذلك سعى للإيقاع بمن عساه يستجيب لمثل هذه المخططات .

ولما كان الشك قد فعل فعلته في تفكير الرجل الذي أعيته المحن وهدت قدراته المتاعب، فإنه لا يجد غضاضة في ترجيح أن يكون انسحاب من كان موضع حديث أو استفهام وعزوفه عن المضى في العلاقات الإنسانية ليس سوى علامة من علامات ما كان يحضر لمثل هذه الأيام، رغم أن التجربة موضوع الحديث كانت قد حصلت قبل خمس عشرة سنة كاملة، لكنها الهواجس التي لا تعرف التوقف .

أبو حسام يسأل :

- أتذكر السنة التي جرى فيها إبعاد (...) من النادى ؟

- 1959

والمبررات ؟

- المعلنة سوء التصرف ، الحقيقية عدم الارتياح إلى ما كان

يطبع مواقفه من التهور.

وإذ يسأل أبو حسام عن السر، يجيء جوابه :

ـ الدكتور ـ يقصد عبد اللطيف ـ لا يستبعد أن يكون هو بداية لأى استدراج منتظر.

لكن الحقيقة أن الصديق أبو حسام لم يكن متبيناً لما يقول عبد اللطيف وحسب، ولكنه كان يعيش حالة من القلق إزاء الركود الذي طبع الحياة، واستمرار حالة الحجز دون وجود أي مستمسك يبرر ذلك.

* * *

كان الفلك قد دار دورته ، حل فصل الخريف، وقد بلغ يومئذ منتصفه، لكنه كان خريفاً بلا مطر وبلا هبوط في درجة الحرارة، وليس ثمة من علامات الفصل سوى ذلك الارتفاع الظاهر في درجة الرطوبة مما جعل الجميع يستشعرون اللزوجة، فيضاعف ذلك كله من مستوى القلق وهم يقطعون الساحة فرادى وجماعات.

إذ ذاك دخل أحد المكلفين باستلام الأكل والملابس لمن يرسل له شئ من ذلك، وقد كنت ضمن الذين فضلوا الاكتفاء بالأكل الموجود هنا منذ أن انتهى شهر رمضان المبارك، والأكل على أي حال جيد، لكن الرجل على ما يبدو نادى بالاسم ضمن من نادى، ولكن دون أن أنشغل بندائه، فكان أن بادر أقرب الموجودين إلى المدخل باستلام ما كان مرسلاً ربما من طرف صفاء التي ذيلت الموجود بورقة كتبت عليها

خبر الوضع المنتظر بالسلامة مؤرخة بـ 17 - 11 فتبين أن المولود المنتظر كان في الجنس أنثى، فصار عدد الأسرة يومئذ ذكرين وثلاث إناث، فشكل الخبر حدثاً حرك الموجودين جميعاً فبادروا الواحد تلو الآخر مقدمين التهنئة والأكثرية تسأل عن الاسم المنتظر، في حين كان التفكير قد ذهب إلى هناك كيف تمت الولادة وفي أي مكان وهل لم تؤثر الحالة الخاصة على المرأة المكلومة، وكيف استطاع الأطفال أن يتحملوا غياب أمهم وهم في هذه السن المبكرة، وهم أيضاً في حكم الغرباء في السكن إذ لم يمض على بقائهم ما يتجاوز السنتين .

صحيح أن أياً من الجيران لن يقصر وأن مصطفى الذي يضم أسرته وأسرة شقيقه كان الجار الجنب وقد بادر بالزيارة إلى ذات المكان، غير متحسس من صفته السابقة وكذلك أحمد تنتومن، كما ان الدكتور المنتصر تعهد بالاشراف على الحالة بمستشفى الولادة الذي لم يمض على انشائه كبير وقت وكان تجهيزه ممتازاً للغاية وقد حمل الأسرة تحياته عندما تم الكشف بعيادته وتولى السنوسي عرض الحالة عليه . لكن القلق والحيرة أقدر من تطمينات الجميع حين يكون الوضع على هذا النحو من الظروف الصعبة .

ومع التهاني بخبر المولودة أخذ الخلص من الأصدقاء القدامى وكذلك الذين توثقت معهم العلاقة داخل الجدران يبادرون بالسؤال عن الاسم، ويذهب البعض منهم إلى حد اقتراح الاسم المحبب لديه، وثمة من يكتفي بالقول إن المولودة الجديدة ابنة الجميع ، ومن حق الجميع أن يقترحوا الاسم المحبب، وما ذلك إلا لأن المحنة وحدت

الجميع وصهرتهم في بوتقة واحدة، فلا مكان للقول بالغربة إلا من أصر على التقوقع داخل شرنقته .

إذ ذاك كنت قد شردت بعيداً استرجع مراسم مثل هذا الحدث في السنوات الأولى من العمر، عندما كان " الديك " أو ذكر الدجاج الذبيحة الوحيدة لكل من تلد من النساء، فيؤتى به حياً ويذبح على مقربة من النفساء، ومن ثم يجرى طهيه مع كمية وافرة من الحلبة فينتج عن ذلك وجود كمية كبيرة من المرق الدسم الذي يترك لمن تلد دون غيرها، حتى أن من يقترب من الأطفال من هذا المرق أو الجغوم كما هى التسمية الشعبية المعروفة ينعت بأبشع النعوت والسر في ذلك أن النسوة كلهن يردن حكر هذا النوع من الطعام على النفساء دون غيرها عساها تستطيع أن تتماثل إلى الشفاء وتواصل مهنة الحبل من جديد!

تختلف عن ذلك بالطبع وليمة "العصيدة" تلك التي يسارع بطهيها في اللحظات الأولى من قدوم المولود ذكراً كان أم أنثى، فهذه توزع على البيوت ليأكل الرجال نصيبهم فيما تدعى النسوة والأطفال لأكلها بشكل جماعى في البيت الذي تولد به المولودة أو المولود، فهى أقل أنواع العقائق في سنوات الفاقة وضيق ذات اليد، مما جعلهم يطلقون عليها كلمة الصدقة، كيما تكون واجبة العطاء لمستحقيها من الجيران والأقارب ، وكان على هؤلاء أن يبادروا بتناولها وعدم التخلف عن تلبية الدعوة إليها أو الامتناع عن أكلها فيما إذا وجدت في أي مكان وقيل إنها أي العصيدة خاصة بأحد المواليد الجدد .

لقد اعتاد الفضل أن يرصد أحوالي النفسية من بعيد، وأن يخترق عوالمي بطريقته الخاصة، فهو يجمع بين المحبة والاجلال، وإذ لم يخف عليه ما أعترى احوالي من القلق والحزن ـ فيما يبدو ـ بادر باخراج ورقة كبيرة من كراساته الكثيرة وطلب من الرفاق جميعاً أن يقترحوا ما يعز عليهم من الأسماء للمولودة الجديدة، انطلاقاً من الرأى القائل بأن هذه المولودة تهم الموجودين بالكامل، ولأنه موضع تقدير الكثيرين فلم يكن أمام هؤلاء إلا أن يستجيبوا ويبادرون بالتالى باقتراح ما يترآى لهم من الأسماء، ويدونون أمام كل مقترح أسماءهم طبقاً لما أقترح الفضل ودعا إلى توثيقه عسى أن يذكر ذلك ذات يوم، فيما كنت من جهتى أتساءل عن هيئة المولودة الجديدة ولأى من أبويها، أنا والأم، قد انحازت من حيث الوراثة، متمنياً بالطبع أن يكون حظها باتجاه اللون الأشقر الذي ظفر به في الماضى شقيقاها أكثر من شقيقتيها، حتى أن بعض اللائى رأين الأطفال ذات يوم إلى جانب البنات لم يجدن غضاضة في القول بأن الصبيان أحلى من البنات .

كثيرة كانت الأسماء بحجم الموجودين الذين حرك وجدانهم الخبر وأثر فيهم اهتمام الفضل، هذا يقول سعاد والآخر يقول بثينة وثالث يقول أمل، أكثر الأسماء تحاكى واقع الحال وطبيعة التفكير ومستوى المعاناة وقوة الاحتمال، فيما كان المشاركون في المناسبة خليطاً من الذين خلق منهم المكان وحدة وجدانية لافتة . اقترح الفضل اسم رشا ووضع أبو حسام اسم كوثر فيما كنت شديد الميل إلى اسم ليبيا . على أن الأمر لم يحسم، ولمحدودية العالم والقدرات فمن

الضروري أن يسيطر الحدث وأن يشغل الخبر الأكبر من الوقت، فلا شئ هنا يهم سوى ما يطال الموجودين مباشرة، وما عدا ذلك فمن مشمولات من هم خارج الجدران .

كانت الزيارة ميسرة لمن يطلب، فاقتصرت على الأطفال الأربعة مع من بادر بإحضارهم، فاختلطت أحاديثهم بين السؤال عن موعد الخروج وعن الاسم المقترح . إن الحديث عن الخروج لم يكن جديداً فقد اعتادوا أن يسألوا عن ذلك باستمرار وأن يحتجوا عن عدم معرفة الموعد وفي أحيان كثيرة دعت أم طارق إلى محادثتهم في الخصوص، وكنت أتحرج من الرد . بيد أن الأمر مع الأطفال يختلف تماماً لولا أن الانشغال باسم المولودة غلب على ما سواه . بين غادة وكوثر ومزيد من المزح مع كبراهن، رجحت اسم كوثر، نطقت به هكذا ودونما تعليل يذكر أو امتناع ظاهر، لتنتهى الزيارة بعد ذلك ونعود إلى الساحة نستعين بها على قضاء الوقت الممل، فيكون أبو حسام مرافقى في الأمسية، وأسره ندمى على عدم ترجيخ اسم ليبيا، خشية أن اتهم بالتراجع عن الموقف، وإذا بالرجل يشير إلى نقطة مهمة خلاصتها أن الأسماء لا علاقة لها بالمواقف أو الميول وإنما بالمألوف، يشير إلى أن إطلاق اسم ليبيا على الفتاة من شأنه أن يسمح لنظيراتها أن يعيرن بما يفيد الاتساع في كل شئ وذلك شئ غير سار للفتاة .

كان القول مقنعاً والرأى مصيباً وكان الحدث كافياً للخروج من الحالة النفسية التي سيطرت لوقت ليس بالقصير جراء ما روجه عبد اللطيف وما عانى منه أبو حسام .

لم يعد شئ مما يجرى خارج الأسوار بعيداً عن القابعين داخل عنابرها ووسط ساحاتها، فالزيارات التي فتحت بدون قيود بحيث شملت الأقارب والأصدقاء أتاحت لعدد غير قليل أن يدوام ويأتى بما لديه، كما أن الذين اتصفت أعمالهم بشئون التوثيق وما في حكمه حرصوا على استثمار هذه الوضعية للمجيء بما في ذلك بعض الذين شملهم إجراءات الحجز في مفارقات خاصة وأمكن تصفية أوضاعهم في آخر الاحتفالات أخذوا يقومون بالزيارة طبقاً لمبررات لم تعوزهم وأتاحت لهم بالتالى مقابلة البعض كي يتهربوا عن البعض الآخر، وكان ذلك باعثاً على الكثير من الأمل والاقتناع بأن المسألة مسألة وقت ليس غير، ما من تبعة قانونية موجودة وما من إدانة يمكن أن تصدر، ومثلما كان الحضور في مستويات كثيرة نتاج صدفة من الصدف أو حالة من الحالات فمن المؤكد أن الخروج سيكون بذات القدر، لكن النفس لا تستطيع في الغالب الخروج من وساوسها ، كما أن المنطق كثيراً ما يكون نتاج ظروف معينة، شبه معطل وقد تطول الإقامة بالرغم من عدم وجود مبرارت قانونية، وثمة بعض الأحداث الكبيرة قد تبدو باعثة على القلق حين لا تمضى كما يراد لها ويؤمل منها .

كان في مقدمة هذه الأحداث مشروع الوحدة الليبية التونسية التي أعلن عنها زمنئذ في مدينة جربة أو ما أطلق عليه ميثاق جربة عندما استيقظ الناس في طرابلس وتونس ومن خلفهم العالم أجمع عن لقاء ليبي تونسي على مستوى القمة والإعلان عن مشروع وحدة ليبية تونسية كانت من السرعة بحيث خيل للجميع أنها أقرب إلى

الإنسان من حبل الوريد، مما خلق حالة من الاستغراب فاقتفى حجمها ووقعها كل ما سبقها، فقد كانت بحق وبكل الاحتمالات غير متوقعة، فلا الخطاب السياسي يقبل بها ولا طبيعة النظامين تدفع باتجاهها ولا طبيعة الدور تسوغ ذلك ولا فارق السن بين القيادتين بالذى سهل الطريق إليها، فمن أين لهذه الخطوة أن تضمن النجاح وكيف يمكن لها أن تواصل طريقها نحو التنفيذ بالشكل الذي ظهرت أو كما قيل عنها جمهورية عربية إسلامية .

صحيح أن الخيار الوحدوى لدى الثوار الليبيين يفوق كل الخيارات، ولا يستبعد أن يتم في سبيل تحقيقه التخلى عن الكثير من الفوارق لكن المشترك هو الأساس وهو قليل حتى الآن بين النظامين السياسيين، كما أن الجانب التونسي لا يعتمد سوى المراحل وعليها يعول التعويل الأمثل وله أدبياته المعروفة وتراثه الكبير فكيف سيغير من نهجه هذا، لقد كانت تونس في العموم تتبنى فكرة التنسيق الاقتصادى والتكامل الصناعى وتعول على مبدأ الحيلولة دون التنافس في المشاريع الصناعية بحيث يكون سوق البلدين موحداً في شراء المصنوعات لإدراكها أن المنافسة الأجنبية مغرية ويستحيل على الأسواق الصغيرة أن تحقق أي مقدرة تنافسية، ومن أجل ذلك كله كان الإعلان عن الوحدة المنتظرة لافتاً في يومه الأول، بيد أنه ما لبث أن أثار شعوراً آخر لمجرد حلول اليوم الثانى حيث تم الصمت في الإعلام التونسي، مما أشار إلى حدوث شئ ما فكان ذلك ما أثار المزيد من القلق . فتلك حالة من حالات الإحباط قد تدفع

بالثوار إلى عدم الالتفات إلى المشكلات القائمة وقوة الولع بالمنجز الوحدوى من الممكن أن تصرف النظر عن الداخل بمن في ذلك الموجودين هنا. أضف إلى ذلك ما نشر منذ أيام على لسان أحد الصحفيين العرب من أن المثقفين الليبيين أكثر عداء للوحدة من غيرهم، ذلك القول الملىء بالكثير من التشويه والتحريف، إذ لم يكن هؤلاء معادين للوحدة كخيار ولكنهم معترضين على الأسلوب وعلى الفهم الذي يريد من الليبيين أن يبقوا مجرد مستهلكين للمنتج العربي في كل المجالات بحجة الإيمان بالوحدة. كان كل شئ إذن يضاعف من الإحساس بالخوف من عدم البت في أمر الموجودين الذين لم يعد لهم من عمل سوى قطع الساحة جيئة وذهاباً أو البقاء داخل العنابر والانكفاء داخل الذات، فيبدوا الجيلاني ساهم الوجه وقد عادت إليه اللحية التي أطلق لها العنان منذ سنوات عندما ظهرت على ذقنه بعض البقع البيضاء ولم تكن أبداً من دوافع التدين رغم أنه في أعماقه صوفى كبير، أبو حجاج يقضى معظم وقته مستلقياً بحيث لا يرى خارج المكان إلا نادراً، لكنه في هذا اليوم كان من بين الذين شرعوا يقطعون المساحة الخارجية، حتى أن "حبيل " استأنف معه الحديث القديم القائم على النكتة المصرية التي احتفظ بها من السنين البعيدة عندما كان بين الذين أتموا دراستهم الجامعية هناك ولم يكن له من معين في رحلته الدراسية سوى تلك العجوز التي قامت على تربيته منذ طفولته الأولى كما يؤكد الشيخ علي الذي يعرف خلفيات جميع الذين حواهم المكان من أبناء نالوت وفساطو

ويفرن وغيرهم من الذين اشتبه حولهم بنشاط من الأنشطة لكن هذا الاشتباه لم يشمل حبيل إذ كانت شبهته تعود إلى سنوات الدراسة وحيث النشاط الطلابي في الخمسينات. فظلت الشبهة قائمة حتى أمكن المجيء به ضمن البقية من ذوى الهويات السابقة التي صمدت إزاء الزمن حتى وإن لم يوجد من النشاط ما يؤكدها .

* * *

بين الجد والهزل كان حديثنا وقد سيطر شئ من القلق جراء دعوة مجموعة محدودة منذ الصباح الأول. ليعودوا بعد ذلك ويؤكدوا إجراء مقابلة بينهم وبين نظراء لهم في التصنيف قيل الهدف العلن إحاطة أولئك الذين لم يؤت بهم إلى هنا ، إنهم لا يزالون قيد المتابعة وأن الدليل على ذلك ما واجههم به بعض الموجودين مما جعل الحوار يتشعب حول الهدف ومدى علاقته بإمكانية الخروج من عدمه.

لقد استبعد إمكانية أي شئ إيجابي في هذه المسألة فما دام القوم بصدد إجراء المواجهة بين الناس. فإن النية على ما يبدو تتجه إلى اطالة فترة البقاء وربما حتى إعادة النظر حتى أنه حين وقع القول بأن للأمر علاقة بالتصفية لم يجد غضاضة من نعت من تبنى هذا الرأى بمن يخلط بين الأمنية والتحليل وهو فيما بعد يعنى حسب رأيه حالة من حالات المرض التي تخلط بين الأمانة والرأى فتحول الأماني إلى توقعات كان لديه مصطلح لهذه الحالة بالانجليزية هو من بقايا دراسته العليا في الولايات المتحدة الامريكية. وهى دراسة لم تبعد

الرجل عن شائبة اليسار فظلت عالقة به رغم هذه السنوات الطويلة .

خشى بعض الرفاق أن يكون خروج الفضل الذي دعى هو الآخر عقب خروج المجموعة مباشرة ينطوى على نية من النوايا المماثلة، خاصة وأن أعداداً لا بأس بها من الذين طالتهم آفة الاشتباه لم يكونوا ضمن هذا التجمع، وثمة من كتب بعض الكتابات التي تؤشر على نحو ما إلى تثبيت الشبهة إزاء من شمله الإجراء، لكن هذه الحشية كانت ربما في غير محلها إذ لم يكن هناك من سبب حقيقى لحضور الجميع ما دامت المسألة منحصرة في العينات وحسب . فضلاً عن ذلك وفى أسوأ الفروض لو وجد مثل هذا التوجه لأختير غير الفضل إذ لم يكن على علاقة مع الذين لوحظ غيابهم من التجمع فما المبرر لأخذه لمثل هذه المهمة ؟ وهو على أي حال قد يجد تجمعه من مثل هذه المهمة في حالة ما إذا كان لابد من تكليف أحد بها .

وكما هى العادة دائماً وفى مثل هذه الظروف يحدث أن تنتحى بعض الرموز مع بعضها البعض وأبو حسام في مقدمة هذه الرموز فكان من اللازم أن ننتحى مع بعض وأن يكون الشعور القائل باحتمال الشروع في الافراجات كان رده بلا مراوغة إنه من أنصار مثل هذا التصور وإن لم يشأ أن يمعن في التفاصيل .

طيلة الفترة التي عشناها معاً كان يعانى من الإمساك المزمن فتراه يبحث عن الملين باستمرار إلى جانب بعض الأقراص التي يتحقق أثمانها وتأثيراتها بشكل ملحوظ وثمة من يبادله الاهتمام

والطلب والعطاء في ذلك التجمع، كما يشكو من أن لآخر من آلام الالتهابات لكنه في ذلك كله يتوفر على قدر من التحمل الجسماني، أما على الصعيد الاجتماعي فالحق أن قواه قد خارت بالكامل، أي من حيث التعامل مع الآخرين ولكن دون مشاكل معلنة، ولا شك أن تجربته المريرة قد أثرت في حركته المتصلة بالغير طبقاً لحجم النقاوة التي يتوفر عليها ولا يجدها لدى الآخرين .

مر بحالتى الماضى البعيد والحاضر الصعب في الممر وسجل الذاكرة مفتوح بالكامل، كانت أزمته قد بلغت أوجها هنا، وبصدد المسألة الدينية تحديداً، ففى زمن الاختبارات يدرك المجايلون جميعاً أن الرجل شديد المحافظة على صلواته واضح الأعراض عن المعلن من محرماته لكنه كان دائماً صاحب رأى في تنظيم المجتمع من حيث الاقتصاد ومن حيث بقية الأشياء، وإذا سمح الوضع بالحديث تأكد أن التأثر كان من قبل بعض العناصر السودانيين، وبمراجعة تاريخ اليساريين أن الأمر في محله فالمعروف عن السودانيين أنهم دائماً في مقدمة من ينضبط عقائدياً، فلا يخلطون بين المعتقد الفكرى والممارسة الشعبية، بل لا يجزمون بالتحليل المادى إزاء الموروث الروحى ولا ينشغلون البتة بما يطلق عليه خلل التناقض الميتافيزيقى في أحيان كثيرة وبصدد هذه المسألة كنا نصلى معاً يصر على أن أؤمه فهو يرفض الامامة على أنه يستريح ، وقد يصر على أن نكون معاً وأؤمه، والحق أننى كثيراً ما استثقلت هذه الاعتزالية ولكن الحرص على إشباع رغبة أبو حسام يفوق في أحيان كثيرة ما عداه من الاعتبارات .

كنت أعيش حالة من التشيع بصدد أشياء كثيرة أبرزها بدون شك تلاوة الذكر الحكيم الذي أدمنته بشكل غريب رغم أن هذا الإدمان لا علاقة له بالمسألة القدرية إلا أن قراءة ما يزيد على عشرين سلكة طيلة رمضان وكنا يومئذ في شهر ذي القعدة مسألة تبعث أشياء كثيرة .

ذو القعدة هذا تزامن مع ديسمبر ، ومن المفروض أن يكون الشتاء آتياً لا ريب فيه، لكن اللافت أن التوقيت لم يكن كذلك فقد استمرت حالة الدفء المزعجة على اعتبار أن كل الأيام كذلك رغم أن الكثير من الرفاق كانوا قد بادروا باحضار ملابسهم الشتوية .

لكن اللحظة أملت المراجعة ومحاسبة الرجل ببعض اجتهاداته الخاصة من ذلك أنه كان يرفض أن يذكر خبر ما منسوباً لقائله، إذ كان يصيح في وجه محدثه حين يقول سمعت من فلان، أخرس قل سمعت دون أن تذكر القائل والهدف بالطبع هو المحافظة على السرية وعلى عدم الإسهام في ترويج الأخبار بما قد لا يفيد الصحة، وفي هذا الصدد كان الكثير من أصدقاء (أبو حسام) يتآمرون عليه قائلين، سمعنا أن زيداً قال .. فما يكون منه إلا أن يتهور قائلاً لماذا تذكر المصدر وآية ذلك أن الشيخ علي يريد أن يعاد الخبر بلا مسؤولية على القائل . من المراجعة البسيطة تبدو النزعة الحذرة في تفكير الرجل، ويبدو أكثر من ذلك أنه لابد أن يدفع ثمن ذلك نصاً في التعامل مع الناس .

استطاع الفضل عند عودته أن يختطف لحظة من بين الرفاق أسر فيها أن خروجه كان لغرض الزيارة وأن رئيس القسم أمر لصفاء

عند انتهاء الزيارة بأن تحضر خروف الزردة ، إذ تأكد موعد الخروج ما لم تجد أشياء طارئة وبين الانتظار والتحليل دخل شهوب منادياً على عدد من الأسماء في مقدمتهم مفتاح وعبد اللطيف والفضل وجمعة والشيخ على وعبد الكريم لينقلوا جميعاً إلى الإدارة ، ومن ثم استقبالهم وإبلاغهم بالقرار الذي تحدد رقمه في واحد وستين شخصاً. كانت السرعة هي طابع الإجراء إذ لم يستغرق الغياب سوى وقت قصير ليعودوا مرة أخرى لتسليم ما لديهم وأخذ حاجياتهم مؤكدين أن دفعات أخرى ستتوالى .

وبالفعل لم يكد الإجراء الخاص بهؤلاء يتم حتى نودى على مجموعة أخرى مما أكد أن كل شئ سيتم خلال أيام محدودة للغاية أي بذات الطريقة التي اتبعت عندما تم التوقيف .

أصبح الكل يسأل وينتظر وكم هائل من الحيرة يطل على الموجودين والى أي حد تعين أن يتسع العدد ، كان هناك يقين أن الخروج ليس جماعياً وأن ثمة من ينتظر المثول أمام القضاء وأن الأمر لابد أن يأخذ بعض الوقت . كان الحاج من البداية قابل بعض المعنيين بالأمر مشيراً إلى مثل هذا التوجه وإن يكن قد وعد ببذل الجهد الممكن ، لأن تسيير الأمور في اتجاه التيسير ومحاولة التخفيف ما أمكن ذلك، بيد أن ما أصر على التأكيد به أن سوء المعاملة لن تطال اياً كان . مزيج من الدموع والابتسامات كانت تعلو الوجوه وثمة شرود لا حد له في النظر .

* * *

صدر للمؤلف

دوائر الزوايا المتداخلة	دراســـــات	نشر الدار الجماهيرية
القصة في أدب عبدالله القويرى	دراســـــة	،، ،، ،،
الشعر شهادة	دراســـات عـن الشعر في تونس	،، ،، ،،
كلام في القصة	دراســـــات	،، ،، ،،
دفء الكلمات	دراسات عن الغرب	،، ،، ،،
حبال السفن المقلعة	خواطـــــــــر	،، ،، ،،
مسارب (1)	ســـيرة روائـــية	منشورات أمين مازن
مسارب (2)		،، ،، ،،
مسارب (3)		،، ،،

تحت الطبع:

ثمار الفصول	دراسات فكرية
مشاوير	مقالات متنوعة
معارك اليوم	مقالات وآراء
بقايا السهاد	مقالات



■ يقدم مجلس الثقافة العام للقارىء الكريم مجموعةً من إصداراته الجديدة المتنوعة، التي تتضمن أجناسًا أدبيةً وفنيةً، تهدف إلى دعم الكتاب ونشر المعرفة وتنمية الذائقة الجمالية وإثراء الحركة الثقافية .. آمِلاً إسهامًا جادًّا يضيف إلى الحراك الثقافي رصيدًا مميزًا وفضاءً جديدًا للمعرفة وللحياة.

مجلس الثقافة العام